

سو مرست موم

القتاع الملون

رواية

ترجمة: سامح الجباس

سومرست موم القناع الملون

رواية

آفاق
للنشر والتوزيع
AFAC BOOKS

ترجمة: سامح الجباس



القناع الملون

سومرست موم

- ♦ المؤلف: سومرست موم
- ♦ العنوان: القناع الملون
- ♦ ترجمة: سامح الجيباس
- ♦ طبعة أفاق الأولى 2020
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٩/١٣٤٨٦

الترقيم الدولي: ISBN:

978-977-765-221-6

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO - EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com - www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

سومرست موم

القناع الملون

رواية

ترجمة

سامح الجباس

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

موم، سومرست.

سومرست موم: القناع الملون

ترجمة: سامح الجباس

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2020

360 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 13486 / 2019

الترقيم الدولي 6 - 221 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - موم، سومرست

« القناع الملون »

: هو ما يدعوهُ هؤلاء الذين يعيشون

« الحياة »

- 1 -

أطلقت صرخة فزع.

سأل:

ما الأمر؟ -

بالرغم من ظلام الغرفة مغلقة المصاريع الخشبية، إلا أنه رأى وجهها، وقد أصابه الرعب بذهول فجائي.

!حاول أحدهم فتح الباب الآن -

حسنًا، ربما كانت الخادمة أو أحدًا من الخدم -

لا يحضرون في هذا الوقت أبدًا؛ فهم يعرفون أنني أنام دائمًا بعد الغداء -

من غيرهم يمكن أن يكون؟ -

:همست وشفتها ترتجفان

ولتر -

وأشارت إلى حذائه، حاول أن يلبسه، لكن عصبيته جعلته أخرق الحركات؛ فقد كان فزعها يؤثر عليه، إضافة إلى أن الحذاء كان ضيقًا. فأعطته لباسة أذية وهي تشهق شهقة نفاذ صبر خافتة، ثم انزلت داخل روب كيمونو، واتجهت إلى طاولة الزينة وقدمها حافيتان. كان شعرها مشعثًا، فجمعت شعثه بمشط قبل أن ينتهي هو من عقد رباط فردة حذائه الثانية، ثم ناولته معطفه.

كيف سأخرج؟ -

الأفضل أن تنتظر قليلًا، سأطل على الخارج لأتأكد من أن كل شيء على ما يرام -

لا يمكن أن يكون ولتر؛ فهو لا يُغادر المختبر حتى الخامسة -

من هو إذن؟ -

تكلما همسًا الآن. وكانت ترتجف. خطر في باله أنها ستفقد أعصابها في حالة طوارئ، فاجتاحه غضب مفاجئ نحوها. إن لم يكن الوضع آمنًا، فلماذا بحق الشيطان قالت له إنه آمن؟ حبست أنفاسها ووضعت يدها على ذراعه، وتابع اتجاه نظرتها. ووفقا في مواجهة البابين

المؤديين إلى الشرفة. كانا بمصاريح خشبية، وكانت تلك المصاريح محكمة الإغلاق. رأيا مقبض الباب الكروي الصيني الأبيض يدور ببطء. لم يسمعا أحدًا يمشي في الشرفة. كان من المرعب أن يريا تلك الحركة الصامتة. مرت دقيقة ولم يصدر أي صوت. ثم شاهدا المقبض الكروي الصيني الأبيض على الباب الآخر يدور أيضًا بنفس الطريقة المختلطة الصامتة والمفرعة. دب في أوصالهما روع خارق للطبيعة. كان الوضع مخيفًا لدرجة أن كيتي فتحت فمها لتصرخ وقد فقدت أعصابها، لكنه وضع يده على فمها بسرعة وخفة، بعد أن رأى ما كانت ستفعله، فاختمت صرختها بين أصابعه.

صمت. مالت عليه وركبتها ترتجفان، فخاف أن يُغمى عليها، فحملها إلى سريرها، وهو عابس وقد أطبق فمه، ثم أجلسها على السرير. كانت بيضاء كصفحة ورق، وكانت وجنتاها شاحبتين أيضًا بالرغم من سمرة. وقف إلى جانبها ناظرًا إلى المقبض الأبيض في تحديقة. مسلوبة الإرادة. لم ينبسا ببنت شفة، ثم رأى أنها كانت تبكي.

:همس مضطربًا

- بالله عليك لا تبكي. لو تورطنا، فنحن متورطان، ولا بد أن نواجه الورطة برباطة جأش -
- بحثت عن منديلها، فأعطاها حقيبتها بعد أن عرف ما كانت تريده
- أين توبي(1)؟ -

قبة هندية من الفلين. (المترجم) 1)

- تركتها في الطابق السفلي -
- !أوه، يا إلهي -

قلت تمالكي نفسك. مائة مقابل واحد أنه لم يكن ووتر. لماذا يعود في هذه الساعة بحق الأرض؟ إنه لا يعود إلى البيت في منتصف النهار أبدًا، أليس كذلك؟

- أبدًا -
- أراهنك بأي شيء يحلو لك بأنها كانت الخادمة -

رمته بظل ابتسامة، فقد طمأنها صوته العميق الحنون، فأخذت يده وضغطتها بحنان، وأتاح لها لحظة من الزمن لتستجمع شجاعتها، ثم قال بعدها:

اسمعي، لا يمكننا أن نبقي هنا إلى الأبد، هل تتحلين بالشجاعة الكافية لتخرجي إلى الشرفة -
وتلقي نظرة؟

- لا أرى أنني أستطيع الوقوف -

- أليك بعض البراندي هنا؟ -

هزت رأسها، وأظلمت جبهته بتقطيية ارتسمت عليها للحظة، وأخذ صبره ينفد، ولم يعرف
تمامًا ما يفعله. فجأة، قبضت على يده بقوة أكبر

- لنفترض أنه ينتظر هناك؟ -

أجبر شفثيه على الابتسام، وحافظ صوته على نبرته الرقيقة التي كان موقنًا تمامًا من
تأثيرها

هذا ليس محتملاً كثيرًا. تحلّي بقليل من الشجاعة يا كيتي. كيف يمكن أن يكون زوجك؟ إذا -
كان قد دخل البيت ورأى توبية غريبة في الردهة، وارتقى الدرج ووجد غرفتك مقفولة، فبالأكيد
أنه كان سيثير نوعًا من الشجار، لا بد أنه كان أحد الخدم. ليس سوى إنسان صيني ليدير مقبضًا
بهذه الطريقة

- ازدادت طمأنينتها الآن

- ليس الأمر سارًا جدًا حتى وإن كانت هي الخادمة فقط -

يمكن رشوتها، وسأثير الخوف من الله في نفسها إن كان هذا ضروريًا، ليست ثمة مميزات -
كثيرة في العمل في منصب حكومي، لكن يمكنك الاستفادة منه قدر ما تستطيعين

لا بد أنه على حق، فنهضت ومدت ذراعها إليه بعد أن التفتت نحوه، فأخذها بين ذراعيه
وقبّلها على شفثيها، لقد كانت قبلة نشوة عميقة إلى درجة الألم. إنها تعبه. تركها، فأتجهت نحو
باب الشرفة، أزاحت القفل وأطلت على الخارج بعد أن فتحت المصراع الخشبي قليلًا. لم يكن
هناك أي مخلوق، فتسللت إلى الشرفة وألقت نظرة على غرفة ملابس زوجها وعلى غرفة
:جلوسها الخاصة بها. كانت كلا الغرفتين خالية. عادت إلى غرفة النوم، وأشارت إليه

- لا أحد -

- أظن أن الأمر كله كان خداع بصري -

- لا تضحك، لقد ارتعبت، ادخل غرفة جلوسي واجلس هناك، سأرتدي جوربًا وأنتعل حذاءً -

* * *

- 2 -

فعل ما أمرته به، ثم انضمت إليه بعد خمس دقائق. كان يدخن سيجارة

بالمناسبة، أسمحين لي في براندي وصودا؟ -

نعم سأرن الجرس -

لا أظن أن الشراب سيضركِ حسبما تبدو عليه الأمور -

انتظرا صامتتين حتى أجاب الخادم، وأصدرت الأمر

بقالت له:

اتصل بالمختبر واسأل إن كان ولتر هناك. لن يعرفوا صوتك -

رفع السماعة وطلب الرقم. سأل إن كان دكتور فاين في المختبر، ووضع السماعة. قال لها

لم يكن في المختبر منذ الغداء. اسألي الخادم إن كان هنا -

لا أجرو. سيبدو الأمر سخيًّا إن كان هنا ولم أره -

:أحضر الخادم الشراب، فصبه تاونسيند، وعندما قدّم إليها بعض الشراب هزت رأسها، سألت:

ما الذي سنفعله لو كان ولتر؟ -

ربما لن يهتم -

ولتر؟ -

كانت لهجتها غير مصدقة

لقد خطر في بالي دائماً أنه خجول إلى حد ما، فبعض الرجال لا يحتملون الفضائح، كما -

تعرفين، وهو يتمتع بما يكفي من شعور ليعرف بأنه لن يجني شيئاً من إثارة فضيحة، وأنا لا

أصدق لدقيقة واحدة بأنه كان ولتر، لكن، حتى وإن كان هو فباعقادي أنه لن يفعل شيئاً، أظن

أنه سيتجاهل الأمر

فكرت للحظة

إنه يحبني كثيراً -

حسناً، ذلك خير، فيمكنك الالتفاف حوله -

رماها بابتسامته الساحرة التي وجدتها دائماً لا تقاوم. كانت ابتسامته بطيئة تبدأ من عينيه الزرقاوين الصافيتين وتنتشر بدرجات محسوسة إلى فمه الجميل التكوين. كانت له أسنان بيضاء مستوية، وكانت ابتسامته حسية جعلت قلبها يذوب في جسدها.

قالت بمرح:

- لا أبالي كثيراً جداً، فما جرى يستحق التضحية -

- كانت غلطتي -

- لماذا جنت؟ لقد دهشت لرؤيتك -

- لم أستطع مقاومة هذا -

- عزيزي -

مالت نحوه قليلاً، وعيناها الداكنتان اللامعتان تحديقان بعاطفية في عينيه، وفمها منفرج في اشتها، فأحاطها بذراعيه. أسلمت نفسها بتنهيذة نشوة

قال:

- أنت تعرفين بأنك يمكنك الاعتماد عليّ دائماً -

- إنني سعيدة جداً معك. ليتني أستطيع أن أسعدك كما تسعدني -

- لم تعودني خائفة؟ -

أجابت:

- أنا أكره ولتر -

لم يعرف تماماً ما يقوله رداً على هذا، فقبَّلها، كان وجهها ناعماً جداً على وجهه

لكنه أمسك برسغها الذي تحيطه ساعة ذهبية صغيرة، ونظر إلى الوقت

أتعرفين ما يجب أن أفعله الآن؟ -

ابتسمت:

- تهرب؟ -

أوماً برأسه، وتمسكت به بقوة أشد للحظة، لكنها شعرت برغبته في الانصراف، فتركته

- إن الطريقة التي تهمل بها عملك مخزية. اذهب -

لم يستطع مقاومة إغراء الغزل، فقال بخفة:

- تبدين في عجلة الشيطان لتتخلصي مني -
- أنت تعرف أنني أكره أن أتركك تذهب -
- كان جوابها خافتاً وعميقاً وجاداً، وأطلق ضحكة مغرية
- لا تقلقي رأسك الجميل الصغير بزانرنا الغامض. فأنا متأكد تماماً من أنها كانت الخادمة، -
- وإذا وقعت أي متاعب فأنا كفيل بإخراجك منها
- ألدك كثير من الخبرة؟ -
- كانت ابتسامته ضاحكة ولطيفة
- لا، لكنني أمتدح نفسي قائلاً بأن لديّ رأساً راجح العقل على كتفي -

* * *

خرجت إلى الشرفة وراقبته وهو يغادر البيت، لَوَح بيده لها، لقد أحست بإثارة طفيفة وهي تنظر إليه، لقد كان في الحادية والأربعين، لكن قوامه رشيق وخطاه فتيمة متوثبة.

كانت الشرفة في الظل، فسارت متباطئة بكسل وقلبها يشعر بالراحة من الحب المرضي. إن بيتهما قائم في الوادي السعيد، على سفح التل، إذا لم يكن ضمن إمكاناتهما المادية أن يعيشا في القمة الأرقى والغالية في نفس الوقت، لكن نظرتها الشاردة لم تكد تلاحظ البحر الأزرق والسفن التي تملأ المرفأ، فلم تستطع أن تفكر إلا بعشيقها.

كان من الغباء طبعًا التصرف مثلما تصرفا بعد ظهر ذلك اليوم، لكن كيف يمكنها أن تكون حذرة إن هو رغب فيها؟ لقد حضر مرتين أو ثلاث مرات بعد الغداء، حينما لا يفكر أحد في الخروج من البيت في حرارة النهار، ولم يره حتى الخدم يأتي ويذهب. كان الوضع صعبًا جدًّا في هونج كونج. ولقد كرهت المدينة الصينية وأثار غضبها ذهابها إلى البيت الصغير القذر المتفرع من طريق فيكتوريا والذي اعتادا أن يلتقيا فيه. لقد كان ملكًا لتاجر تحف، وكان الصينيون الذين يجلسون قربة يحدقون فيها بشكل مزعج، وكانت تكره ابتسامة الرجل العجوز المنافقة الذي كان يأخذها إلى خلف الدكان، ثم يصعد معها مجموعة الدرجات المعتمة. وكانت الغرفة التي يقودها إليها رثة كريهة الرائحة، والسرير الخشبي الكبير الملتصق بالحائط يثير فيها الرجفة.

قالت لشارلي في أول مرة قابلته فيها هناك:

هذا مكان قذر جدًّا، أليس كذلك؟ -

وأجابها:

كان قذرًا إلى أن دخلته -

وفي اللحظة التي أخذها بين ذراعيه. نسيت كل شيء طبعًا.

أوه، كم هو بغيض أنها لم تكن حرة، أن كليهما لم يكن حرًا، لم تحب زوجته، واستقرت أفكار كيتي الشاردة على دوروثي تاونسيند للحظة الآن. ما أتعب أن تدعى دوروثي، إنه اسم يتعدى زمنك. لقد كانت في الثامنة والثلاثين على الأقل، لكن شارلي لم يتحدث عنها أبدًا. إنه لا يهتم بها طبعًا، فهي تثير فيه الملل حتى الموت، لكنه كان رجلًا مهذبًا، وابتسمت كيتي بسخرية حنون، هذه هي طبيعته تمامًا، الشيء العتيق السخيف، فهو قد يخونها، لكنه لا يسمح بكلمة انتقاص لها

أن تنطلق من بين شفثيه، لقد كانت امرأة طويلة إلى حد ما، أطول من كيتي، وهي ليست سميحة ولا نحيلة، لها شعر بني فاتح غزير، لم تكن تتمتع بأي جمال إلا جمال الشباب، وكانت ملامحها الجميلة إلى حد كاف دون أن تكون مدهشة، وكانت عيناها الزرقاوان باردتين، وكانت لها بشرة لن تنظر إليها مرتين، كما لم يكن لوجنتيها أي لون. وهي ترتدي مثل -حسناً- مثل ما كانت ترتدي، زوجة مساعد أمين المستعمرات في هونج كونج. ابتسمت كيتي وهزت كتفيها هزة خفيفة.

لا أحد يستطيع أن يُنكر طبعاً بأن دوروثي تاونسيند تتمتع بصوت بهيج، وكانت أمّاً رائعة، وقد قال شارلي ذلك عنها دائماً، وكانت ما تدعوه أم كيتي بالمرأة المهذبة، لكن كيتي لم تحبها، لم تحب سلوكها اللامبالي. والأدب الذي تعاملك به -عندما تذهب إلى هناك للشاي أو للعشاء- مثيرٌ للسخط لأنك لا يمكنك إلا أن تشعر بقلّة الاهتمام الذي توليك إياه، والحقيقة أنها لم تكن - كما افترضت كيتي- تهتم بشيء سوى بأطفالها، ولها ولدان اثنان في المدرسة في إنجلترا، وولد آخر في السادسة كانت ستأخذه إلى الوطن في السنة القادمة. كان وجهها قناعاً، وتبتسم وتردد، بطريقتها المبهجة وحسنة السلوك، كل ما تتوقع أن تقوله، لكنها وبالرغم من كل حفاوتها القلبية بتبقيك بمنأى عنها.

كانت لديها صديقات حميمات قليلات في المستعمرة أعجبن بها إعجاباً كبيراً، وتساءلت كيتي إن كانت السيدة تاونسيند تراها شعبية قليلاً، واحمرّ وجه كيتي، وبعد كل هذا ليس ثمة من سبب يدعوها إلى أن تزهو. صحيح أن والدها كان حاكم مستعمرات، وكان عظيمًا جدًّا طبعاً عندما ظل في منصبه، فالكل ينهضون واقفين حين تدخل غرفة، ويرفع الرجال قبعاتهم لك وأنت تمر في سيارتك، لكن أي منصب يكون أقل أهمية من منصب حاكم مستعمرات حين يتقاعد هذا الحاكم؟ ووالد دوروثي تاونسيند يعيش على معاش التقاعد في بيت صغير في إيرلز كورت.

وسترى أم كيتي أن الحال سيكون مضجراً جدًّا لو دعتها لزيارتها، وكان برنارد جارستين مستشار الملك، ولم يكن هناك سبب يمنع أن يصبح قاضياً في أحد الأيام، وعلى أي حال، إنهم يعيشون في جنوب كينسينجتون.

* * *

وجدت كيتي - وبعد حضورها إلى هونج كونج عند زواجها- أن من الصعب عليها أن تروّض نفسها على أن تقبل بحقيقة أن مركزها الاجتماعي تحدده مهنة زوجها. لقد كان الكل رقيقاً جداً معها بالطبع، ولقد خرجا مدة شهرين أو ثلاثة أشهر، وكل ليلة تقريباً إلى حفلات، كما أن الحاكم استقبلها كعروس عندما تناولوا العشاء في مبنى الحكومة، لكنها سرعان ما عرفت بأنها لا تتمتع بمركز خاص كزوجة لعالم بكتيريا حكومي. أثار هذا غضبها

قالت لزوجها

هذا منتهى السخف، أوه، لا يكاد يوجد أي شخص هنا يثير اهتمام أي إنسان في الوطن - لفترة خمس دقائق تقريباً، ما كانت أُمي تحلم أن تطلب من أيهم أن يتناول العشاء في بيتنا

أجابها:

لا تدعي هذا يقلقك، إنه لا يهم حقاً كما تعرفين -

إنه لا يهم طبعاً. إنه يُظهر فقط مدى غبائهم، لكن من السخرية إلى حد ما عندما تفكر في كل الناس الذين اعتادوا على زيارة بيتنا في الوطن، بينما تُعامل هنا كقذارة

ابتسم:

من وجهة نظر اجتماعية، ليس لرجل العلم وجود -

لقد عرفت هذا الآن، لكنها لم تعرف هذا حينما تزوجته

قالت ضاحكة حتى لا يبدو ما قالتها غروراً

لا أعرف إن كان سيسرني تماماً أن يدعوني وكيل أحد الموظفين الصغار إلى العشاء -

لعله رأى تأنيباً وراء خفة سلوكها، فقد أخذ يدها وضغط عليها بخجل:

أنا آسف جداً يا عزيزتي كيتي، لكن لا تتركي هذا يزعجك -

أوه، لن أتركه يزعجني -

لا يمكن أن يكون ولتر، بعد ظهر هذا اليوم، لا بد أنه كان أحد الخدم، وبعد كل هذا، فلن يكونوا مهمين، فالخدم صينيون يعرفون كل شيء على أي حال، لكنهم يُسكون أسنتهم

دق قلبها بسرعة أكبر قليلاً حين تذكرت الطريقة التي دار بها مقبض الباب الصيني الأبيض ببطء. يجب ألا يخاطرا على هذا الشكل مرة أخرى. كان الأفضل أن تذهب إلى دكان التحف. لن يشك أحد يراها تدخل هناك في أي شيء، وهما آمان تماماً هناك، فصاحب الدكان يعرف من هو شارلي، ولم يكن من الغباء حتى يُعادي مساعد أمين المستعمرات، وما الذي يهملها حقاً إلا أن شارلي يحبها؟

تحولت عن الشرفة ودخلت غرفة جلوسها. ألقَت بنفسها على الكنب، ومدت يدها لتأخذ سيجارة، ولمحت عيناها ملاحظة موضوعة فوق كتاب، فتحتها، كانت مكتوبة بقلم رصاص

،عزيزتي كيتي،

ها هو الكتاب الذي طلبته. كنت سأرسله حين قابلت دكتور فاين، وقال إنه سيحمله بنفسه، فقد كان يمر بالبيت

ف. هـ

رنت الجرس، وعندما حضر الخادم، سألته عمّن أحضر الكتاب ومتى؟

:أجابها

.سيدي أحضره يا سيدتي، بعد الغداء -

إذُن فقد كان ولتر، اتصلت هاتفياً بمكتب أمين المستعمرات على الفور، وسألت عن شارلي. وأخبرته بما علمت به منذ لحظة، مرت فترة من الصمت قبل أن يُجيب

:سألته

- ما الذي سأفعله؟ -

.إنني وسط اجتماع هام. أخشى أنني لا أستطيع الحديث اليك الآن، نصيحتي لك أن تهديني -

جلست مرة أخرى إلى طاولة مكتب، مريحة وجهها بين يديها، ثم راحت تبحث عن حل للموقف. قد يكون ولتر فكر أنها كانت نائمة، وليس هناك من سبب يمنعها من إغلاق الباب عليها. حاولت أن تتذكر إن كانا يتكلمان. بالتأكيد أنهما لم يكونا يتكلمان بصوت عالٍ. وكانت

القبة هناك. كان مما يثير الجنون أن يتركها شارلي في الطابق السفلي. لكن لا جدوى من لومه على ذلك. فقد كان تصرفاً طبيعياً تماماً، وليس هناك ما يوحي بأن ولتر كان قد لاحظها. فمن المحتمل أنه كان في عجلة من أمره، فترك الكتاب والرسالة وهو في طريقه إلى موعد مرتبط بعمله، والغريب في الأمر أنه حاول فتح باب الغرفة والبابين المؤديين إلى الشرفة، فلو ظن أنها إكانت نائمة، لكان تصرفاً غير متفق مع طبيعته أن يزعجها. كم كانت بلهاء

هزت نفسها قليلاً وعادت تشعر في قلبها بذلك الألم العذب والذي تحس به دائماً عندما تفكر في شارلي. كان الموقف جديراً بالمخاطرة. لقد قال إنه سيقف بجانبها، ولو ساء الأمر أكثر.. حسناً.. ليقم ولتر الدنيا إذا أراد، إن لديها شارلي، ما الذي يهملها؟ ربما سيكون من الأفضل له أن يعرف. إنها لم تهتم قط بولتر، ومنذ أن أحببت شارلي تاونسيند صار يزعجها ويضجرها أن تستسلم لمداعبات زوجها. أرادت ألا يكون بينها وبينه أي شيء، ولم تفهم كيف يمكنه أن يُثبت أي شيء ضدها، فإن هو اتهمها، فإنها ستُنكر، ولو حدث ولم تعد تستطيع الإنكار، حسناً، فسترمي بالحقيقة بين أسنانه، ويمكنه فعل ما يشاء.

* * *

تبين لها خلال ثلاثة أشهر من زواجها بأنها ارتكبت غلطة، لكنها كانت غلطة أمها أكثر مما هي غلطتها.

كانت توجد في الغرفة صورة لأمها، فوقعت عينا كيتي القلقتان عليها. إنها لا تعرف لماذا تركتها هناك، فهي لم تكن شغوفة جداً بأمها، وهناك صورة لأبيها أيضاً، لكنها في الطابق السفلي على البيانو الكبير، وكانت قد التقطت حين عُين مستشاراً للملك، فصورته وهو يضع باروكة وعباءة، إنهما حتى لم تضيفا عليه مهابة، فقد كان رجلاً نحيفاً قليلاً، بعينين وشفة عليا طويلة، وشم رفيع، وقد طلب منه مصور ظريف أن يبدو بشوشاً، لكنه نجح فقط في أن يبدو صارماً.

لقد اختارت السيدة جارسنتين هذه الصورة من بين تجارب صور أخرى لهذا السبب، فقد كانت زاويتا فمه الملتويتان إلى أسفل واكتئاب عينيه يضيف عليه جواً من كآبة طفيفة كقاعدة عامة. فظنت أنها تبديه في هيئة القاضي. أما صورتها فتظهرها في الفستان الذي ذهبت فيه إلى البلاط عندما عُين زوجها مستشاراً للملك، كانت فخمة للغاية في الرداء المخملي، وقد فرد ذيله الطويل على نحو زاده بهاءً، مع ريش في شعرها وزهور في يدها. كانت تشد قامتها منتصبه وقد كانت امرأة في الخمسين، نحيلة ومنبسطة الصدر، عظام وجنتيها بارزة، ولها أنف كبير حسن الشكل، وكان لها شعر غزير أسود وناعم جداً، وطالما تشككت كيتي بأنه إن كان قد صُبع فإنه قد رُتب تماماً على الأقل، ولم تكن عيناها السوداءوان الجميلتان تستقران ساكنتين قط، وكان هذا أبرز ما فيها، إذ كان من المربك أن ترى تلكما العينين القلقتين في ذلك الوجه الجامد غير المغضن والشاحب حين تتكلم معك، فهما تنتقلان من جزء إلى جزء آخر، وتنتقلان إلى أشخاص آخرين في الغرفة ثم تعودان إليك، فتشعر بأنهما تتفحصان فيك وتسبران غورك، بينما تراقبان كل ما يجري حولها أثناء ذلك، كما لا يكون للكلمات التي ترددها أي علاقة بأفكارها.

كانت السيدة جارستين امرأة صعبة وقاسية ومتسلطة وطموحة وبخيلة وغبية. لقد كانت إحدى خمس بنات محامٍ في ليفربول، وقد التقى بها برنارد جارستين عندما كان في الدائرة القضائية الشمالية، وقد بدا حينها شاباً له مستقبل زاهر، وقال أبوها بأنه سيرتفع، ولم يرتفع. لقد كان مجداً ومجتهداً و متمكناً، لكنه لم يكن يتمتع بإرادة ترقية نفسه. فاحتقرته السيدة جارستين، لكنها أدركت بمرارة في نفس الوقت بأنها لن تنال أي نجاح إلا عن طريقه. فانطلقت تدفعه على الطريق الذي ترغب في أن تسلكه، وأخذت تلح عليه بلا رحمة، واكتشفت بأنها إذا أرادت منه أن يفعل شيئاً تتمرد حساسيته المبالغ فيها على فعله، فلن يكون عليها سوى أن تقلق راحته، فيستسلم أخيراً وقد أنهكه التعب، وانطلقت من جانبها ساعة لكسب صداقة الناس الذين يمكن أن يكونوا نافعين. فناقته الوكلاء القانونيين الذين سيرسلون إلى زوجها مذكرات قانونية، ورفعت الكلفة مع زوجاتهم، وكانت متذلة أمام القضاة وزوجاتهم، وقدمت الكثير للسياسيين الواعدين بمستقبل باهر.

ولم تترك السيدة جارستين أبداً وخلال خمس وعشرين سنة أي شخص للعشاء في بيتها لأنها كانت تميل إليه. فقد أقامت حفلات عشاء كبيرة في فترات منتظمة، لكن البخل فيها كان قوياً قوة الطموح فيها. فهي تكره إنفاق المال، وتفخر بأنها كان باستطاعتها أن تظهر في أبهة بالقدر الذي تُظهرها أي امرأة أخرى بنصف النفقات، فكانت حفلات عشاءها حافلة ومتقنة الإعداد، لكنها كانت تتميز بالاقتصاد، وما كان يمكنها أن تقنع نفسها بأن الناس يعرفون ما يشربونه وهم يأكلون ويتبادلون الحديث. فكانت تُحيط شراب الموسيل الفوار بفوطة معتقدة أن الضيوف سيعتبرونها شامبانيا.

كان برنارد جارستين يتمتع بخبرة متوسطة لا خبرة واسعة. فسبقه بشوط كبير، الرجال الذين استدعوا إلى الخدمة بعده، وقد حملته السيدة جارستين على أن يُرشح نفسه للبرلمان، وتحمل الحزب نفقات الانتخابات، لكن بخلها هنا أعاق طموحها مرة أخرى، فلم تستطع حمل نفسها على إنفاق ما يكفي من مال لرعاية دائرته الانتخابية.

وكانت التبرعات التي تُقدم بها إلى عدد غير محدد من هيئات -يُتوقع أن يقدمها أي مرشح للانتخابات لها- أقل دائماً وبقليل مما هو مناسب، فخرس، وبالرغم من أن السيدة جارستين كانت

سُتسر لو أنها أصبحت زوجة عضو برلمان إلا أنها احتملت خيبة أملها بصبر، وقد حملها ترشيح زوجها للبرلمان على أن تتصل بعدد من الأشخاص البارزين، فأرضاهما إضافتهم إلى مركزها الاجتماعي، وهي تعرف أن برنارد ما كان سيبرز في مجلس العموم، لكنها أرادت منه أن يكون عضوًا فقط ليكون له حق عرفان حزبه بفضلها، ومن المؤكد أن مواجهته لمقعدين أو ثلاثة مقاعد ضائعة سيعطيه ذلك الحق.

لكنه ظل في رتبة متدنية، بينما أصبح كثير من الشباب الأصغر منه سنًا مستشارين للملك قبله. وكان من الضروري أن يصبح هو مستشارًا أيضًا، لا لأنه كان يخشى -إن هو لم يصبح مستشارًا- أن يقل أمله في أن يصبح قاضيًا فقط، بل بسببها أيضًا، فقد كان مما يقتلها أن تذهب إلى العشاء وراء نساء يصغرنها بعشر سنوات، لكنها لقيت من زوجها عنادًا لم تعتد عليه منذ سنين. فقد كان يخشى أن يفقد عمله حين يصبح مستشار الملك، فكلما قال لها عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة، ظلت ترد عليه أن الأمثال هي الملجأ الأخير للمفلسين فكريًا، وأوحى إليها بإمكانية أن ينقص دخله إلى النصف، وكان يعرف بأنه لم تكن هناك حجة أقوى من هذه الحجة يمكن أن يكون لها أعظم تأثير عليها، لكنها لم تُصغي إليه، ونعتته بالجبان، ولم تتركه في سلام، فرفض أخيرًا -كما يحدث دائمًا- وتقدم بطلب ليصبح مستشارًا للملك، ومُنح المنصب على الفور.

وتحقت مخاوفه، فلم يندفع متقدمًا كقائد، كما نقصت قضاياه، لكنه أخفى أي خيبة أمل كان يشعر بها، وإن لام زوجته، فقد لامها في قلبه. ولعله جنح إلى الصمت قليلًا، لكنه كان صمتًا دائمًا في البيت، فلم يلحظ أحد في عائلته أي تغيير طرأ عليه، ولم تكن ابنتاه تنظران إليه إلا كمصدر للدخل، وقد بدا دائمًا أن من الطبيعي تمامًا أنه يجب أن يعيش عيشة الكلاب؛ لكي يوفر لهما المأوى والكساء والعطلات والمال اللازم لنفقاتهما النثرية، وبعد أن فهمتا الآن أن المال أصبح غير متوفر على نحو كاف نتيجة لغلظته، خالط عدم الاهتمام الذي كانتا تكنانه له احتقار ساخط، ولم يخطر في بالهما أن تسألا نفسيهما عن مشاعر الرجل الضئيل المغلوب على أمره، الذي يغادر البيت في الصباح الباكر ويعود إليه في الليل فقط في وقت ارتدائه ملابسه للعشاء. لقد كان غريبًا بالنسبة لهما، لكنهما كانتا تأخذان واجب حبه وإعزازهما كأمير مسلم به؛ لأنه كان أبيهما.

* * *

لكن السيدة جارستين كانت تتمتع بنوع من الشجاعة تدعو إلى الإعجاب بحد ذاتها، فهي لم تدع أحدًا من دائرتها المقربة -التي كانت العالم بالنسبة إليها- يرى مدى شعورها بالخزي من ضياع آمالها، فلم تغير شيئًا من أسلوب حياتها؛ فقد استطاعت أن تُقيم ولائم العشاء الفخمة كما كانت تفعل من قبل، وذلك بتدبير دقيق منها، وأن تقابل أصدقاءها بنفس البشاشة الباهرة التي روضت نفسها عليها منذ وقت طويل جدًا.

كانت لديها ثروة ثرثرة حازمة وبارعة كانت تحولها في المجتمع الذي تنتقل فيه إلى حديث جذاب. وقد كانت ضيفًا نافعًا بين الأشخاص الذين لا يأتيهم الحديث الخفيف بسهولة، فهي لم تكن تعدم وسيلة أبدًا لتقديم موضوع جديد، وكان يمكن أن يوثق بها في أن تبدد صمتًا مريبًا على الفور بإطلاق ملاحظة مناسبة.

وأصبح من غير المحتمل الآن أن يُعين برنارد جارستين قاضيًا في المحكمة العليا، ولكنه ظل يأمل في أن يُعين قاضيًا لمحكمة أحد المناطق، أو في المستعمرات على أسوأ الاحتمالات. وفي أثناء ذلك شعرت بالرضى لرؤيتها له يُعين مسجلًا لمدينة في ويلز، لكن آمالها انصبت على ابنتها.

فقد توقعت أن تعوض عن كل خيبات أملها في الحياة العملية التي كانت تهفو إلى الوصول إليها بتدبير زيجتين جيدتين لهما، كانتا اثنتين، كيتي ودوريس، ولم تكن دوريس توحى بأي علامة من الحُسن، فقد كان أنفها أطول من اللازم وقوامها ثقيلًا، فلم تكن السيدة جارستين ترجو لها أكثر من زواجها من شاب حسن الحال يعمل في مهنة مناسبة.

لكن كيتي كانت جميلة، وقد بشرت بأنها ستكون جميلة عندما كانت لا تزال طفلة، فقد كانت لها عينان واسعتان داكنتان، وشعر مجعد منساب وسيال بني اللون ومشوب بحمرة خفيفة، وأسنان جميلة وبشرة بديعة، ولم تكن ملامحها جميلة للغاية؛ فدقتها عريض جدًا وأنفها كبير جدًا، مع أنه لم يكن طويلًا كأنف دوريس، ويعتمد جمالها كثيرًا على شبابها، وقد أدركت السيدة جارستين بأنها لا بد أن تتزوج في أول تدفق لأنوثتها. وعندما خرجت إلى الحياة الاجتماعية كانت مذهلة، فقد كانت بشرتها لا تزال أعظم ما فيها من جمال، لكن عينيها بأهدابها الطويلة كانتا نجمتين دافنتين، حتى إنهما تأسران قلبك حين تنظر إليهما. كانت تتمتع ببشاشة ساحرة

ورغبة في أن تدخل الفرحة في القلوب، فمنحتها السيدة جارستين كل الحنان، حنانًا خسنًا وجديرًا بها ومدروسًا، حنانًا كانت قادرة على منحه لها، وأخذت تحلم أحلامًا طموحة، ولم يكن ما كانت تهدف إليه من أجل ابنتها زواجًا جيدًا، بل زواجًا مبهرًا.

نشأت كيتي وهي تعرف أنها ستصبح امرأة جميلة، ولم تشك أبدًا في طموح أمها، فقد توافق هذا مع رغبتها، وانطلقت إلى العالم، فصنعت السيدة جارستين المعجزات لكي تُدعى إلى حفلات رقص يُحتمل أن تقابل ابنتها فيها رجالًا جديرين بها.

ونجحت كيتي، فقد كانت لطيفة، بالإضافة إلى أنها كانت جميلة، وسرعان ما هام بها كثير من الرجال، لكن أحدًا منهم لم يكن مناسبًا لها، حرصت كيتي -الساحرة والمتوددة إلى الجميع- ألا تُلزم نفسها تجاه أي منهم، وكانت حجرة الاستقبال في جنوب كينسينجتون تكتظ بعد ظهر أيام الأحد بالشباب المتيمنين، لكن السيدة جارستين لاحظت -بابتسامة رضى مقطبة- بأنها لن تحتاج إلى بذل أي مجهود من جانبها لتبقيهم بعيدًا عن كيتي، وكانت كيتي مستعدة لمغازلتهم، وكان يسليها أن تلعب بأحدهم ضد الآخر، لكنها رفضتهم بلباقة وحزم عندما عرضوا عليها الزواج، فما كان أي منهم يتردد في التقدم إليها.

وفات موسمها الأول دون أن يتقدم لها الخطيب المثالي، والموسم الثاني أيضًا، لكنها كانت صغيرة السن وفي استطاعتها أن تنتظر، وقد أخبرت السيدة جارستين صديقاتها بأنها ترى أن من دواعي الرثاء بالنسبة إلى فتاة أن تتزوج قبل الحادية والعشرين. لكن سنة ثالثة مرت، ثم رابعة، وطلب اثنان أو ثلاثة من المعجبين القدامى يدها مرة أخرى، لكنهم كانوا لا يزالون فقراء، وعرض عليها فتى أو فتیان أصغر منها الزواج، وفعل نفس الشيء موظف مدني متقاعد في حكومة الهند ويحمل رتبة، وكان في الثالثة والخمسين.

وظلت كيتي ترقص كثيرًا وتذهب إلى ميادين سباق ويمبلدون ولورد وإلى أسكوت وهينلي، لقد كانت تمتع نفسها بشكل كبير، لكن أحدًا ممن له منصب ودخل مُرضٍ لم يطلب منها أن تتزوجه.

وبدأت السيدة جارستين تشعر بالقلق، ولاحظت أن كيتي أخذت تجذب رجالًا في الأربعين وما فوق. وقد ذكرت أنها لن تظل جميلة بعد سنة أو سنتين، وأن فتيات شابات يظهرن في المجتمع طوال الوقت، ولم تعد تمط كلماتها في الدوائر المحلية، وحذرت ابنتها بحدة بأنها ستضيع سوقها.

هزت كيتي كتفيها، فهي ترى نفسها جميلة كما كانت في السابق، وربما أجمل، فقد تعلمت كيف تتأق في ملابسها خلال السنوات الأربع الأخيرة، كما أن لديها متسعاً من الوقت، فلو أرادت أن تتزوج -لمجرد أن تتزوج- فإن هناك الكثير من الفتيان الذين سينقضون على هذه الفرصة. وبالتأكيد أن الرجل المناسب سيتقدم إليها عاجلاً أو آجلاً.

لكن السيدة جارستين حكمت على الوضع بشكل أكثر دهاء، فأنزلت مستواها قليلاً، والغضب ينمو في قلبها على ابنتها الجميلة التي فقدت فرصها، فولت وجهها شطر طبقة المهنيين التي كانت تسخر منها في كبرياء، وبحثت بينها عن محامٍ شاب أو رجل أعمال يوحى إليها مستقبلاً بالثقة.

وبلغت كيتي الخامسة والعشرين وظلت عزباء، فاغتاظت السيدة جارستين ولم تتردد في أن تُصارع كيتي بأفكارها المستاءة جداً في أوقات كثيرة. فقد سألتها إلى متى تتوقع أن يعولها أبوها. فقد كان قد أنفق عليها مبالغ تفوق إمكانياته لكي يُتيح لها فرصة ولم تنتهزها.

ولم يخطر في بال السيدة جارستين أن دمايتها القاسية هي نفسها قد تكون أخافت الرجال. أبناء آباء موسرين أو ورثة ألقاب شجعت زياراتهم تشجيعاً من القلب، لكنها أرجعت فشل كيتي إلى غبانها. ثم خرجت دوريس إلى المجتمع، وكانت لا تزال تتمتع بأنف طويل أيضاً وقوام سيئ، كما كانت ترقص رقصاً سيئاً، وخطبت إلى جيفري دينيسون في موسمها الأول، لقد كان الابن الوحيد لطبيب جراح ناجح مُنح لقب بارون خلال الحرب. وكان جيفري سيرث لقباً -ولم يكن شيئاً عظيماً أن تكون باروناً طبيياً، لكن أي لقب يبقى لقباً والحمد للرب- وثروة مريحة جداً. وتزوجت كيتي من ولتر فاين وهي في فزع.

* * *

عرفته لمدة قصيرة، كما لم تحفل به كثيرًا، لم تكن لديها أي فكرة متى تقابلا لأول مرة ولا أين، إلى أن أخبرها بعد خطبتهما بأنهما تقابلا في حفلة راقصة دعاه إليها بعض الأصدقاء. من الأكيد أنها لم تُلقي إليه أي اهتمام حينها، كما أنها -إذا كانت رقصت معه حينها- فإن ذلك لأنها كانت طيبة الخلق، وكان يسرها أن ترقص مع أي شخص يطلب منها هذا. ولم تكن تفرق بينه وبين آدم حينما تقدم إليها بعد يوم أو اثنين في حلقة راقصة أخرى وتكلم إليها، ثم لاحظت بأنه كان يحضر كل حفلة راقصة كانت تذهب إليها.

قالت له أخيرًا بطريقتها الضاحكة:

أتعرف؟ لقد رقصت معك عشر مرات على الأقل حتى الآن، ولا بد أن تذكر لي اسمك -

كان من الواضح أنه بُوغت

أتقصدين أنك لا تعرفينه؟ لقد قُدمت إليك من قبل -

أوه، لكن الناس يغمغمون دائمًا، لن أفاجا أبدًا إذا لم يكن لديك حتى شبح فكرة عن اسمي -

ابتسم لها. كان وجهه جادًا وعابسًا قليلًا، لكن ابتسامته كانت حلوة جدًا

أعرفه طبعًا -

صمت للحظة أو اثنتين ثم سألها بعدها:

ألسنتِ فضولية؟ -

مثل معظم النساء -

لم يخطر في بالك أن تسألني شخصًا أو أحدًا عن اسمي؟ -

تسلت بهذا قليلًا، وتساءلت عما يدعوه إلى الظن بأن اسمه يمكن أن يثير أدنى اهتمام في نفسها، لكنها كانت تميل دائمًا أن تُدخل السرور إلى قلب الآخرين. فنظرت إليه وابتسامتها الخلابة ترسم على وجهها، وعيناها الجميلتان بحيرتان ناديتان تحت أشجار غابة حاملتين رقعة فانتة

حسنًا، ما هو؟ -

ولتر فاين -

لم تعرف لماذا كان يحضر إلى حفلات الرقص، فهو لا يرقص رقصاً جيداً جداً، وبدا أنه يعرف القليل من الناس، وتكونت لديها فكرة عابرة بأنه كان يحبها، لكنها طردت الفكرة بهزة من كتفيها، فقد عرفت فتيات يعتبرن كل رجل يقابلنه واقعاً في غرامهن، وكانت تراهن سخيفات دائماً، لكنها أعطت ولتر فاين المزيد من انتباهها، فيقيناً أنه لا يسلك سلوك الشباب الآخرين الذين وقعوا في غرامها، فقد فاتحها أغلبهم بهذا الغرام بصراحة وأرادوا أن يقبلوها، وقد قبلها الكثيرون.

لكن وولتر فاين لم يتحدث عنها، كما تحدث قليلاً جداً عن نفسه. فقد كان صامتاً إلى حد ما، ولم تهتم بذلك، فعندها الكثير مما تقوله وكان يسعدها أن تراه يضحك عندما كانت تطلق ملاحظة مازحة، لكن كلامه لم يكن غيباً عندما كان يتكلم، كان من الواضح أنه خجول، بدا أنه كان يعيش في الشرق وعاد إلى الوطن في إجازة.

بعد ظهر يوم أحد، ظهر في بيتهم في جنوب كينسينجتون، كان هناك حوالي عشرة أشخاص،
:وجلس لبعض الوقت وهو قلق، ثم انصرف، وسألتها أمها فيما بعد عنه

ليست لدي أي فكرة، هل دعوته للحضور إلى هنا؟ -

نعم، فقد التقيت به في بيت عائلة باديلي، وقال لي بأنه رآك في عدة حفلات رقص، فقلت له -

بأنني أكون في البيت دائماً في أيام الأحد.

اسمه فاين، وهو يتولى منصباً في الشرق -

نعم، إنه طبيب. هل يحبك؟ -

يا إلهي! إنني لا أعرف -

أعتقد أنك أصبحت تعرفين الآن متى يكون شخص واقعاً في حبك -

:قالت كيتي باستخفاف

ما كنت لأتزوج، حتى وإن كان يحبني -

لم ترد السيدة جارستين، وكان صمتها مليئاً بالاستياء، وتضرج وجه كيتي، فقد كانت تعرف أن أمها لا يهمها من الذي ستتزوج، طالما ستلقي بعبء مسؤوليتها عن كاهلها بطريقة ما

* * *

خلال الأسبوع التالي، قابلته في ثلاث حفلات رقص، وربما كان خجله قد خف قليلاً، فقد أصبح أكثر تواصلًا إلى حد ما. كان طبيبياً بالتأكيد، لكنه لم يمارس الطب؛ إذ كان عالم بكتيريا – ولم تكن لدى كيتي سوى فكرة غامضة جداً عما يعنيه هذا التخصص – وكان يتولى منصباً في هونج كونج.

كان سيعود إليها في الخريف. وتحدث عن الصين كثيراً، وكانت قد تدربت على أن تبدو مهتمة بما يتكلم الناس إليها عنه، لكن الحياة في هونج كونج بدت مرحة تماماً، فقد كانت هناك نوادٍ وتنس وسباق البولو وجولف.

هل يرقص الناس كثيراً هناك؟ -

أوه، نعم، أظن هذا -

وتساءلت إن كان قد أخبرها بهذه الأمور لدافع ما. بدا أنه يحب مجتمعا، لكنه لم يوحِ أقل إيحاء- بالضغط على يدها، أو بإلقاء نظرة أو بكلمة – بأنه يعتبرها أي شيء آخر، سوى فتاة يقابلها ويرقص معها فقط.

وفي يوم الأحد التالي عاد وزار بيتهم، وصادف أن حضر أبوها إلى البيت، فقد كانت السماء تمطر ولم يكن قادراً على أن يلعب الجولف، فتبادل هو وولتر فاين حديثاً طويلاً. وسألت أباها بعد ذلك عما كانا يتكلمان فيه.

يبدو أنه مستقر في هونج كونج، إن كبير القضاة هناك من أصدقائي القدماء في المحاماة، - وهو يبدو شاباً ذكياً غير عادي.

وكانت تعرف أن أباها يشعر بالملل كقاعدة عامة وحتى الموت- من الشباب الذين كان مضطراً لاستقبالهم في بيته من أجلها ومن أجل أختها الآن.

قالت:

أنت قليل ما تميل إلى أي من أصدقائي الشباب يا أبي -

:استقرت عليها نظراته الحانية المتعبة

هل ستتزوجينه على أي حال؟ -

بالتأكيد لا -

- هل هو يحبك؟ -
- لا تبدو منه أي علامة على هذا -
- هل تميلين إليه؟ -
- لا أعتقد أنني أميل إليه كثيرًا جدًا، إنه يغيظني قليلاً -

لم يكن من طرازها المفضل على الإطلاق ، فقد كان قصيرًا، لكنه لم يكن غليظ البنيان، نحيلًا أكثر منه هزيلًا، أسمر وحليق اللحية، بلامح منتظمة حسنة التقاطيع، كانت عيناه سوداوين تقريبًا، لكنهما لم تكونا واسعتين، ولم تكونا كثيري الحركة، بل تستقران على لا شيء بالحاح غريب، كانتا غريبتين لكنهما ليستا بهيجتين جدًا، ولا بد أن يكون جميل الشكل بأفقه المستقيم الدقيق وجبهته الرائعة وفمه حسن الشكل، لكن من المدهش أنه لم يكن جميل الشكل، وعندما أخذت كي تي تفكر فيه إلى حد ما، دهشت من أن يكون لديه مثل هذه الملامح الحسنة حين تنظر إليها كلاً على حدة، وكانت سيماءه ساخرة قليلاً، وبعد أن عرفتة كي تي معرفة أوثق الآن، أدركت أنها لا تكون مرتاحة معه تمامًا، فهو لا يتمتع بأي مرح

وعندما أوشك الموسم على نهايته، كانا قد تقابلا كثيرًا، لكنه ظل بعيدًا ومستعصيًا على سبر أغواره بالقدر الذي كان عليه في السابق. لم يكن خجلًا معها بكل ما في هذه الكلمة من معنى، بل مرتبجًا، وظل حديثه معها غير شخصي تمامًا، وتوصلت كي تي إلى استنتاج بأنه لم يكن يُكن لها أدنى حب. لقد مال إليها ووجد أن من السهل الحديث إليها، لكنه عندما يعود إلى الصين في نوفمبر فإنه لن يعود يفكر فيها. فكرت بأن من غير المستحيل أن يكون مرتبطًا طيلة الوقت بممرضة في مستشفى هونج كونج، ابنة أحد رجال الدين، فتاة بليدة، بسيطة قدميها منبسطةتان ونشيطة، هذه هي الزوجة التي تناسبه تمامًا

ثم جاء إعلان خطبة دوريس على جيفرى دينيسون، وحققت دوريس وهي في الثامنة عشر من عمرها زواجًا مناسبًا تمامًا، بينما هي في الخامسة والعشرين وظلت عزباء، وإذا فرضت أنها لن تتزوج أبدًا؟ كان الرجل الوحيد الذي تقدم طالبًا يدها في ذلك الموسم فتى في العشرين من عمره، ولا يزال في جامعة أكسفورد، لا يمكنها أن تتزوج فتى يصغرها بخمس سنوات، لقد تداخلت كل الأمور. فقد رفضت في السنة الماضية أرملَ يحمل لقب فارس من باث وله ثلاثة أطفال.

كادت تتمنى لو أنها لم ترفضه. ستصبح أمها رهيبة الآن، ولن تغفل دوريس عن التباهي
عليها، فدوريس هي التي كان يُضحى بها دائماً؛ لأنه كان من المتوقع أنها هي -كي تي- ستحقق
زواجاً رائعاً.

.وغاص قلب كي تي

* * *

لكنها وعندما كانت تتمشى بعد ظهر أحد الأيام عائدة إلى البيت من نادي هارود، صادفت ولتر فاين في طريق برومبتون، فتوقف وتحدث إليها ثم سألها -بشكل عفوي- إن كانت ستقوم بجولة معه في المتنزه. لم تكن بها رغبة مُلحة في العودة إلى البيت، فلم يكن البيت وقتها مكاناً ممتعاً جداً، فتمشياً وأخذاً يتحادثان كما كانا يتحادثان دائماً عن أمور عابرة، ثم سألها إلى أين كانت ستذهب في الصيف.

أوه، إننا ندفن أنفسنا دائماً في الريف، فأبي، كما ترى، يكون منهك القوى بعد فترة العمل، - فنذهب إلى أهدأ مكان نستطيع أن نجده.

تكلت كيتي وهي تتظاهر بالجدية بينما هي تهزل، فهي تعرف تماماً بأنه لم يكن لدى أبيها ما يكفي من عمل ليعتبه، وحتى لو كان لديه مثل هذا القدر من العمل، فإن راحته ما كانت تؤخذ بعين الاعتبار في اختيار أي عطلة، لكن المكان الهادئ هو المكان الرخيص.

قال ولتر فجأة:

الأتريين أن هذين الكرسيين يغريان إلى حد ما بالجلوس؟ -

وتابعت عينيها، فرأت كرسيين أخضرين بالقرب منهما على العشب وتحت شجرة. قال:

لنجلس عليهما -

لكنه بدا -عندما جلس- أن ذهنه أخذ يشرد على نحو غريب. لقد كان مخلوقاً غريباً، وتابعت هي ثرثرتها وهي مرحة، وتساءلت في نفسها عن سبب دعوته لها لتتمشى معه في المتنزه. ربما كان سيُفضي لها عن عاطفته نحو الممرضة المسطحة القدمين في هونج كونج، وفجأة التفت إليها، مقاطعاً إياها في منتصف جملة، مما أكد لها بأنه لم يكن يصغي إليها، وكان وجهه أبيض بياضاً طباشيرياً.

أريد أن أقول لك شيئاً -

نظرت إليه بسرعة، ورأت عينيها تمتلئان بقلق مؤلم

كان صوته متوترًا، منخفضًا، وغير مستقر تمامًا، لكنه عاد وتكلم قبل أن تتمكن من أن تسأل عما يعنيه هذا الانفعال.

أود أن أسألك هل تقبلين أن تتزوجيني؟ -

.أجابت وقد فوجئت إلى درجة أنها نظرت إليه بخواء

.يمكنك أن تقتلني بريشة -

.ألا تعرفين بأني غارق في حبك؟ -

.لم ألاحظ هذا أبداً -

.إنني أحمق وخجول، إنني أجد صعوبة في قول الأمور التي أعنيها أكثر مما أجده في قول -
.الأمور التي لا أقصدها

أخذ قلبها يخفق بسرعة أكبر، لقد عُرض عليها الزواج كثيراً من قبل، لكن العرض كان على شكل مرح وعاطفة، وقد كانت تُجيب على العرض بنفس الطريقة، ولم يطلب أحد منها الزواج بأسلوب فجائي ومأساوي على نحو غريب في نفس الوقت

:قالت بشك

.إنه لطف كبير منك -

لقد وقعت في حبك منذ أول مرة رأيتك فيها. لقد أردت أن أطلب الزواج منك من قبل، لكنني -
لم أستطع أبداً أن أحمل نفسي على هذا

:ضحكت

.لست متأكدة إن كان ذلك قد صيغ على نحو جيد جداً -

أسعدها أن تتاح لها فرصة أن تضحك قليلاً، فقد بدا أن الهواء حولها في هذا اليوم المشمس
:أخذ يتقل فجأة بنذير شر، وعبس مكفهر الوجه

أوه، أنتِ تعرفين ما أقصده. إنني لا أريد أن أفقد الأمل، لكنك ستسافرين الآن، وأنا لا بد أن -
.أسافر عائداً إلى الصين في الخريف

:قالت بقلّة حيلة

.لم أفكر فيك على هذا النحو قط -

لم يُضف شيئاً على ما قالته. غَضَّ نظره نحو العشب بوجوم. لقد كان شخصاً غريباً جداً،
لكنها -وبعد أن أخبرها بهذا الآن- شعرت بطريقة غامضة أن حبه كان حباً لم تصادف مثله من
قبل. خافت قليلاً لكنها ابتهجت أيضاً. لقد كانت سلبيته مؤثرة بشكل غامض

.يجب أن تمهلني بعض الوقت لأفكر -

بقي صامتاً ولا يقول شيئاً، لم يتحرك، هل يقصد أن يُبقيها هناك حتى تقرر؟ كان ذلك سخيلاً، لا بد أن تبحث الموضوع مع أمها. كان يجب أن تقف عندما تكلمت، لكنها انتظرت، معتقدة أنه سيرد، وها هي الآن تجد أن من الصعب عليها أن تحرك ساكناً دون أن تعرف سبب هذا، لم تنظر له، لكنها كانت تتفحص مظهره، لم تتخيل نفسها أبداً تتزوج رجلاً أطول قليلاً منها، وعندما تجلس بجواره فإنك ترى مدى جمال قسماته، ومدى برودة وجهه. كان من الغريب ألا يكون في وسعك إلا أن تشعر بالعاطفة المدمرة التي كانت في قلبه.

قالت بصوت مرتجف:

أنا لا أعرفك، أنا لا أعرفك إطلاقاً -

ألقى عليها نظرة، وشعرت بعينيها تنجذبان إلى عينيه، كانت فيهما رقة لم ترها فيهما من قبل أبداً، لكن فيهما شيئاً متوسلاً، كعيني كلب ضُرب بالسوط، مما أثار سخطها قليلاً.

قال:

أعتقد أنني أتحدّث عند التعرف عليّ -

أنت خجول طبعاً، أليس كذلك؟ -

لقد كان هذا أغرب عرض زواج قُدم إليها بالتأكيد، وبدا لها، حتى الآن، بأنهما كانا يقولان لبعضهما بعضاً آخر الأمور التي تتوقع قولها في مناسبة كهذه، لم تكن تشعر نحوه بأدنى شعور بالحب، ولم تعرف لماذا ترددت في رفضه على الفور.

قال:

إنني غبي جداً، أريد أن أقول لك إنني أحبك أكثر من أي شيء في العالم، لكنني أجد أن من الصعب جداً أن أقول هذا.

وكان هذا غريباً أيضاً، فقد أثر عليها على نحو لا يمكن تفسيره، إنه لم يكن بارداً حقاً، لكن سلوكه هو الذي كان سيئاً الحظ طبعاً، وقد أحبته في تلك اللحظة أكثر مما أحبته من قبل. كانت دوريس ستتزوج في نوفمبر، وسيكون هو في طريقه إلى الصين حينها. وإذا هي تزوجته فستكون معه، ولن يكون حسناً جداً أن تكون وصيفة شرف في زفاف دوريس، وسيكون من دواعي سرورها أن تهرب من ذلك.

كما ستكون دوريس امرأة متزوجة عند ذلك وتظل هي عذباء. والجميع يعرفون مدى صغر سن دوريس وسيجعلها ذلك تبدو أكبر سنًا. سيضعها على الرف. لن يكون هذا زواجًا جيدًا، لكنه زواج، وستجعل حقيقة أنها ستعيش في الصين هذا الزواج أسهل عليها.

لقد كانت تخاف من مرارة لسان أمها. آه، لقد تزوجت كل الفتيات اللواتي خرجن إلى حياة المجتمع معها منذ وقت طويل وأنجبت أغلبهن أطفالًا، لقد تعبت من الذهاب إلى زيارتهن والإفاضة بحديث عاطفي عن أطفالهن. لقد عرض عليها ولتر فاين حياة جديدة، فالتفتت إليه وعلى وجهها ابتسامة كانت تعرف جيدًا أثرها.

إن أنا اندفعت وقلت بأنني سأتزوجك، فمتى ترغب في أن تتزوجني؟ -

أطلق شهقة فرحة تلقائية، واحمرت وجنتاه البيضاءوان

الآن، فورًا، بأسرع وقت ممكن، سنسافر إلى إيطاليا لقضاء شهر عسلنا شهر أغسطس -
وشهر سبتمبر.

سينقذها هذا من قضاء الصيف مع أبيها وأمها في بيت رجل دين ريفي، مستأجر بخمس جنيهات في الأسبوع، ورأت بوميض، وبعيني عقلها الإعلان في صحيفة مورننج بوست بأن الزفاف سيتم على الفور لأن العريس سيعود إلى الشرق. إنها لا تعرف أمها حق المعرفة، ويمكن الاعتماد عليها في إثارة ضجة، ففي تلك اللحظة على الأقل ستكون دوريس في خلفية الأحداث، عندما يجري زفاف دوريس الأفخم من زفافها فإنها ستكون بعيدة عن البلاد.

ومدت يدها.

أعتقد بأنني أميل كثيرًا جدًا إليك، يجب أن تعطيني وقتًا لأتعود عليك -

قاطعها:

إذن، الجواب نعم؟ -

أظن هذا -

* * *

عرفته معرفة بسيطة جداً وقتها، والآن وبالرغم من أنهما تزوجا منذ حوالي سنتين، فإنها عرفته معرفة أقل من السابق، وقد تأثرت في البداية من لطفه وامتدحت عاطفته بالرغم من استغرابها منها. لقد كان يراعي مشاعر الآخرين على نحو كبير، وكان مهتماً كبير الاهتمام براحتها، فلم تعبر عن أقل رغبة إلا وسارع في تلبيتها، وظل يقدم لها هدايا صغيرة. وعندما كانت تمرض لم يكن أحد أرق منه ولا أكثر انشغالاً بها. وبدا أنها كانت تقدم له خدمة حين كانت تتيح له الفرصة للقيام بأي عمل متعب لها، وكان دائماً مؤدباً إلى أقصى درجة، فقد كان ينهض ليقف على قدميه عندما تدخل الغرفة، ويقدم إليها يده ليساعدها على الخروج من السيارة، كما كان يرفع قبعته إن هو صادف وقابلها في الشارع، وكان لا يدخر جهداً في أن يفتح الباب لها حين تغادر الغرفة، ولم يدخل غرفة نومها أو مخدعها دون أن يطرق الباب.

لم يعاملها حسب الطريقة التي رأت كيتي أغلبية الرجال يعاملون زوجاتهم بها، بل عاملها كأنها ضيفة زائرة في بيت ريفي، وكانت معاملته تدخل الفرحة إلى النفس لكنها مثيرة للضحك أيضاً. كانت ستشعر بالراحة أكثر معه لو أنه كان أكثر بساطة معها، كما لم تقربها علاقتهما الزوجية إليه أكثر، فقد كان عاطفياً حينها وعنيفاً وهستيرياً أيضاً وشديد الانفعال.

وقد أزعجها أن تدرك مدى عاطفيته، ولم تعرف إن كانت سيطرته على نفسه نتيجة خجله أو مرانه الطويل عليها، وقد بدا لها أن مما هو جدير بالاحتقار قليلاً أن يستعمل لغة الأطفال وهي تستكين بين ذراعيه وقد انطفأت رغبته، وهو الذي يخجل جداً من أن يردد كلاماً سخيلاً، وهو الذي يخشى إلى درجة كبيرة من أن يكون سخيلاً. لقد أعاظته مرة بالضحك وبالقول بأن ما يردده كان هراءً رهيباً.

فشعرت بذراعيه ترتخيان حولها، وظل صامتاً لبرهة وجيزة، ثم تركها ودخل غرفته دون أن ينبس بكلمة واحدة، لم ترد أن تجرح مشاعره، لذلك قالت له بعد يوم أو يومين:

أنت أيها الشيء السخيف العجوز، لا يهمني أي هراء تقوله لي -

وضحك بطريقة خجلة. لقد اكتشفت بأنه يعاني من عجز تعيس في الإفلات من زمام نفسه. وكان خجولاً. وعندما يكون في حفلة ويبدأ الجميع في الغناء، لم يكن ولتر يستطيع أن يحمل نفسه على الانضمام إليهم. فيجلس هناك مبتسماً ليظهر أنه سعيد ومستمتع بوقته، لكن ابتسامته

تكون مفتعلة، وتكون أشبه بابتسامة ساخرة، ولا تستطيع منع نفسك من الإحساس بأنه يرى بأن كل هؤلاء الناس المستمتعين بوقتهم ما هم إلا حفنة من الحمقى. ولم يكن يستطيع أن يحمل نفسه على أن يلعب الألعاب التي كانت كيتي بروحها العالية تجد فيها المرح

وقد رفض أثناء رحلتها إلى الصين أن يرتدي ملابس تنكزية رفضاً قاطعاً بينما كل الآخرين يرتدونها، وقد عكر سعادتها أنه يرى بشكل واضح أن الأمر كله مضجر

كانت كيتي مفعمة بالحيوية، راغبة في الثرثرة طوال النهار، وكانت تضحك بسهولة. لقد أزعجها صمته، وكانت لديه طريقة تثير سخطها في عدم الرد على ملاحظة عابرة تبديها. لقد كان صحيحاً أنها لا تحتاج إلى رد، لكن ردّاً على أي حال كان سيسعدها فإن كانت السماء تمطر وقالت «إنها تمطر بغزارة» فإنها تريد أن يقول «نعم، أليس كذلك؟»، لكنه يظل صامتاً، فترغب:

أحياناً في أن تهزه وتكرر القول:

قلت إنها تمطر بغزارة -

فيجب بابتسامة مصطنعة

لقد سمعتك -

ويبدو من هذا أنه لم يقصد أن يثير غيظها، فهو لا يتكلم لأنه ليس لديه ما يقوله، وقد فكرت كيتي وهي تبتمس لو أن الإنسان لا يتكلم إلا إذا كان لديه ما يقوله، لفقد العنصر البشري القدرة على الكلام.

* * *

والحقيقة أنه ما كان يتمتع بأي سحر طبعًا، لذلك السبب لم يكن شعبيًا، ولم تمكث وقتًا طويلًا في هونج كونج لتكتشف أنه لم يكن كذلك، وبقيت معلوماتها غامضة جدًا فيما يتعلق بعمله، وكانت تلك المدة كافية لكي تتبين أن عالم البكتيريا الحكومي لم يكن من فئة عظيمة، وقد تبينت هذا بجلاء تام، وبدا أنه لم تكن لديه رغبة في مناقشة هذا الجزء من حياته معها، ولأنها كانت راغبة في أن تهتم بأي شيء في البداية، فقد سألته عن عمله، لكنه أوقفها عند حدها بالمزاح:

أجر هذا العمل قليل على العموم -

:وقال في مناسبة أخرى

إنه يبخس حق من يشغله على وجه العموم -

لقد كان شديد التحفظ، وتوصلت إلى كل ما عرفته عن ماضيه وبلاده وتعليمه وحياته قبل لقائها به- بسؤاله عن ذلك بشكل مباشر. كان من الغريب أن يكون الشيء الوحيد الذي بدا أنه يزعجه هو طرح سؤال عليه، وعندما أطلقت عليه -بفضولها الطبيعي- وإبلاً منها، صارت إجابته على كل واحد منها أقصر من الأخرى، وكان من فطنتها أنها رأت أن عدم اهتمامه بالإجابة عن أسئلتها لم يكن بسبب أن لديه أي شيء يخفيه عنها، بل بسبب تكتمه الطبيعي فقط، وكان يضجره أن يتكلم عن نفسه، فذلك يجعله خجولًا وقلقًا، وهو لا يعرف كيف يكون منفتحًا، وكان ولو عا بالقرأة،، لكنه كان يقرأ كتبًا بدت لكي مملّة جدًا، فإن لم يكن مشغولًا ببعض الأبحاث العلمية، فإنه يقرأ كتبًا عن الصين أو المؤلفات التاريخية، إنه لا يستريح أبدًا، وهي لا تعتقد بأنه يستطيع أن يستريح. لقد كان شغوفًا بالألعاب، إنه يلعب التنس والبريدج.

لقد تساءلت عن سبب وقوعه في حبها، فلم تستطع أن تتخيل أي امرأة أقل منها ملاءمة لهذا الرجل الكتوم البارد الهادئ، لكن من المؤكد تمامًا بأنه أحبها بجنون، فقد كان سيفعل أي شيء في العالم ليدخل السعادة إلى نفسها، وكان كالشمع بين يديها، وعندما تفكر بجانب واحد أظهره لها -بجانب رآته هي فقط- احتقرته قليلًا، وقد تساءلت إن كان سلوكه الساخر بتساهله المحقر لعدد كبير من الأشياء والأشخاص الذين أعجبت بهم، مجرد واجهة لإخفاء ضعف عميق في نفسه، لقد افترضت بأنه كان ذكيًا، فالجميع يبدو بأنهم يرونه كذلك، ولم تكن تجده مسليًا إلا

عندما يكون مع شخصين أو ثلاثة أشخاص من الذين يميل إليهم، وعندما يكون في مزاج رائق
لم يكن يضجرها بالضبط بل يثير فيها اللامبالاة

* * *

مع أن كيتي قابلت زوجة تشارلز تاونسيند في حفلات شاي مختلفة، إلا أنها قضت بضعة أسابيع وهو في هونج كونج قبل أن تراه. وقد قُدمت إليه عندما ذهبت مع زوجها لتناول العشاء في بيته فقط. واتخذت منه موقفًا دفاعيًا. فقد كان تشارلز تاونسيند مساعد حاكم المستعمرة، ولم تكن تفكر بالسماح له في معاملتها بنفس التنازل الذي لاحظته في معاملة السيدة تاونسيند لها، بالرغم من سلوكها الطيب، كانت الغرفة التي استقبلا فيها فسيحة، وكانت مؤثثة بأسلوب عائلي مريح ككل غرفة استقبال أخرى دخلتها في هونج كونج. كانت حفلة كبيرة، وكانا آخر من حضر، وحينما دخلا كان خدم صينيون في بزات رسمية يقدمون الكوكتيل والزيتون، وقد حيتهما السيدة تاونسيند بأسلوبها غير الرسمي ثم ذكرت لولتر وهي تنظر إلى قائمة السيدة التي سيدخلها معه إلى غرفة الطعام لتناول العشاء.

ورأت كيتي رجلًا طويلًا مفرط الأناقة يقبل نحوها

.هذا زوجي -

قال:

.سيكون من حظي أن أجلس إلى جوارك -

شعرت بالراحة على الفور، واختفى الشعور بالعدائية من صدرها. ومع أن عينيه كانتا تبتسمان، إلا أنها رأت فيهما نظرة دهشة سريعة، وقد فهمتها تمامًا وجعلتها تميل إلى الضحك.

قال:

.إن أكون قادرًا على تناول أي عشاء، وإن كنت أعرف يا دوروثي بأن العشاء طيب جدًا -

.لماذا؟ -

.كان يجب أن أعلم، كان لا بد أن ينذرني أحدهم -

.بماذا؟ -

.لم يقل أحد كلمة واحدة، كيف كان عليّ أن أعرف بأنني سأقابل جمالًا خلابًا؟ -

.والآن، ما الذي عليّ أن أقوله عن ذلك؟ -

.لا شيء، دعيني أقوم بالكلام، وسأردد القول مرارًا وتكرارًا -

وتساءلت كيتي وهي غير متأثرة من كلامه، عمًا كانت زوجته أخبرته عنها، لا بد أنه سأل عنها. وتذكر تاونسيند فجأة وهو ينظر إليها بعينيه الضاحكتين، فإنه استفسر من زوجته عندما أخبرته أنها قابلت عروس دكتور فاين.

- ما شكلها؟ -

- أوه، شيء صغير لطيف تمامًا، كممثلة -

- هل مثلت على خشبة المسرح؟ -

- أوه، لا، لا أظن هذا؛ فأبوها دكتور أو محامٍ أو شيء من هذا القبيل، أظن بأننا لا بد أن ندعوها على العشاء.

- لا داعي للتسرع، أليس كذلك؟ -

وعندما كانا يجلسان جنبًا إلى جنب إلى الطاولة، قال لها بأنه عرف ولتر فاين منذ أن حضر إلى المستعمرة.

- فنحن نلعب البريدج معًا. إنه أفضل لاعب بريدج في النادي، يتفوق على الكل تفوقًا كبيرًا -

- قالت لولتر وهما في طريقهما إلى البيت:

- أتلاعب البريدج معه؟ -

- ذلك ليس جديدًا كما تعرفين -

- كيف يلعب؟ -

- ليس بشكل سيئ، إنه يلعب ويكسب جيدًا جدًا، لكن حين تسوء أوراقه يتحطم -

- هل يلعب جيدًا كما تلعب أنت؟ -

- لا تساورني الأوهام حول لعبي، لا بد أن أصف نفسي كلاعب ماهر جدًا من الدرجة الثانية، - ويظن تاونسيند أنه لاعب من الدرجة الأولى، وهو ليس كذلك.

- ألا تحبه؟ -

- لا أحبه ولا أكرهه، وأظن أنه ليس سيئًا في عمله، ويقول الجميع بأنه رياضي جيد، وهو لا يثير اهتمامي كثيرًا.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يثير فيها تحفظ ولتر سخطها، وقد سألت نفسها لماذا يكون من الضروري التمسك بالحكمة إلى هذه الدرجة، فأنت إما تحب الناس وإما لا تحبهم. لقد

مالت إلى تشارلز تاونسيند كثيرًا جدًا، مع أنها لم تتوقع أن تشعر بهذا الميل إليه، فهو يكاد يكون أشهر رجل في المستعمرة، وكان من المفترض أن يتقاعد حاكم المستعمرة في وقت قريب، وكان الكل يأمل أن يخلفه تاونسيند، إنه يلعب التنس والبولو والجولف، كما أنه يُربي جياذ سباق، وهو مستعد دائمًا أن يقدم خدمة لأي شخص. ولم يترك الروتين الحكومي يتدخل بأمره قط، كما أنه لا يتكبر، ولم تعرف كييتي لماذا كانت تنفر من أن تسمع الناس يمدحونه، وما كان بوسعها إلا أن تفكر بأنه لا بد أن يكون مغرورًا للغاية، لقد كانت سخيفة جدًا، فذلك كان آخر ما يمكنك اتهامه به.

لقد استمتعت بأمسيتها؛ فقد تكلمنا عن المسارح في لندن وعن اسكوت وكاوبس وكل الأمور التي كانت تعرفها. كأنها كانت قابلته حقًا في بيت راقٍ في حدائق ليونكس، وقد سار متمهلاً بعد أن دخل الرجال غرفة الاستقبال بعد العشاء، ثم جلس إلى جانبها مرة أخرى، ومع أنه لم يقل أي شيء مسل جدًا إلا أنه حملها على الضحك، لا بد أنها كانت الطريقة التي قالها بها، فقد كان في صوته العميق الفني رنة مداعبة، وكان في عينيه اللطيفين الزرقاوين اللامعتين اللتين جعلانك تشعر بأنك في بيتك تمامًا، تعبير مبهج، لقد كان فيه سحر طبعًا وذلك ما جعله طريفًا.

فكرت، إنه طويل، حوالي ستة أقدام وبوصتين على الأقل، وله قوام جميل، فهو في صحة جيدة بشكل واضح، وليس فيه أي شحم زائد. كان أنيق الملابس، أكثر الرجال الذين في الغرفة أناقة، ويرتدي ملابسه على نحو جيد، وهي تحب أن يكون الرجل أنيقًا، وتحولت عيناها إلى ولتر، يجب أن يحاول تحسين مظهره قليلاً حقًا، ولاحظت أزار كمي تاونسيند وأزرار صديريته. لقد رأت أزرارًا مشابهة لها في محلات. كان ملوِّحًا بعمق من الشمس، لكن الشمس لم تسلب اللون الصحي من وجنتيه. لقد أحببت الشارب المقتول المشذب الذي لم يخف شفثيه الحمراوين المليئتين، وكان شعره أسود قصيرًا ممشطًا بفرشاة ليصبح أملس تمامًا، لكنَّ عينيه اللتين كانتا تحت الحاجبين الكثين العريضين كانتا أجمل قسماته طبعًا، فقد كانتا زرقاوين تمامًا وتتمتعان برقة ضاحكة تقنعك بجمال تكوينه، لم يكن أي رجل له هاتان العينان الزرقاوان يستطيع أن يؤدي أي إنسان.

لم يكن في وسعها إلا أن تعرف بأنها قد أثارت انطباعًا في نفسه، فإن هو لم يقل لها كلامًا ساحرًا، إلا أن عينيه الدافنتين خانتاه من فرط الإعجاب. لقد كانت بساطته مبهجة، ولم يكن خجولًا فشعرت كييتي بالراحة في ظل هذه الظروف، وقد أعجبت بالطريقة التي ألمح بها بين

الحين والحين- بامتداح جميل بين المزاح الذي كان قوام حديثهما، وعندما صافحته عند مغادرتها الحفلة، ضغط على يدها بشكل لا يمكن أن تخطئه، وقال بلا تصنع

- أتمنى أن نراك مرة أخرى في وقت قريب -

لكنَّ عينيهِ منحتا كلماته معنى ما كانت تستطيع أن تعجز عن رؤيته

قالت:

هونج كونج صغيرة جداً، أليس كذلك؟ -

* * *

مَن كان يظن حينها بأنهما سيصبحان على مثل هذه العلاقة خلال ثلاثة أشهر؟ لقد قال لها بأنه فُتِنَ بها في ذلك المساء الأول؛ فقد كانت أجمل مخلوق رآه في حياته. لقد تذكّر الفستان الذي كانت ترتديه، لقد كان فستان زفافها، وقال بأنها بدت كزنبقة الوادي. لقد عرفت بأنه وقع في حبها قبل أن يُخبرها بذلك. فأبقتة بعيداً عنها وهي تشعر بخوف طفيف. لقد كان مندفعاً وكان الوضع صعباً، فقد خافت أن تسمح له أن يقبلها، فالتفكير بذراعيه وهما يُحيطان بها جعل قلبها يخفق بسرعة كبيرة. فهي لم تكن قد وقعت في الحب من قبل. إن الحب رائع، والآن وبعد أن عرفت ما الحب، أحست بعطف فجائي على الحب الذي يُكنه لها ولتر. فأخذت تضايقه بمزاح ورأت أنه يستمتع بهذا، ربما كانت خائفة منه قليلاً، لكنها تشعر الآن بثقة أكبر بالنفس. ومازحته قليلاً وكان يسعدها أن ترى الابتسامة البطيئة التي كان يتلقى بها مزاحها في البداية. اندهش وداخله السرور، واعتقدت في أحد هذه الأيام بأنه سيصبح مثل كل البشر تماماً، وبعد أن عرفت الآن شيئاً عن العاطفة، فقد صار من دواعي تسليتها أن تلعب بخفة على عواطفه كعازف القيثارة يجري أصابعه على أوتار قيثارته، ولقد ضحكت حين كانت ترى مدى ما تُثيره في نفسه من ارتباك وحيرة.

وعندما أصبح شارلي عشيقها، بدا أن الوضع بينها وبين ولتر قد أصبح سخيلاً جداً. فلم تكن تكاد تنظر إليه - هو الرزين الوقور - دون أن تضحك، وكانت أسعد من أن تحس بالقسوة نحوه. فلولاها - على أي حال - ما كانت عرفت شارلي. لقد ترددت لبعض الوقت قبل أن تخطو الخطوة النهائية، لا لأنها لم تكن تريد أن تستسلم لعاطفة شارلي، فقد كانت عواطفها نحوه معادلة لعواطفه نحوها، بل لأن تنشئتها وكل معتقدات حياتها كانت تخيفها، وقد ذهلت فيما بعد (وكان الفعل النهائي ناتجاً عن صدفة، فلم يجد أي منهما الفرصة إلا بعد أن قابلتهما) لاكتشاف أنها لم تختلف عما كانت عليه في السابق.

سيسبب بعض التغيير. لم تكد تعرف ما هذا التغيير، تغيير خيالي فيها فتحس كأنها إنسانة أخرى، وحين كانت تتاح لها فرصة النظر إلى نفسها في المرآة، كانت تشعر بالارتباك عندما كانت ترى نفس المرأة التي كانت في اليوم السابق.

سألها:

هل أنتِ غاضبة مني؟ -

همست:

- أنا أعبدك -

- ألا ترين أنكِ كنتِ سخيقةً جدًّا لإضاعتكِ الكثير جدًّا من الوقت؟ -

- بلهاء تمامًا -

* * *

وجددت سعادتها - التي كانت أعظم من أن تستطيع أن تحتلمها - جمالها، فقد أخذت تبدو قبل أن تتزوج متعبة ومسحوبة بعد أن بدأت تفقد نضارتها، فقال القساة بأنها تنتهي. لكن هناك فرق بين فتاة في الخامسة والعشرين وامرأة متزوجة في ذلك السن. كانت كبرعم وردة أخذ يتحول إلى اللون الأصفر عند أطراف بتلاتها، ثم تحولت فجأة إلى وردة في كامل إزهارها، فاكتمت عيناها النجميتان تعبيرًا أكثر أهمية وأصبحت بشرتها - ذلك الجزء من جسدها الذي كان دائمًا مجال فخرها الأعظم وعنايتها الكبرى - مذهلة.

فلم يكن من الممكن مقارنتها بالخوخ أو بالزهور، بل كان الخوخ والزهور هما اللذان يطلبان مقارنتهما بها. لقد عادت تبدو في الثامنة عشر من عمرها مرة أخرى، وكانت في قمة جمالها الباهر، ولم يكن من المستحيل عدم ملاحظة هذا عليها، وقد أخذتها صديقتها إلى جانب وسألتهما بود إن كانت تنتظر مولودًا، وأقرت اللامباليات اللواتي قلن بأنها لم تكون سوى امرأة جميلة جدًا بأنف كبير بأنهم قد أسأن الحكم عليها. لقد كانت ما دعاها شارلي به حين رآها لأول مرة، جمالًا خلابًا.

وأدارا مؤامرتهم الغرامية بمهارة، لقد قال لها بأن له ظهرًا عريضًا (وقاطعته بخفة: لن أدعك تتباهى بقوامك) ولم يكن يهمه أمر نفسه، لكنهما كانا يحبان ألا يخاطرا أدنى مخاطرة من أجلها هي، فلم يكونا يستطيعان اللقاء وحدهما كثيرًا، ولا حتى نصف المرات التي كان يتمنى أن يتم فيها اللقاء بينهما، لكنه كان لا بد أن يفكر بها أولاً، أحيانًا في دكان التحف، وفي بيتها بين حين وآخر عندما لا يكون في البيت أحد، لكنها كثيرًا ما تراه هنا وهناك، وكان يسليها أن ترى الطريقة الرسمية التي يتكلم بها إليها، حيث يكون مرحًا، فقد كان هو على ذلك النحو دائمًا. على نفس النحو الذي يكون فيه مع الجميع. فمن كان يمكن أن يتخيل - حين يسمعه وهو يمازحها بهذا الأسلوب الساحر الذي يتميز به - بأنه كان سيحضنها بذراعيه العاطفتين بعد ذلك؟

لقد عبدته، فقد كان رائعًا في حذانه العالي الجميل وبنظرون الركوب الأبيض عندما يلعب البولو. وهو يبدو في ملابس التنس مجرد فتى، لقد كان فخورًا بقوامه طبعًا، كان أروع قوام رآته في حياتها، وكان يتجشم عناء المحافظة عليه، فهو لا يأكل الخبز أو البطاطس أو الزبدة قط. وكان يقوم بالكثير من التمارين الرياضية، وكانت تعجب بالعناية التي يولي بها يديه، فقد

كان يظليها بطلاء المونكير مرة في الأسبوع. لقد كان رياضياً مدهشاً، وقد فاز ببطولة التنس المحلية في السنة الماضية. ويقيناً أنه كان أفضل راقص رقصت معه في حياتها، لقد كان الرقص معه حلمًا. لم يكن أحد يرى أنه في الأربعين من عمره، ولقد أخبرته بأنها لا تصدق هذا.

أظن أن كل هذا مجرد خداع، وأنتِ في الخامسة والعشرين حقًا -

ضحك وكان مسرورًا جدًا.

أوه يا عزيزتي، لديّ ابن في الخامسة عشر، أنا رجل في منتصف العمر، وخلال سنتين أو - ثلاث سنوات سأكون مجرد رجل عجوز بدين.

ستكون فائتًا حينما تكون في المائة من العمر -

وأحبت حاجبيه السوداوين الكثين، وقد تساءلت إن كانا هما اللذان يضيفان على عينيه الزرقاوين تعبيرهما المقلق.

كان عظيم الإنجازات، فقد كان يعزف على البيانو عزفًا جيدًا جدًا، موسيقى الرجيم (الأمريكية زنجية الأصل)، وكان يستطيع أن يغني أغاني هزلية بصوت رخيم وروح مرحة طيبة، لم تكن لتصدق بأن هناك أي شيء لا يستطيع فعله، كان ماهرًا للغاية في عمله أيضًا، وكانت تشاركه في فرحته عندما كان يُخبرها بأن الحاكم هناك بشكل خاص على الطريقة التي أنجز بها مهمة صعبة.

ضحك وعيناه ساحرتان من الحب الذي يُكنه لها:

بالرغم من أن الحال كما يقولون عنها، فلا أحد في الخدمة كان يستطيع أن يُنجزها بشكل - أفضل مما أنجزتها.

!آه، كم تمننت لو كانت زوجته، وليست زوجة ولتر

* * *

لم يكن من المؤكد بعد أن يكون ولتر قد عرف الحقيقة طبعًا، وإن هو لم يعرفها، فقد يكون من الأفضل أن تترك المسألة، لكنه لو عرف فإن هذا سيكون خيرًا لهم جميعًا في النهاية. ففي البداية كانت تشعر بالاطمئنان - إن لم يكن الرضى - عند رؤية شارلي خلسة فقط، لكن الزمن زاد من عاطفتها، وأصبحت منذ فترة نافذة الصبر بشكل متزايد من العقبات التي تمنعها من أن يكونا معًا دائمًا، لقد أخبرها كثيرًا بأنه يلعب مركزه الذي يجبره على أن يكون حذرًا، ويلعب الروابط التي تقيده، والروابط التي تقيدها، لقد قال يا للروعة لو كانا كلاهما أحرارًا

لقد ثمنت وجهة نظره فلا أحد يريد فضيحة، وسيتطلب الأمر طبعًا الكثير من التفكير قبل أن تُغيّر مجرى حياتك، لكن لو أن الحرية فُرضت عليهما، آه، فكم سيكون كل شيء سهلًا حينها

لم يكن الأمر يبدو أن أي شخص سيعاني كثيرًا للغاية، فقد كانت تعرف بالضبط ماهية علاقته مع زوجته. لقد كانت امرأة باردة ولم يكن بينهما أي حب طوال سنوات. كانت العادة هي التي تربطهما معًا، والمصلحة والأطفال طبعًا. فالوضع أسهل بالنسبة لشارلي مما هو بالنسبة لها، فولتر يحبها، لكنه على أي حال مشغول في عمله، ولدى الرجل دائمًا ناديه، فقد ينزعج في البداية، لكنه سيتغلب على هذا، فليس ثمة سبب يمنعه من الزواج من امرأة أخرى، وقد أخبرها شارلي بأنه لا يمكنه أن يتبين كيف حدث ورمت بنفسها على ولتر فاين

لقد تعجبت وهي تبسم نصف ابتسامة، لماذا ارتعبت قبل وهلة وجيزة عند التفكير بأن ولتر أمسك بهما متلبسين. لقد كان من المرعب طبعًا أن ترى مقبض الباب يدور ببطء، لكنهما عرفا بأن ولتر يمكن أن يكون هو الذي يُديره على أسوأ الاحتمالات، وقد كانا مستعدين لمواجهة هذا. وكان شارلي سيشعر بارتياح عظيم، قدر الارتياح الذي ستشعر به، أن يُفرض عليهما بالقوة ما كانا يرغبان فيه أكثر من أي شيء آخر في العالم

لقد كان ولتر سيدًا مهذبًا، ستكون منصفة له بإقرارها بذلك. وهو يحبها وسيفعل الصواب، ويسمح لها بأن تحصل على الطلاق. لقد ارتكبا غلطة، ومن حسن الحظ أنهما اكتشفا هذا الخطأ قبل أن يفوت الأوان. لقد استقرت على ما ستقوله له وكيف ستعامله. ستكون رقيقة ومبتسمة وحازمة، ولن يكون لديهما أي داع للشجار، وسيكون من دواعي سرورها فيما بعد أن تراه، وتمنت بصدق أن تظل السننتان اللتان قضياها معًا ذكرى لا تُقدر بثمن بالنسبة له

فكرت: «لا أعتقد أن دوروثي تاونسيند ستهتم بالحصول على الطلاق من شارلي أدنى اهتمام، وحيث إن ابنها الأصغر سيعود إلى إنجلترا الآن، فسيكون من الأفضل لها كثيرًا أن تُقيم أيضًا في إنجلترا، فليس لديها أي عمل تقوم به في هونج كونج، ستكون قادرة على قضاء كل العطلات مع». «أبنائها كما أن لديها أباهما وأمهات في إنجلترا».

كان كل شيء بسيطًا جدًا ويمكن تدبير كل شيء بلا فضيحة أو استياء، وعندها يمكنها هي وشارلي أن يتزوجا. أطلقت كيتي تنهيدة طويلة، سيكونان سعيدين جدًا. إن تحقيق ذلك يستحق أن يتعرضوا إلى متاعب معينة. وبشكل مشوش، دفعت صورة صورة أخرى. ففكرت في الحياة التي سيعيشانها معًا، وفي المرح الذي سيحصلان عليه، والرحلات القصيرة التي سيقومان بها معًا، والبيت الذي سيعيشان فيه، والمناصب التي سيتبوأها، والمساعدة التي ستقدمها له. سيكون فخورًا جدًا بها، أما هي فإنها تعبده

لكن تيارًا من الخوف جرى متخللاً كل أحلام اليقظة هذه، كان مضحكًا كأن آلات نفخ خشبية ووتريات أوركسترا تعزف ألحانًا أركادية، بينما تُقرع الطبول جهورية الصوت إيقاعًا كئيبيًا برقة، مع خفقات تحمل نذير شر في نفس الوقت

لا بد أن يعود ولتر إلى البيت عاجلاً أو آجلاً، خفق قلبها بسرعة وهي تفكر بلقائه، فمن الغريب أنه خرج بعد ظهر هذا اليوم دون أن يقول لها كلمة. لم تكن خائفة منه طبعًا، وكررت القول لنفسها: ما الذي يمكنه أن يفعله على أي حال؟

لكنها لم تستطع أن تخفف من قلقها. ورددت مرة أخرى ما ستقوله له، ما الفائدة من إثارة ضجة؟ لقد كانت متأسفة جدًا، والله يعلم بأنها لم ترغب في أن تسبب له أي ألم، لكن لم يكن في يدها من حيلة إن هي لم تحبه، فليس جيدًا أن تتظاهر، ومن الأفضل دائمًا أن تقول الحق، إنها تتمنى ألا يشعر بالتعاسة، لكنهما ارتكبا خطأ، والشيء المعقول الوحيد الذي لا يمكنهما فعله هو الإقرار بهذا، و ستذكره دائمًا بالخير

لكنها حتى وهي تقول هذا لنفسها— دفعت هبة خوف فجائية العرق يتفصد في راحتي يديها، ولأنها كانت خائفة أخذت تشعر بالغضب منه، فإذا أراد هو أن يُثير فضيحة فإن ذلك سيكون وجهة نظره ويجب ألا يستغرب إن هو نال أكثر مما ساوم عليه. ستخبره بأنها لم تهتم به أبدًا أدنى اهتمام، وأن يومًا واحدًا لم يمر عليها منذ زواجهما دون أن تشعر بالندم، لقد كان بليدًا، أوه، كم أثار في نفسها الملل، أضجرها، أضجرها. إنه يرى نفسه أفضل كثيرًا من أي شخص

آخر، إن هذا مثير للضحك. فهو لا يتمتع بروح المرح وهي تكره مظهره المتعالي وبروده وثقته بنفسه، من السهل أن تكون واثقاً بنفسك عندما لا تكون مهتماً بأي شيء آخر ولا بأي شخص إلا نفسك. إنه يثير نفورها، وهي تكره أن تدعه يقبلها، ما الذي لديه ليكون مغروراً إلى هذا الحد؟ فهو يرقص رقصاً عفناً، وهو يبدو كبطانية مبتلة في الحفلات، إنه لا يستطيع أن يعزف ولا أن يغني، ولا يستطيع أن يلعب البولو، ولعبه للتنس ليس أفضل من لعب أي شخص آخر. البريدج؟ من ذا الذي يهتم بالبريدج؟

أنهكت كيتي نفسها حتى بلغت قمة الانفعال، ليجروا على تأنيبها، فكل ما وقع كان خطأ هو، إنها مسرورة لأنه عرف الحقيقة أخيراً. لقد كرهته ورغبت في ألا تراه مرة أخرى. نعم، إنها مسرورة لأن حياتهما قد انتهت. لماذا لا يتركها وشأنها؟ لقد ألح عليها إلى درجة الإزعاج لكي تتزوج، وها هي قد سأمت الآن.

:كررت القول بصوت عال مرتجفة من الغضب

!سئمتُ! سئمت -

.وسمعت السيارة تقف عند بوابة حديقتها، وكان يصعد السلم

* * *

دخل الغرفة، أخذ قلبها يخفق بقوة ويدها ترتجفان، كان من حسن حظها أنها كانت تتمدد على الكنب، كانت تمسك بكتاب مفتوح كأنها كانت تقرأ، وقف للحظة على عتبة الباب وتلاقت أعينهما، وغرق قلبها، شعرت ببرد يتخلل أوصالها فجأة، فارتجفت. أحست بذلك الشعور الذي تصفه بقولك بأن شخصاً كان يمشي فوق قبرك. كان وجهه شاحباً شحوب الموتى، لقد رأته على هذا النحو ذات مرة في السابق، عندما جلسا معاً في المنتزه وطلب أن تتزوجه . بدت عيناه الداكنان والثابتتان والغامضتان كبيرتين بشكل غير طبيعي. إنه يعرف كل شيء

قالت:

.عدت مبكرًا -

ارتجفت شفتها إلى درجة أنها لم تستطع تجميع الكلمات إلا بصعوبة. لقد كانت مرتعبة، وكانت تخشى أن يُغمى عليها

.أرى أنه الوقت المعتاد تقريبًا -

بدا لها صوته غريبًا، وقد ارتفع عند الكلمة الأخيرة لكي يضيفي على ملاحظته الأخيرة جواً من العفوية، لكنه كان مصطنعًا، وتساءلت إن كان يرى أن أوصالها كلها ترتجف، ولم تمنع نفسها من الصراخ إلا بعد جهد، وغضّ بصره

.سأرتدي ملابس -

غادر الغرفة، كانت مضطربة، ولم تستطع أن تتحرك لمدة دقيقتين أو ثلاث دقائق، لكنها عثرت على قدميها أخيرًا بعد أن رفعت نفسها عن الكنب بصعوبة، كأنها كانت تعاني من مرض ظلت ضعيفة بعد شفائها منه، لم تعرف إن كانت قدماها ستسندانها، وتحسست طريقها إلى الشرفة متكنة على الكراسي والطاولات، ثم اتجهت إلى غرفتها وإحدى يديها تستند على الجدار. ارتدت رداء الشاي، وعندما عادت ودخلت مخدعها -فهما يستخدمان غرفة الاستقبال فقط حين يُقيمان حفلة- كان يقف عند الطاولة ينظر إلى صور مجلة سكيّتش. كان عليها أن تُرغم نفسها على الدخول

.هل ستنزل؟ العشاء جاهز -

.هل أخرتك؟ -

كان من المفزع أنها لم تستطع أن تسيطر على ارتعاش شفثيها. متى سينتكم؟
جلسا وساد صمت بينهما للحظة، ثم ألقى ملاحظة، ولأنها كانت عادية، فإنها حملت جواً من الشر.

قال:

لم تصل الباخرة «الإمبراطورة» اليوم، وأتساءل إن كانت عاصفة قد أخرتها -

هل اليوم موعدها؟ -

نعم -

نظرت إليه الآن، فرأت أن عينيه كانتا مثبتتين على طبقه، وألقى ملاحظة أخرى، بنفس القدر من التفاهة، عن دورة مباريات تنس على وشك أن تُجرى، وأطال في الحديث. كان صوته في العادة مقبولاً مع تغيير في نبرة صوته، أما الآن فقد تكلم بنبرة واحدة. كان هذا غير طبيعي بشكل غريب، فقد أوحى لكيتي بانطباع أنه كان يتكلم من مكان بعيد، وكانت عيناه طوال الوقت تتجهان نحو طبقه، أو الطاولة، أو نحو صورة على الجدار. لم يكن ليلتقي بعينيها. أدركت أنه لا يحتمل النظر إليها.

قالت عندما انتهى العشاء:

هل سنصعد إلى الطابق العلوي؟ -

إذا رغبت -

نهضت وأمسكت بالباب لتبقيه مفتوحاً له، كانت عيناه تغضان الطرف عندما مرت به، وحين بلغا غرفة الجلوس، التقطت الجريدة المصورة مرة أخرى.

أهذه جريدة سكييتش الجديدة؟ لا أذكر أنني رأيتها -

لا أعرف، لم ألاحظ هذا -

لقد ظلت ملقاة مدة أسبوعين وهي تعرف أنه كان قد تصفحها مراراً وتكراراً. أخذها وجلس.
تمددت على الكنب مرة أخرى والتقطت كتابها.

وكقاعدة في المساء وحينما يكونان وحدهما، فإنهما يلعبان ورق الكونكان أو لعبة الصبر، كان يميل إلى الخلف متكناً على ظهر أريكته في وضع مريح، بينما بدا أن انتباهه مركز على

الصور التي كان ينظر إليها. لم يقلب الصفحة، وحاولت هي أن تقرأ، لكنها لم تستطع أن ترى الطباعة أمام عينيها. كانت الكلمات لطخات غير واضحة، وبدأ رأسها يؤلمها ألماً عنيفاً.

متى سيتكلم؟

جلسا صامتين مدة ساعة، توقفت عن التظاهر بالقراءة، وتركت روايتها تسقط على حجرها، ثم حدقت في الفراغ، كانت تخشى أن تثير أدنى حركة وتُطلق أدنى صوت، وجلس هو ساكناً في تلك الجلسة السهلة نفسها، وهدق في الصورة بهذين العينين الواسعتين الساكنتين.

كان سكونه يوحي بالتهديد بشكل غريب. أثار في كيتي شعوراً بأنه حيوان متوحش مستعد لـلانقضاض.

!وعندما نهض واقفاً فجأة، فزعت، أطبقت يديها وشعرت بنفسها تشحب. الآن

:وقال بذلك الصوت الهادئ الرتيب، وقد أشاح بنظره عنها

لديّ بعض الأعمال، سأدخل غرفة مكتبي إن لم يكن لديك مانع، أظن أنك ستكونين في -

سريرك حتى أنهى عملي

- إنني متعبة إلى حد ما الليلة -

- حسناً، تصبحين على خير -

- تصبح على خير -

وغادر الغرفة

* * *

- 19 -

:واتصلت هاتفياً بتاونسيند في مكتبه، وقتما تمكنت من ذلك في الصباح التالي

- نعم، ما الأمر؟
- أريد أن أراك.
- يا عزيزتي، أنا مشغول جداً. إنني رجل عامل.
- إنه أمر مهم جداً. هل يمكنني الحضور إلى مكتبك؟
- أوه! لا! ما كنت سأفعل ذلك لو كنت مكانك.
- أوه، تعال هنا إذن الآن، ما رأيك ببعد ظهر اليوم؟
- ألا تعتقدين أن من غير المستحب أن أحضر إلى بيتك؟
- يجب أن أراك على الفور.

:سادت فترة صمت، وكانت تخشى أن يكون الخط قد انقطع، فسألت بقلق

- هل أنت هناك؟
 - نعم، أنا أفكر، هل حدث أي شيء؟
 - لا يمكنني إخبارك في الهاتف.
- :وساد صمت آخر قبل أن يتكلم مرة أخرى

حسناً، اسمعي، يمكنني تدبير الأمر لأراك لمدة عشر دقائق في الساعة الواحدة إذا كان هذا كافياً، الأفضل أن تذهبي إلى محل كو- تشو، وسأحضر إليك حينما أتمكن من ذلك

:سألت بفرع

- دكان التحف؟

:أجاب

حسناً، لا يمكننا أن نلتقي في ردهة الانتظار في فندق هونج كونج.

:لاحظت نبرة الغضب في صوته

حسناً جداً، سأذهب إلى محل كو- تشو.

* * *

نزلت من عربتها « الركشة » في طريق فيكتوريا، وصعدت المنحدر، وهو زقاق ضيق، إلى أن وصلت إلى المحل. تسكعت خارجًا لمدة لحظة كأنها معجبة بالتحفة الزيتية المعروضة، لكن الصبي الذي كان يقف هناك مراقبًا الزبائن ابتسم ابتسامة متواطئة بعد أن عرفها. وقال شيئًا باللغة الصينية إلى أحد الأشخاص في الداخل، فخرج صاحب المحل، وهو رجل ضئيل بدين الوجه، يرتدي رداء العمل، فدخلت مسرعة.

مستر تاونسيند ما أتى بعد. أنتِ تصعدين فوق، نعم؟ -

اتجهت نحو نهاية المحل وارتقت السلم المتداعي المظلم. تبعها الصيني، ثم فتح الباب المؤدي إلى حجرة النوم. كانت فاسدة الهواء كما كانت تعبق برائحة أفيون حادة، جلست على صندوق من خشب الصندل.

وبعد لحظة، سمعت خطوات ثقيلة على السلم الذي يُصدر صريرًا، دخل تاونسيند وأغلق الباب خلفه. كان وجهه يحمل نظرة عابسة، لكنها تلاشت حينما رآها، ثم ابتسم بطريقته الفاتنة تلك. أخذها بسرعة بين ذراعيه وقبّل شفتيها.

والآن ما المشكلة؟ -

:ابتسمت

.إن مجرد رؤيتك تُسري عني -

.جلس على السرير وأشعل سيجارة

.تبدين شاحبة هذا الصباح -

:أجابت

.لا أستغرب هذا، لا أظن أنني أغمضت عيني طوال الليل -

ألقى عليها نظرة، كان لا يزال يبتسم، لكن ابتسامته كانت متكلفة قليلًا وغير طبيعية. اعتقدت أنها رأت ظل قلق في عينيه.

:قالت

.إنه يعرف -

:ساد صمت للحظة قبل أن يجيب:

- ما الذي قاله؟ -
- لم يقل أي شيء -
- ماذا؟ -

:ونظر إليها بحدة

- وما الذي جعلك تظنين أنه يعرف؟ -
- كل شيء، نظرت، طريقته في العشاء -
- الطبع؟ -

لا، على العكس من هذا، لقد كان مؤدبًا بشكل يُثير الشك، ولأول مرة منذ زواجنا لم يُقْبَلني قبلة المساء

غضت بصرها، لم تكن متأكدة إذا كان شارلي قد فهم. فكقاعدة متبعة كان ولتر يُحيطها بذراعيه ويضغط شفثيه على شفثيها ولا يفلتها، فيرق جسده كله ويُصبح عاطفيًا بقبلته

- ما السبب الذي جعله لا يقول شيئًا كما تتصورين؟ -
- لا أعرف -

سادت فترة صمت، وجلست كيتي ساكنة تمامًا على صندوق خشب الصندوق ونظرت بانتباه قلق إلى تاونسيند، عبس وجهه مرة أخرى وارتسمت تقطبية بين حاجبيه، تهدل فمه قليلاً عن زاويتيهِ، لكنه رفع رأسه فجأة، وتسَلَّت ومضة سرور خبيث في عينيه

- أتساءل إن كان سيقول أي شيء -

لم ترد. لم تفهم قصده

بعد كل هذا، لن يكون هو أول رجل يُغمض عينيه في وضع من هذا النوع، ما الذي سيكسبه -

من إثارة ضجة؟ فإذا أراد أن يُثير ضجة لأصر على دخول غرفتك

برقت عيناها، وانفرجت شفثاه عن ابتسامة عريضة

- لكننا سنبدو كسادجين ملعونين -
- إيتك رأيت وجهه الليلة الماضية -

أظن أنه كان منزعجًا، من الطبيعي أنها كانت صدمة، فهو موقف مذل لعين لأي رجل، وهو - يبدو دائمًا كأبله. إن ولتر لا يثير في انطباع رجل يهمله أن ينشر الكثير من الملابس القذرة على الملأ.

:أجابت وهي مستغرقة في التفكير

- لا أظن هذا. إنه حساس للغاية، لقد اكتشف الأمر -

كل ذلك لمصلحتنا بالقدر الذي يهمنا، وأنت تعرفين أنها خطة جيدة جدًا أن تضعي نفسك في - مكان شخص آخر، وأن تسألني نفسك كيف ستصرفين وأنت في مكانه، وثمة طريقة وحيدة يمكن للرجل بها أن يُنقذ ماء وجهه حينما يكون في موقف كهذا الموقف، وهو أن يتظاهر بأنه لا يعرف أي شيء، وأنا أراهنك بأي شيء تريدينه بأن ذلك هو ما سيفعله تمامًا.

وكلما تكلم تاونسيند أكثر كلما أصبح أكثر استهتارًا، فتلاأت عيناه الزرقاوان وأصبح مرحًا ومبتهجًا مرة أخرى. وتألقت بثقة مشجعة.

إنني لا أريد أن أذمه، والرب يشهد، إلا أنك حين تعالجين جوهر الموضوع فإنك ستترين أن - عالم البكتيريا ليس شخصًا عظيم الشأن، كما أن الفرص مهياة لي أن أصبح حاكم المستعمرة عندما يعود سيمونز إلى الوطن، ومن مصلحة ولتر أن يبقى على وفاق معي؛ فلدیه خبزه وزبدته ليفكر فيهما كبقيتنا هنا- هل ترين بأن وزارة المستعمرات ستهتم كثيرًا بشخص يثير فضيحة؟ صدقيني، إنه سيكسب الكثير إن هو أمسك لسانه، وسيخسر كل شيء إن هو أثار ضجة.

وتلملت كيتي، فهي تعرف مدى خجل ولتر، وكانت تعتقد أن خوفه من إثارة ضجة وخشيته من أن يلفت إليه الانتباه العام قد يؤثران عليه، لكنها لم تصدق بأنه سيهتم بالتفكير بالفائدة المادية، ربما لم تعرفه جيدًا جدًا، لكن شارلي لا يعرفه على الإطلاق.

- هل خطر في بالك بأنه واقع في حبي بجنون؟ -

لم يرد، لكنه ابتسم لها بعينين ماكرتين، إنها تعرف وتحب تلك النظرة الفاتنة

حسنًا، أنت تعرفين بأن النساء غالبًا ما يقعن تحت تأثير الانطباع بأن الرجال يحبونهن حبًا - جنونيًا أكثر مما يحبونهن في الواقع.

ولأول مرة ضحكت، لقد كانت ثقته بنفسه مؤثرة

إيا له من كلام فظ تقوله -

إنني أصور لك الأمر بأنك لم تكوني تهتمين كثيرًا بزواجك مؤخرًا، ربما لا يكون مولها بحبك -
كثيرًا كما كان في الماضي.

ردت عليه:

- على أي حال، لن أخدع نفسي أبدًا بأنك مولع بحبي إلى درجة الجنون -
- ها أنت مخطئة -

آه، كم هو لطيف أن تسمعه يقول ذلك. إنها تعرف هذا، وإيمانها بعاطفته نحوها تدفئ القلب،
وحيثما تكلم، نهض عن السرير واقفًا واقترب منها، وجلس إلى جانبها على صندوق خشب
الصنديل، وأحاط خصرها بذراعه.

قال:

لا تُقلقي رأسك الصغير السخيف للحظة أخرى، أعدك بأنه لن يكون هناك ما يخيفك. أنا -
متأكد. إن أمرًا كهذا من الصعب جدًا إثباته كما تعرفين. أنت تقولين إنه يحبك، فربما هو لا يرغب
في أن يفقدك تمامًا. أقسم أنني أفضل أن أقبل أي شيء حتى لا أفقدك لو كنت زوجتي

مالت إليه، فارتخى جسدها واستسلم على ذراعه، لقد كان الحب الذي تُكنه له يكاد يكون
عذابًا، لقد أثرت عليها كلماته الأخيرة، ربما كان ولتر يحبها إلى درجة أنه على استعداد لقبول
أي إدلال إن هي سمحت أن يحبها في بعض الأوقات. بإمكانها أن تفهم ذلك. فذلك هو الشعور
الذي تشعر به نحو شارلي، وسرت رجفة فخر في جسدها، وشعرت في نفس الوقت باحتقار
خفيف نحو رجل يحب بهذا الشكل من العبودية.

وأحاطت رقبة شارلي بذراعيها والحب يغرقهما

أنت مدهش تمامًا، كنت أرتعش كورقة شجر حينما جئت إلي هنا، وها أنت أعدت الأمور إلى -
نصابها.

أخذ وجهها بين يديه وقبّل شفيتها

- حبيبتي -

تنهدت:

- أنت الطمأنينة لي إلى درجة كبيرة -

أنا متأكد من أنه لا داعي لأن تكوني عصبية، وأنتِ تعرفين أنني سأقف إلى جانبك. لن -
أخذلكِ.

وطرحت عنها مخاوفها، لكنها أسفت - على نحو غير معقول وللحظة من الزمن - على أن
خطتها للمستقبل تحطمت، والآن، وبعد أن زال الخطر، أرادت برغبة طفيفة في أن يُصر ولتر
على الطلاق.

قالت:

- أعرف أنني أستطيع الاعتماد عليك -

- وهذا ما أتمناه -

- ألا يجب أن تذهب لتناول غدائك؟ -

- أوه، اللعنة على غدائي -

وجدبها إليه وضغطها إليه فأصبحت محاطة بإحكام بين ذراعيه، وبحث فمه عن فمها

- أوه يا شارلي، يجب أن تتركني أذهب -

- أبداً -

أطلقت ضحكة صغيرة، ضحكة حب سعيد وضحكة انتصار، وكانت عيناه مثقلتين بالشهوة،
رفعها حتى وقفت على قدميها، ملصقاً إياها بصدره، ودون أن يتركها تغلت منه، أغلق الباب

* * *

- 21 -

وفكرت طوال بعض الظهر كله فيما قاله شارلي عن ولتر. كانا سيتعشيان في الخارج هذا المساء، فكانت ترتدي ملابس الخروج عندما رجع من النادي. طرق الباب

.ادخل -

.لم يفتح الباب

.سأذهب لأرتدي ملابسني على الفور، كم ستستغرقين من الوقت؟ -

.عشر دقائق -

لم يقل شيئاً آخر، لكنه ذهب إلى غرفته. كان في صوته تلك اللهجة المتصنعة التي سمعتها منه الليلة السابقة. شعرت بالثقة بنفسها الآن إلى حد ما، واستعدت قبل أن ينتهي، وعندما هبط للطابق السفلى كانت قد سبقته وجلست في السيارة

:قال

.أخشى أن أكون قد تركتك تنتظرين -

:أجابت وقد استطاعت أن تبتسم وهي تتكلم

.لقد ظللت على قيد الحياة -

ألقت ملاحظة أو اثنتين، وهما يهبطان التل بالسيارة، لكنه أجاب عليهما بجفاف، هزت كتفيها وازداد صبرها نفاذاً قليلاً، إن أراد أن يتجهم، فليتجهم، إنها لا تهتم. سارت السيارة وهما صامتان إلى أن وصلا إلى غايتهما، كانت حفلة عشاء ضخمة. فقد كان هناك الكثير جداً من الناس والكثير جداً من ألوان الطعام، وراقبته كيتي وهي تثرثر بمرح مع جيرانها. لقد كان شاحباً شحوب الموتى كما كان وجهه ذابلاً

.يبدو زوجك شاحباً إلى حد ما، اعتقدت بأنه لا يتأثر بالحرارة، هل كان يعمل بجدية؟ -

.إنه يعمل دائماً بجدية -

.أعتقد أنكما ستسافران قريباً -

:قالت

أوه، نعم، أظن بأنني سأسافر إلى اليابان كما فعلت في السنة الماضية، فالطبيب يقول إنني - يجب أن أهرب من الحرارة إذا كنت لا أريد أن أنهار تمامًا

لم يرشقها ولتر بنظرة مبتسمة بين الحين والآخر كما كان يفعل عادة حينما كانا يتعشيان في الخارج. إنه لم ينظر إليها أبدًا. كما لاحظت بأنه أبقى عينيه بعيدًا عنها عندما اقترب من السيارة، وفعل نفس الشيء حينما قدم إليها يده لتركب السيارة بأدبه المعهود، وبينما كان الآن يتحدث إلى النساء على كلا جانبيه لم يبتسم، بل نظر إليهن بعينين ثابتتين لا تطرفان، وبدأت عيناه كبيرتين حقًا في ذلك الوجه الشاحب الأسود الفحمي، وكان وجهه جامدًا وقاسيًا.

«فكرت كيتي بسخرية: « لا بد أنه رفيق مُسلِّ

ولم تسلمها - حتى ولا قليلًا - فكرة أن السيدتين النعستين تحاولان أن تتبادلا الكلام مع ذلك القناع العابس.

إنه يعرف طبعًا، لا شك في ذلك، وهو غاضب منها. لماذا لم يقل أي شيء؟ أكان ذلك حقًا لأنه يحبها كثيرًا إلى درجة أنه يخشى أن تهجره، بالرغم من أنه غاضب ومتألم؟ وجعلها هذا التفكير تحتقره قليلًا، لكنها احتقرته بحسن نية، فبعد كل هذا، هو زوجها ويقدم إليها المأوى والمسكن، وطالما لن يتدخل في شؤونها ويتركها تفعل ما تريد فستكون لطيفة معه، ومن جهة أخرى لعل صمته ناتج عن خجل مرضي، لقد كان شارلي على حق عندما قال: لا أحد يكره الفضيحة أكثر مما يكرهها ولتر، فهو يمتنع عن إلقاء أي خطبة إذا أمكن تفادي هذا، وقد أخبرها بأنه حين استدعى للمحكمة للإدلاء بشهادة في قضية حيث كان عليه أن يُقدم دليلًا كخبير. ظل أسبوعًا قبل القضية وهو لا يكاد ينام. كان خجله مرضًا

وهناك أمر آخر، إن الرجال مغرورون جدًا، فطالما لم يعرف أحد ما حدث، فقد يقتنع ولتر بتجاهل هذا، ثم تساءلت إن كان من المحتمل أن يكون شارلي على حق عندما أشار بأن ولتر يعرف على أي جانب من خبزه وُضعت الزبدة. لقد كان شارلي أبرز رجل في المستعمرة وسرعان ما سيصبح حاكمًا لها، ويمكن أن يكون نافعًا جدًا لولتر، ومن ناحية أخرى فإنه يمكن أن يكون مكدرًا لولتر إذا هو استفزه، وخفق قلبها فرحًا وهي تفكر في قوة عشيقها وعزمه، إنها تشعر بأنها عزلاء بين ذراعيه الرجوليتين. الرجال غريبون فلم يخطر ببالها أبدًا أن ولتر في مثل هذا الانحطاط، ومع ذلك فمن يدري، ربما كان وقاره مجرد قناع يُخفي طبيعة دنيئة خادعة،

وكانت كلما فكرت بهذا، كلما بدا لها أن شارلي كان على حق فحولت نظرها إلى زوجها مرة أخرى، ولم يكن في نظرها تسامح.

وحدث أن كانت السيدتان -على كلا جانبيه- تتحدثان إلى جارتها، وتُرك هو وحيداً. فأخذ يحدق أمامه مباشرة ناسياً الحفلة و قد امتلأت عيناه بحزن قاتل، وأصابتها هذه النظرة بصدمة

* * *

فى اليوم التالى وعلما كانت كىتى مستلقىة بعء الغءاء وقء غفت؁ أىقظتها طرقة على بابها

:صاحت بانفعال

- من هنا؟ -

.كانت غير معتاءة أن يزءجها أءء فى تلك الساعة

- أنا -

.عرفت صوت زوجها؁ فاعءءلت جالسة بسرعة

- اءءل -

:سأل وهو ىءءل

- هل أىقظتك؟ -

:أجابت باللهجة الطبقىة التى استءءمتها معه ءلال الؤومىن الماضىىن

- نعم؁ إذا أرءت الحقىة -

.هلاً أتىء إلى الغرفة المءاورة؁ أرىء أن أءءء إليك قلىلاً -

.أطلق قلبها ءفقا فءائياً على ضلوعها

- سأرءءى الروب -

تركها؁ فءءعت قءمىها الحافىتىن فى ءُف ولفء نفسها فى روب كىمونو. نظرت فى المرآة؁ كانت شاعبة ءءاً فوضعت بعض طلاء الشفتىن؁ وقفت عنء الباب لءظة؁ تستءمع أعصابها للمقابلة ثم انضمت إلىه بوجه جرىء

:قالت

.كىف استطعت الءروج من المءءبر فى هءه الساعة؟ فأنا لا أراك كءىراً فى مثل هءا الوقت -

- هل ستءلسىن؟ -

لم ىنظر إليها؁ وتكلم بءءىة؁ وأسعءها أن ءجلس كما طُلب منها؁ فقء كانت ركبءاها ترتعءان قلىلاً؁ ولىمت الصمت بعء أن لم ءعء قاءرة على الاستمرار فى الكلام بءلك اللهجة المازءة؁

وجلس هو أيضًا وأشعل سيجارة، وتحركت عيناه في أرجاء الغرفة بقلق. بدا أنه يُعاني من بعض الصعوبة في بدء الحديث.

فجأة نظر في وجهها مباشرة، ولأنه أشاح بنظره عنها لمدة طويلة كهذه، أثارت نظرتة المباشرة هذه رعبًا شديدًا في نفسها إلى درجة أنها خنقت صرخة.

سألها:

هل سمعتِ عن ماي- تان- فو؟ لقد كُتب عنها الكثير في الصحف أخيرًا -

:حدقت فيه بشدة، ثم قالت مترددة

.هل هو هذا المكان حيث تنتشر الكوليرا؟ كان مستر أربولنوت يتكلم عنه ليلة أمس -

هناك وباء. أعتقد أنه أسوأ وباء أصابهم منذ سنين، وكان هناك مبشّر طبي وقد مات -

بالكوليرا قبل ثلاثة أيام، هناك دير فرنسي وموظف الجمر، أما كل الآخرين فقد خرجوا

كانت عيناه لا تزالان مثبتتين عليها، ولم تغضّ هي عينيها، حاولت أن تقرأ تعبيرات وجهه،

لكنها كانت عصبية فلم تتمكن من أن تميز سوى ترقب غريب. كيف يمكنه النظر إليها بمثل هذا الثبات؟ إنه حتى لم يطرف بعينه

إن الراهبات الفرنسيات يقمن بما يمكنهن القيام به، وقد حوّلن ملجأ الأيتام إلى مستشفى، -

لكن الناس يموتون كالأبواب. لقد عُرض عليّ الذهاب إلى هناك وتولي المسؤولية

- أنت -

أجفلت بعنف، كان أول ما فكرت به هو أنها ستكون حرة إذا هو ذهب، فتمكن من رؤية

شارلي دون عائق أو مانع، لكن الفكرة صدمتها، وشعرت بنفسها تتضرّج إلى حد كبير، لماذا يراقبها على هذا الشكل؟ وأشاحت بنظرها عنه وهي مرتبكة

:قالت متلعثمة

هل هذا ضروري؟ -

ليس هناك طبيب أجنبي في المنطقة -

لكنك لست طبيبًا. أنت عالم بكتيريا -

إنني دكتور في الطب، كما تعرفين، وقد مارست الطب العام في المستشفى قبل أن -

أتخصص، وكوني عالم بكتيريا أولاً وأخيرًا سيكون لصالح العمل، فستكون فرصة متاحة لأعمال

.البحث

كان يتكلم بطلاقة على وجه التقريب، وحين نظرت إليه، اندهشت أن رأيت في عينيه وميضاً من السخرية، ولم تستطع فهمه

لكن ألا يكون هذا خطراً جداً؟ -

.جداً -

ابتسم، لقد كانت تقطيعاً ساخرة. أسندت جبهتها إلى يدها. انتحار. إنه لا يقل عن ذلك بأي شيء. رهيب! لم تفكر بأنه سيأخذ الأمر على هذا النحو، لن تستطيع أن تدعه يفعل ذلك. إنها قسوة، لم تكن غلطتها إن هي لم تحبه، لم تستطع احتمال التفكير في أنه سيقتل نفسه من أجلها، وسالت الدموع رقيقة على وجهها

لماذا تبكين؟ -

.كان صوته بارداً

لست مجبراً على الذهاب، أليس كذلك؟ -

.لا، اننى أذهب بارادتى -

من فضلك لا تذهب يا ولتر، سيكون الأمر فظيماً جداً إذا حدث لك شيء، لنفترض أنك مت؟ -

مع أن وجهه بقي جامداً، إلا أن ظل ابتسامة عبر عينيه مرة أخرى. لم يرد

:سألت بعد فترة صمت

أين هذا المكان؟ -

.ماي- تان- فو؟ تقع على فرع من النهر الغربي. سنبحر في النهر، ثم ننتقل بالمحطات -

من نحن؟ -

.أنا وأنت -

نظرت إليه بسرعة. فكرت في أنها أخطأت السمع، لكن الابتسامة في عينيه انتقلت الآن إلى شفثيه. كانت عيناه الداكنتان مثبتتين عليها

هل تتوقع مني أن أذهب أيضاً؟ -

.اعتقدت أنك ستحبين أن تذهبي -

.أخذت أنفاسها تتحرك بسرعة كبيرة، وسرت رعدة في جسدها

لكن من المؤكد أنه ليس مكانًا مناسبًا لامرأة، فقد أرسل المبعوث زوجته وأطفاله إلى هنا - قبل أسابيع، كما عاد مبعوث الإدارة العامة وزوجته إلى هنا، لقد قابلتها في حفل الشاي. تذكرت الآن بأنها قالت بأنهم غادروا مكانًا ما بسبب الكوليرا

- هناك خمس راهبات فرنسيات -

وتملكها الرعب

لا أعرف ما تقصده. سيكون من الجنون أن أذهب إلى هناك. فأنت تعرف مدى رقتي. لقد - أشار دكتور هايوورد بأنني يجب أن أخرج من هونج كونج بسبب الحرارة ولن أستطيع تحمل الحرارة هناك، والكوليرا، سأجن من الخوف! إنه مجرد بحث عن المتاعب، ليس ثمة داع لي لكي أذهب، سأموت

لم يُجب. نظرت إليه وهي يائسة وبالكد تمكنت من منع نفسها من إطلاق صرخة. اكتسى وجهه شحوبًا أسود أروعها فجأة. رأته فيه نظرة كراهية. أمن الممكن أنه يريد أن يموت؟ وأجاب على أفكارها الغاضبة

إن هذا سخيف. إذا أنت فكرت بأنك يجب أن تذهب، فهذه وجهة نظرك، لكنك لا يمكنك حقًا - أن تتوقع مني الذهاب، فأنا أكره المرض، وباء كوليرا، إنني لا أظاهر بأنني شجاعة جدًا، ولا يُضيرني أن أقول لك بأن ليس لدي الشجاعة على ذلك. سأبقى هنا حتى يحل الوقت لأذهب إلى اليابان.

- لا بد أنني فكرت في أنك ترغيبين في مصاحبتني حين أوشك على الانطلاق في مهمة خطيرة -

كان يسخر منها الآن بشكل واضح، كانت مشوشة، لم تعرف تمامًا إذا كان قد قصد ما قاله أو كان يحاول فقط تخويفها

لا أظن أن أحدًا سيلومني لرفض الذهاب إلى مكان خطير ليس لدي عمل فيه، أو أنني لا يمكن أن أكون ذات نفع فيه

- يمكنك أن تكوني ذات نفع عظيم، يمكنك أن تسري عني وتوفري لي الراحة -

وإزداد شحوبها قليلًا

- لا أفهم ما تتكلم عنه -

- ما كنت أظن أن هذا يحتاج إلى أكثر من ذكاء متوسط -

- لن أذهب يا ولتر. إن من الوحشية أن تطلب مني هذا -
- إذن، لن أذهب أنا أيضًا، سأحول طلبتي إلى الملف للحفظ على الفور -

* * *

نظرت إليه بذهول. فقد كان ما قاله غير متوقع إلى حد أنها لم تكد تدرك معناه لأول وهلة.

قالت مترددة:

- ما الذي تتكلم عنه بحق الرب؟ -

بدا كلامها زائفاً حتى بالنسبة إليها، ورأت نظرة الازدراء التي ارتسمت على وجه ولتر الصارم.

- أخشى أنك فكرت أنني أكثر بلاهة مما أنا في الحقيقة -

لم تعرف تماماً ما تقوله. كانت مترددة في أن تؤكد بحق براءتها أو أن تنفجر في توبيخات. غضب. بدا أنه يقرأ أفكارها.

- لدي كل دليل ضروري -

وبدأت تبكي، وسالت الدموع من عينيها بلا عناء واضح ولم تجفهما، فالبكاء يمنحها وقتاً قصيراً لتتمالك نفسها، لكن عقلها كان خالياً، راقبها بلا اهتمام، فأخافها هدوؤه ثم نفذ صبره.

- لن تنالي شيئاً من البكاء. أنت تعرفين هذا -

- أثار صوته البارد القاسي جداً الحنق في نفسها وأخذت تستعيد رباطة جأشها.

- لا يهمني، أظن أن ليس لديك اعتراض على طلاقي. إنه لا يعني شيئاً بالنسبة إلى رجل -

- هل تسمحين لي في أن أسألك عن السبب الذي يجعلني أزعج نفسي أدنى إزعاج بسببك؟ -

- لن يشكل هذا فرقاً بالنسبة لك، ليس بالكثير أن أطلب منك التصرف كرجل مهذب -

- إنني آخذ مصلحتك بعين الاعتبار إلى حد كبير -

:اعتدلت في جلستها الآن وجففت عينيها. سألته:

- ما الذي يعنيه؟ -

- سيتزوجك تاونسيند إذا كان هو شريكاً في قضية زنا، وستكون القضية مخزية إلى درجة أن زوجته ستجبر على الطلاق منه.

صاحت:

- أنت لا تعرف ما تتكلم عنه -

.أنتِ بلهاء غبية -

كانت لهجته مليئة باحتقار بالغ، حتى إنها احمرت غضبًا. وربما كان غضبها أكبر لأنها لم تسمعه يقول لها من قبل إلا الكلام الجميل والإطراء المفرح. لقد كانت معتادة أن تجده خاضعًا لكل نزواتها.

إذا كنت تريد الحقيقة فيمكنك أن تسمعها، إنه متلهف جدًا ليتزوجني، ودوروثي تاونسيند -
راغبة تمامًا في أن تطلقه، وسنتزوج لحظة أن نتحرر

هل أخبرك بهذا بمثل هذه الكلمات الواضحة، أم أن ذلك نتج عن الانطباع الذي أثاره فيكِ -
سلوكه.

لمعت عينا ولتر بسخرية مريرة، وأقلقتا كيتي قليلاً، فلم تكن متأكدة تمامًا من أن شارلي كان
قد قال ذلك بالضبط بمثل هذه الكلمات الكثيرة في أي وقت من الأوقات

.لقد قال هذا مرارًا وتكرارًا -

.تلك كذبة وأنتِ تعرفين أنها كذبة -

إنه يحبني من صميم قلبه وروحه، إنه يحبني بنفس القدر من العاطفة التي أحبه بها، لقد -
اكتشفت الحقيقة لن أنكر شيئًا، لماذا أنكر هذا؟ لقد كنا عاشقين لمدة سنة وأنا فخورة بهذا. إنه
يعني لي كل شيء في العالم وأنا سعيدة لأنك عرفت هذا أخيرًا، لقد سئمتنا حتى الموت من السرية
والحذر وما إلى ذلك. لقد كانت غلطة أنني تزوجتك، ما كان عليّ أن أتزوجك، لقد كنت بلهاء. لم
أهتم بك إطلاقًا. لم يكن بيننا أي شيء مشترك أبدًا. فأنا لا أحب الناس الذين تحبهم، ويتملكني
الضيق من الأمور التي تهملك، إنني ممتنة لأن هذا انتهى

راقبها دون إشارة منه ولا خلجة تحركت في وجهه. أصغى إليها باهتمام ولم يُظهر أي تغيير
في تعبيراته بأن ما قالته أثر فيه

.أتعرف لماذا تزوجت بك؟ -

.لأنك أردتِ أن تتزوجي قبل أختكِ دوريس -

كان هذا صحيحًا، لكن هذا أثار فيها تحولًا عجيبيًا عندما أدركت أنه كان يعرف ذلك، وقد أثار
هذا إشفاقها بشكل غريب وحتى في تلك اللحظة من الخوف و الغضب، وابتسم ابتسامة خفيفة.

قال:

لم تخالجنى أي أوهام حولك. كنت أعرف بأنك سخيقة ومستهترة وخاوية الرأس، لكنني - أحببتك. كنت أعرف بأن أهدافك ومثالياتك كانت مبتذلة وتافهة، لكنني أحببتك. كنت أعرف أنك امرأة من الدرجة الثانية، لكنني أحببتك. إنه لوضع سخييف عندما أفكر كيف حاولت جهدي في أن أستسيغ الأشياء التي كانت تحلو لك وكيف كنت متلهفًا أن أخفي عنك أنني لم أكن جاهلاً ولا مبتذلاً ولا مُحببًا للفضائح ولا غيبًا. كنت أعرف مدى خوفك من الذكاء، فبذلت كل ما استطعت من جهد لأجعلك تظنين بأنني أبله كبير كبقية الرجال الذين عرفتهم. لقد عرفت بأنك تزوجتني لتحقيق راحتك. لقد أحببتك كثيرًا جدًا إلى درجة أنني لم أهتم. وحسب ما أرى فإن أغلب الناس عندما يحبون شخصًا ولا يبادلهم الحب يجأرون بالشكوى، يغضبون ويشعرون بالمرارة، ولم أكن كذلك. فلم أتوقع أن تحبيني أبدًا، ولم أر سببًا يدعوك لأن تحبيني، كما لم أفكر أبدًا بأنني شخص محبوب جدًا. لقد كنت ممتنًا لأن يُسمح لي أن أحبك، وكنت أبتهج عندما أعتقد بأنك سعيدة مني بين الحين والآخر. أو عندما ألاحظ في عينيك وهج الحنان الطيب، حاولت إلا أضايقك بحبي، وكنت أعرف بأنني لن يكون بمقدوري أن أضايقك، فكنت دائمًا يقظًا لأول إشارة تدل على أنك متضايقة من مشاعري، وما كان معظم الأزواج يترقبون تقبله كحق لهم، كنت مستعدًا لتلقيه كمنة منك.

لم تسمع كيتي - التي ألفت المديح طوال حياتها - كلامًا كهذا يقال لها من قبل، وتفجر غضب أعمى في قلبها، طرد الخوف منه، لقد بدا أنه يخنقها وشعرت بأوعية الدم في صدغيها تنتفخ وتخفق، فالغرور الجريح يجعل المرأة أكثر تحفزًا للانتقام من لبوة سُرقت أشبالها منها

وتدلى فك كيتي - وهو مربع قليلاً - ببشاعة مثل قرد، واسودت عيناها الجميلتان بخبث، لكنها كبتت جماح عواطفها

إن لم يكن لدى الرجل ما هو ضروري لي جعل المرأة تحبه، فهذا خطؤه وليس خطأها -

بالضبط -

وزادت لهجته الساخرة من غيظها. شعرت بأنها يمكنها أن تجرحه على نحو أكبر بالمحافظة على هدوئها.

لست مثقفة جدًا ولست ذكية جدًا، إنني مجرد امرأة عادية شابة جدًا. إنني أحب الأشياء التي - يحبها الناس الذين عشت بينهم طوال حياتي. إنني أحب الرقص والتنس والمسارح وأحب الرجال الذين يلعبون الالعاب. إنه صحيح تمامًا أنني كنت دائمًا أتضايق منك ومن الأشياء التي تحبها،

فهي لا تعني شيئاً بالنسبة لي ولا أريدها، لقد جررتني معك إلى تلك المعارض التي لا تنتهي في فينيسيا، كنت سأستمتع أكثر بلعب الجولف

أعرف -

أنا آسفة إذا لم أكن كل ما توقعنتي أن أكونه، ومن سوء الحظ أنني وجدت أنك تثير دائماً -
نفوري جسدياً، ولا يمكنك أن تلومني على ذلك

أنا لا ألومك -

كان يمكن لكيّتي أن تتعامل مع الوضع بسهولة أكبر لو أنه هاج وماج، لكان باستطاعتها أن تقابل العنف بالعنف، لقد كانت سيطرته على نفسه غير إنسانية، فكرهته الآن كما لم تكرهه من قبل

لا أظن بأنك رجل على الإطلاق. لماذا لم تقتحم الغرفة وتدخلها عندما عرفت بأنني كنت -
هناك مع شارلي؟ لكان بإمكانك أن تحاول ضربه على الأقل، هل كنت خائفاً؟

لكنها احمرت خجلاً في اللحظة التي قالت فيها هذا. فقد شعرت بالخجل. لم يردّ، لكنها قرأت في عينيه ازدياءً بارداً، وومض ظل ابتسامة على شفثيه

قد يكون الأمر أنني كإحدى الشخصيات التاريخية - أرفع مستوى من أن أقاتل -

فهزت كيّتي كتفيتها وهي غير قادرة على التفكير بأي شيء تُجيب به، وللحظة أطول حاصرها بتحديقة ثابتة

أظن أنني قلت ما يجب قوله، إذا أنتِ رفضتِ أن تحضري إلى ماي - تان - فو، فإنني -
سأحول طلبتي إلى الملف للحفظ

لماذا لا توافق على أن تسمح لي بطلب الطلاق؟ -

أشاح عينيه عنها أخيراً، ومال إلى الخلف في كرسيه وأشعل سيجارة. دخنها حتى النهاية دون أن ينبس بكلمة، ثم رسم ابتسامة خفيفة بعد أن رمى عقب السيجارة، و نظر إليها مرة أخرى:

إن أكدت لي السيدة تاونسيند بأنها ستطلق زوجها، وإن هو أعطاني وعده الخطي بأنه -
سيتزوجك خلال أسبوع من صدور قرار الطلاق، فإنني سأطلقك

كان في طريقة كلامه التي تحدث بها شيء أزعجها، لكن احترامها لنفسها أجبرها على قبول
:عرضه بأسلوب مترفع

- إن هذا كرم عظيم منك يا ولتر -

ولدهشتها انفجر فجأة في ضحك صاخب، فاحمرت غضبًا

- ما الذي يضحكك؟ لا أرى سببًا للضحك -

- معذرة، يُخيل إليّ أن إحساسي بالفكاهة غريب -

نظرت إليه عابسة، كانت تريد أن تقول قولًا مريّرًا وجارحًا، لكن لم يخطر في بالها أي رد.
نظر في ساعة يده

الأفضل أن تُسرعي إذا أردتِ اللحاق بتاونسيند في مكتبه، وإذا أردتِ أن تأتي معي إلى -
ماي- تان- فو، فسيكون من الضروري أن تنطلق بعد غد

- أتريد مني أن أخبره اليوم؟ -

- يقولون إنه ليس ثمة وقت أفضل من الوقت الحاضر -

أخذ قلبها يخفق بسرعة أكبر، لم يكن ما شعرت به قلقًا، لقد كان، إنها لا تعرف تمامًا ما الذي
كانه. تمنّت لو اتسع وقتها أكثر قليلًا، وكانت وددت أن تُعد شارلي للأمر، لكنها كانت تثق فيه كامل
الثقة، فقد أحبها بقدر ما أحبته، وكان من الخيانة أن تترك التفكير يعبر ذهنها بأنه لن يرحب
:بالضرورة التي فرضت عليهما. التفتت إلى ولتر بجديّة

لا أظن بأنك تعرف ما الحب، ليست لديك أي فكرة عن عمق حب شارلي لي وحبّي له، وهذا
هو الشيء الوحيد الذي يهم، وستكون كل تضحية يستدعيها حبنا سهلة سهولة سقوط قطعة
خشب.

انحنى لها انحناءة طفيفة، لكنه لم يقل شيئًا، وتبعها عيناه وهي تخرج من الغرفة بخطى
محسوبة.

* * *

«أرسلت ملاحظة إلى شارلي كتبت فيها: «قابلي من فضلك. إنه أمر عاجل

طلب منها صبي صيني أن تنتظر، وأحضر الجواب الذي يقول بأن السيد تاونسيند سيراهها خلال خمس دقائق. كانت عصبية إلى حد كبير، وعندما أدخلت أخيراً إلى غرفته، تقدم منها شارلي ليصافحها، لكنه - وفي اللحظة التي أغلق الصبي الباب وتركهما وحدهما - أسقط سلوكه الرسمي اللطيف

أقول لك يا عزيزتي، يجب ألا تحضري إلى هنا في ساعات العمل. لدي الكثير جداً مما يجب - فعله ولا نريد أن نعطي الناس فرصة للكلام

ألقت عليه نظرة طويلة بعينيها الجميلتين، وحاولت أن تبتم، لكن شفيتها كانتا متيبستين، فلم تستطع الابتسام

ما كنت لأحضر لو لم يكن الأمر ضرورياً -

ابتسم وأمسك ذراعها

حسناً ما دمت هنا، تعالي واجلسي -

كانت غرفة عادية وضيقة لها سقف عالٍ، وكانت جدرانها مطلية بظلمين من لون الطين الناضج، وكان الأثاث الوحيد في الغرفة مكوناً من طاولة مكتب كبيرة، وكرسي دوار ليجلس عليه تاونسيند، وأريكة جلدية للزائرين، وقد أثار الجلوس على هذه الأريكة الرهبة في نفس كيتي، وجلس هو إلى طاولة المكتب، لم تكن رآته يضع نظارة من قبل، ولم تكن تعرف بأنه يستعملها، وعندما لاحظ بأن عينيها تستقران عليها، خلعها. قال:

إنني أستعملها للقراءة فقط -

سالت دموعها بسهولة ثم أخذت تبكي الآن، دون أن تعرف السبب، لم تكن لديها نية متعمدة في أن تخدعه، بل كانت لديها رغبة غريزية في أن تثير عطفه إلى حد ما. نظر إليها بخواء

هل هناك شيء؟ أوه يا عزيزتي، لا تبكي -

أخرجت منديلها وحاولت أن تكبح نשיجها. رن الجرس وعندما وصل الصبي الخادم إلى الباب. اتجه إليه

إذا سأل أي شخص عني، فقل له إنني في الخارج -

.حسنًا جدًا يا سيدي -

.أغلق الصبي الخادم الباب. جلس شارلي على ذراع الأريكة وأحاط كتفيّ كيتي بذراعه

.والآن يا كيتي العزيزة، قولي لي كل شيء -

:قالت

.ولتر يريد الطلاق -

شعرت بأنه توقف عن الضغط بذراعه على كتفها وتصلّب جسده. سادت لحظة صمت، ثم
:نهض تاونسيند عن كرسيها، وعاد وجلس على كرسيه. قال

.ماذا تعنين بالضبط؟ -

.نظرت إليه بسرعة، فقد كان صوته أجش، ورأت بأن وجهه كان أحمر قاتمًا

.لقد تحدثت معه، وجئت من البيت مباشرة. إنه يقول إن لديه الدليل الذي يريده -

.لم تورطي نفسك، أليس كذلك؟ لم تعترفي بأي شيء؟ -

:غاص قلبها وأجابت

.لا -

:سألها وهو ينظر لها بحدة

.هل أنت متأكدة؟ -

:وكذبت مرة أخرى

.متأكدة تمامًا -

مال إلى الوراء في كرسيه وحدقّ بخواء في خريطة الصين التي كانت معلقة على الجدار
أمامه، راقبته بقلق، كانت منزعة إلى حد ما من الطريقة التي تلقى بها الخبر. فقد توقعت منه
أن يأخذها بين ذراعيه ويُخبرها بأنه ممتن الآن لأنهما سيستطيعان أن يبقيا معًا دائمًا، لكن
الرجال سخفاء طبعًا. كانت تبكي بصوت خافت، لا لكي تثير تعاطفه الآن، بل لأن هذا هو ما بدا
من الطبيعي أن تفعله.

:قال أخيرًا

.إنها ورطة دموية تورطنا فيها، لكن لا فائدة من أن نفقد عقلينا، ولن يكون البكاء ذا نفع -

.أبدًا كما تعرفين

:لاحظت الغيظ الذي بدا في صوته فجففت عينيها

- إنها ليست غلطتي يا شارلي، لم أستطع منع نفسي -

أنتِ لا تستطيعين طبعًا. لقد كان هذا مجرد سوء حظ لعين، وأنا أستحق اللوم قدر ما -
تستحقين، إن ما يجب فعله الآن هو أن نرى كيف سنخرج من هذه الورطة. لا أظن أنكِ تريدين
الطلاق أكثر مما أريده أنا.

خنقت شهقة، وألقت عليه نظرة متسائلة، لم يكن يفكر فيها على الإطلاق

أتساءل عما لديه من أدلة، لا أعرف كيف يمكنه أن يبرهن فعلاً بأننا كنا معاً في تلك الغرفة، -
فقد كنا في الغالب حذرين في هذا قدر ما يستطيع أي إنسان آخر أن يكون كذلك. وأنا متأكد من
أن العجوز في محل العاديات لم يَشِ بنا، حتى لو رأنا ندخل إلى ذلك الدكان فليس هناك سبب
يمنعنا من البحث عن التحف معاً

كان يكلم نفسه أكثر مما كان يكلمها إلى حد ما

إن من السهل توجيه تهمة، لكن من الصعب اللعين إثبات تلك التهمة، وأي محام سيؤكد لكِ -
هذا. إن خطأنا هو إنكار كل شيء، وإذا هو هدد بأن يُقيم دعوى ضدنا، فإننا سنطلب منه أن
يذهب إلى الجحيم وسنقاوم هذا

- لا يمكنني الذهاب إلى المحكمة يا شارلي -

لِمَ لا بحق الأرض؟ أخشى أنكِ لا بد أن تذهبي إلى المحكمة؛ فالرب يعلم أنني لا أريد إثارة -
ضجة، لكننا لا نستطيع مواجهة الأمر ونحن غير مستعدين

لماذا نحتاج إلى دفاع؟ -

يا له من سؤال تطرحينه! فبعد كل هذا، لستِ أنتِ فقط المعنية بالأمر، فأنا معنيٌّ به أيضاً، -
لكنني -في الحقيقة- لا أرى أنكِ بحاجة إلى أن تخافي من ذلك. سنكون قادرين على أن نسوي
الأمر مع زوجكِ بطريقة من الطرق. إن ما يقلقتني فقط هو أفضل طريقة لمواجهة هذا

وبدا كأن فكرة خطرت بباله، فقد التفت إليها مبتسماً ابتسامته الساحرة وقد أصبحت لهجته
منافقة بعد أن كانت قبل لحظة جافة وعملية

أخشى أن تكوني قد انزعجت كثيراً أيتها المرأة الصغيرة المسكينة، إن هذا سيئ جداً -

مد يده وأمسك بيدها

...إنها ورطة تورطنا فيها لكننا سنخرج منها، إنها ليست -

توقف عن الكلام، فخالج كيبي شك بأنه كان على وشك أن يقول بأنها لم تكن الورطة الأولى التي خرج منها.

إن أهم شيء هو أن نحافظ على رباطة جأشنا، وأنتِ تعرفين أنني لن أتخلي عنكِ أبداً -

إنني لست خائفة، ولا يهمني ما سيفعله -

ظل يبتسم لكن ابتسامته كانت مغتصبة قليلاً كما يبدو.

لو ساءت الأمور إلى أقصى حد، فإنني سأخبر الحاكم، سيشتمني كالجحيم، لكنه شخص - طيب ورجل دنيا، وسيسوي الأمر بطريقة ما، فلن يكون في صالحه أن تثور فضيحة.

سألت كيبي:

ما الذي يمكنه فعله؟ -

يمكنه الضغط على ولتر، فإن هو لم يستطع الوصول إليه عن طريق طموحه، فإنه سيصل - إليه عن طريق الشعور بالواجب.

شعرت كيبي ببرودة خفيفة تسري في عروقه، لم تبد أنها قادرة على أن تحمل شارلي على أن يرى مدى جدية الوضع وخطورته. لقد أثارت خفته نفاذ صبرها. أسفت لأنها جاءت لتراه في مكتبه، كان من السهل أن تقول ما تريد قوله لو كانت بين ذراعيه، وذراعاها حول عنقه.

قالت:

أنت لا تعرف ولتر -

إنني أعرف أن لكل رجل ثمنه -

لقد أحببت شارلي بكل قلبها، لكن جوابه أزعجها، فهذا قول غبي يقوله رجل ذكي مثله.

لا أظن أنك تدرك مدى غضب ولتر، لم تر وجهه ولا نظرة عينيه -

لم يرد للحظة، بل نظر إليها بابتسامة طفيفة، عرفت ما كان يفكر فيه. إن ولتر عالم بكتيريا ويشغل منصباً ثانوياً، ولن يكون ضعيفاً إلى درجة أن يجروء على أن يُزعج كبار الموظفين في المستعمرة.

قالت بجدية:

ليس من الخير أن تخدع نفسك يا شارلي، فلو نوى ولتر أن يُقيم دعوى ضدنا، فلن يكون -
لأي شيء يمكنك قوله أو يمكن لأي شخص قوله أدنى تأثير

:أصبح وجهه ثقیلاً ومتجهماً

- هل يفكر بإقامة دعوى ضدي بأنني شريك في الزنا؟ -

- فكر في ذلك في البداية، لكنني استطعت إقناعه في أن يوافق على أن يدعني أطلقه -

:خف توتره مرة أخرى ورأت الارتياح في عينيه

- أوه، حسناً ليس ذلك بالأمر الرهيب، يبدو لي أن تلك طريقة جيدة للخروج من الورطة، وبعد -
كل هذا فإن ذلك أقل ما يمكن لرجل فعله، إنه الفعل الوحيد المعقول

- لكنه يضع شرطاً -

:ألقى عليها نظرة متسائلة وبدا أنه يفكر

- إنني لست غنياً جداً طبعاً، لكنني سأفعل أي شيء ضمن قدراتي -

صمتت كيتي، كان شارلي يردد كلاماً ما كانت تتوقع منه أن يقوله، وجعل هذا الكلام من
الصعب عليها أن تتكلم، كانت تتوقع أن تردد هذا الشرط مرة واحدة وقد أحاطها بذراعيه
الرائعتين ووجهها المشتعل على صدره

- إنه يوافق على أن أطلب الطلاق منه إذا قَدِّمْتُ له زوجتك الضمان بأنها ستتقدم بطلب -
الطلاق منك

- أي شيء آخر؟ -

:لم تجد كيتي صوتها إلا بصعوبة

- وأيضاً - إنه من الصعب جداً قوله يا شارلي - إنه يبدو رهيباً. إذا أنت وعدت أن تتزوجني -
خلال أسبوع من صدور الطلاقين على نحو لا يُنقض

* * *

ظل صامتاً للحظة، ثم أخذ يدها مرة أخرى، وضغط عليها برقة.

قال:

أنتِ تعرفين يا حبيبتي، أننا لا بد أن نُبقي دوروثي بعيدة عن هذا مهما حدث -

نظرت إليه مذهولة:

لكنني لا أفهم. كيف يمكننا هذا؟ -

حسناً، لا يمكننا أن نفكر بأنفسنا في هذا العالم فقط، فأنتِ تعرفين أن كل الأمور الأخرى -
سواء، وليس في هذا العالم ما أحبه أكثر من زوجي منك، لكن هذا مستحيل تماماً، فأنا أعرف
دوروثي، ليس هناك ما يغيرها على طلب الطلاق.

زاد خوف كيتي إلى حد كبير، فبدأت تبكي مرة أخرى، نهض وجلس بجانبها وذراعه حول
خصرها.

حاولي ألا تزعجي نفسك يا حبيبتي، يجب أن نحافظ على رباطة جأشنا -

ظننت أنك تحبني -

قال برقة:

إنني أحبك بالطبع، بالتأكيد لا يمكن أن تشكّي في ذلك الآن -

إذا هي لم تطلقك فإن ولتر سيقيم دعوى ضدك بالمشاركة بالزنا -

واستغرق وقتاً طويلاً ليرد. كانت لهجته جافة:

سيدمر هذا حياتي العملية بالطبع، لكنني أخشى ألا يعود هذا عليك بالنعف الكبير، إذا بلغت
الأمور أقصى حد من السوء فإنني سأعترف لدوروثي، ستتألم وتشقى كثيراً جداً، لكنها ستصفح
عني.

ثم وهو يفكر:

ولست متأكداً من أن أفضل خطة ستكون الاعتراف بهذا على أي حال، إذا ذهبت إلى زوجك -
فإنني أعتقد بأنها ستتمكن من إقناعه بأن يُمسك لسانه

أهذا يعني أنك لا تريدها أن تطلقك؟ -

حسنًا، لديّ أبنائي الذين يجب أن أفكر فيهم، أليس كذلك؟ ولا أريدها أن تشعر بالشقاء طبعًا، -
لقد سارت أمورنا معًا على خير وجه دائمًا، لقد كانت زوجة طيبة جدًا معي كما تعرفين

لماذا أخبرتني بأنها لم تكن تعني شيئًا بالنسبة لك؟ -

لم أقل هذا أبدًا، لقد قلت بأنني لا أحبها، ولم ننم معًا منذ سنتين إلا بين الحين والآخر - في
يوم عيد ميلادها مثلًا - أو في اليوم السابق لرحيلها إلى الوطن أو في يوم رجوعها منه. فهي
ليست امرأة تهتم بهذا الأمر، لكننا كنا دائمًا صديقين حميمين ولا يضرني أن أخبرك بأنني أعتد
عليها أكثر مما يتخيّل إنسان.

ألا ترى أنه كان من الأفضل إذن أن تتركني وشأني؟ -

وجدت أن من الغريب أنها كان يمكنها أن تتكلم بمثل هذا الهدوء بالرغم من الرعب الذي
يُمسك بأنفاسها

لقد كنت أجمل شيء رأيت منذ سنين، وقد وقعت في حبك بجنون، ولا يمكنك أن تلوميني -
على ذلك.

لقد قلت لي بأنك لن تتخلى عني بعد كل هذا -

لكن، يا إلهي الرحيم! إنني لن أتخلى عنك. لقد تورطنا في ورطة رهيبة، وسأفعل كل ما
يمكن للإنسان فعله لإخراجك منها

ما عدا الشيء الوحيد الواضح والطبيعي -

نهض واقفًا وعاد إلى كرسيه

عزيزتي، يجب أن تكوني عقلانية. الأفضل أن نواجه الموقف بصراحة، وأنا لا أريد أن
أؤدي مشاعرك، لكنني لا بد أن أخبرك بالحقيقة. إنني حريص للغاية على عملي. ليس هناك من
سبب يمنعني من أن أصبح حاكم مستعمرات في يوم من الأيام، وشغل منصب حاكم مستعمرات
هو أمر جيد جدًا، وما لم نهدي هذا الأمر فلن يكون لديّ أدنى أمل في هذا المنصب. قد لا أترك
الخدمة، لكن ستكون هناك نقطة سوداء ضدي، وإذا كان لا بد أن أترك الخدمة، فلا بد أن أعمل
في أحد الأعمال التجارية في الصين حيث أعرف الناس، وفي كلتا الحالتين ستكون فرصتي هي
في ملازمة دوروثي لي.

هل كان من الضروري أن تخبرني بأنك لم تكن تريد شيئًا في العالم سواي؟ -

:تهدلت زاويتا فمه بحزن

أوه يا عزيزتي، من الصعب إلى حد ما أن تأخذي ما يقوله رجل حرفياً عندما يكون واقعاً -
في غرامك.

- ألم تكن تقصد ما قلته؟ -

- في تلك اللحظة -

- وما الذي سيحدث لي لو طلقني ولتر؟ -

إذا لم يكن لدينا موطن قدم نضع أقدامنا عليه، فلن نستطيع الدفاع عن أنفسنا حقاً، لن نتور -
فضيحة عامة، كما أن وعي الناس قد اتسع هذه الأيام

للمرة الأولى فكرت كيتي بأمها فارتجفت، نظرت إلى تاونسيند مرة أخرى، وامتزج الآن ألمها
:باستيائها. قالت

- أنا متأكدة من أنك لن تواجه أي صعوبة في تحمل أي متاعب ساعاني منها -

:أجاب

- لن نحقق أي تقدم في حل المشكلة بأن نرمي بعضنا البعض بأقوال سيئة -

أطلقت صرخة يأس. كان من الرهيب أن تكون قد أحبته بهذا التفاني، وأن تشعر نحوه بمثل
هذه المرارة مع ذلك. لم يكن من الممكن أن يفهم مدى ما كان يمثله بالنسبة لها

- أوه يا شارلي، ألا تعرف مدى حبي لك؟ -

لكن يا عزيزتي، انني أحبك، لكننا لا نعيش في جزيرة صحراوية ويجب أن نستخلص أفضل -
ما نستطيع استخلاصه من الظروف المفروضة علينا، يجب أن تكوني عاقلة حقاً

كيف يمكنني أن أكون عاقلة؟ لقد كان حبنا -بالنسبة لي- كل شيء، وكنت أنت حياتي كلها، -
وليس مما يبعث على سرور عظيم أن أدرك بأن هذا الحب -بالنسبة لك- لم يكن إلا فترة من
حياتك فقط.

لم يكن طبعاً فترة من حياتي، لكنك تعرفين بأنك تطلبين الكثير عندما تطلبين مني أن أسمح -
لزوجتي -التي ارتبط بها ارتباطاً متيناً- في طلب الطلاق مني، فأحطم حياتي العملية بالزواج
منك.

- لا أطلب منك أكثر مما أريد أن أقدمه لك -

- لكن الظروف مختلفة إلى حد ما -
- الفرق الوحيد هو أنك لا تحبني -
- يمكن لإنسان أن يكون غارقاً في حب امرأة دون أن يرغب في قضاء بقية حياته معها -
- ألفت عليه نظرة سريعة ثم سيطر اليأس عليها، وسالت الدموع ثقيلة على وجنتيها
- أوه، يا للقسوة! كيف يمكنك أن تكون قاسي القلب؟ -
- وبدأت تنشج بهيستريا، فألقى نظرة قلقة على الباب
- يا عزيزتي، حاولي السيطرة على نفسك -

شبهت:

أنت لا تعرف مدى حبي لك. إنني لا أستطيع الحياة من دونك. ألا تشعر بالشفقة عليّ؟ -

لم تعد تستطيع الكلام وبكت دون توقف

لا أريد أن أكون قاسياً، والسماء تعرف أنني لا أريد أن أؤدي مشاعرك، لكنني يجب أن أقول -

لك الحقيقة

إنه لدمار لحياتي كلها. لماذا لم تتركني وشأني؟ ما الأذى الذي سببته لك؟ -

إذا كان يفيدك أن تضعي اللوم كله عليّ، فيمكنك هذا طبعاً -

تفجر غضب كيتي فجأة

أظن أنني رميت نفسي عليك. أعتقد أنني ظللت أزعجك حتى استجبت لتوسلاتي -

أنا لا أقول ذلك. لكن من المؤكد سأفكر بممارسة الحب معك لو لم تظهرني بوضوح أنك على -

استعداد لتلقي ممارسة الحب

أوه، يا للعار! كانت تعرف أن ما قاله كان صحيحاً. كان وجهه الآن متجهماً وقلقاً، وتحركت

يداه بضيق، وألقى عليها نظرة سخط قصيرة بين الحين والآخر

قال بعد برهة

ألن يصفح عنك زوجك؟ -

لم أطلب هذا منه أبداً -

انقبضت يدها تلقائياً. رأته يكبح انطلاق استنكار الانزعاج الذي بلغ شفثيه

لماذا لا تذهبين إليه وترمي بنفسك تحت رحمته؟ فإذا كان يحبك قدر ما تقولين فهو كفيل -
بأن يصفح عنك
- ما أقل ما تعرفه عنه -

* * *

مسحت عينيها. حاولت أن تتمالك نفسها.

بشارلي، إذا أنت هجرتني فإنني سأموت -

لقد كانت مجبرة الآن على اللجوء إلى شفقتة. كان يجب أن تُخبره على الفور، فعندما يعرف مجال الاختيار الرهيب الذي وُضع أمامها، فإن كرمه وشعوره بالانصاف ورجولته ستثور بانفعال، حتى إنه لن يفكر بأي شيء إلا الخطر الذي تتعرض له، أوه، كم تتوق بشوق عارم في أن تشعر بذراعيه العزيزتين الحاميتين حولها.

يريدني ولتر أن أذهب إلى ماي- تان- فو -

أوه، لكن هذا هو المكان الذي تنتشر فيه الكوليرا، لقد أصابهم أسوأ وباء عرفوه منذ خمسين عامًا، ليس هذا المكان المناسب لأي امرأة، لا يمكنك الذهاب إلى هناك

إذا تخلّيت عني، فيجب أن أذهب إليه -

ماذا تعنين؟ أنا لا أفهم -

سيحل ولتر محل طبيب البعثة التبشيرية الذي مات، وهو يريدني أن أذهب معه -

متى؟ -

الآن، على الفور -

دفع تاونسيند كرسيه إلى الخلف، ونظر إليها بعينين تسيطر عليهما الحيرة

قد أكون غيبًا جدًا، لكنني لا أعرف رأس ما تقولين من ذيله. إذا أراد منك الذهاب إلى هذا -

المكان معه، فماذا عن الطلاق؟

لقد أعطاني الاختيار، فأما أن أذهب إلى ماي- تان- فو، أو إنه سيقيم دعوى -

أوه، فهمت هذا -

وتغيرت لهجة تاونسيند قليلاً

أرى بأن هذا عرض مقبول إلى حد ما، أليس كذلك؟ -

مقبول؟ -

حسنًا، إنه موقف مرّن منه أن يذهب إلى هناك، إنه موقف ما كان سيروق لي. سيحصل -
على وسام لذلك طبعًا عندما يرجع.

:صاحت وصوتها يشي بالعذاب الكبير الذي تُعاني منه

لكن، ماذا عني يا شارلي؟ -

حسنًا، أرى أنه إذا أردك أن تذهبي تحت هذه الظروف، فلا أرى كيف يمكنكِ الرّفص تمامًا -

إن هذا يعني الموت، الموت المؤكّد -

أوه، اللعنة على هذا كله! إن هذا مبالغة إلى حد ما، ما كان ليأخذك لو أنه رأى ذلك، إنها -
مخاطرة له أكثر مما هي لك، وفي الحقيقة، ليس هناك خطر عظيم إذا كنتِ حذرة، لقد كنت هنا -
عندما كانت الكوليرا منتشرة - ولم تهز شعرة مني. إن الشيء الهام هو ألا تأكلي أي شيء غير
مطهي، لا فاكهة أو سلطة أو أي شيء من ذلك القبيل، وتأكدي من أن يكون ماء الشرب مغليًا

كان يستعيد ثقته بنفسه وهو يستمر بالكلام، وكان كلامه منطلقًا، وأصبح أقلّ تجهّمًا وأكثر
:مرحًا، أصبح خفيف الظل تقريبًا

بعد كل هذا، فهذا هو عمله، أليس كذلك؟ إنه مهتم بالبراغيث. إنها فرصة بالنسبة له إذا -
فكرت في هذا الأمر

وأعادت القول وهي لا تتعذب عذابًا أليمًا، بل وهي تشعر برعب عظيم

لكن، ماذا عني أنا يا شارلي؟ -

حسنًا، أفضل طريقة في فهم رجل هو أن تضعي نفسك في مكانه، فمن وجهة نظره، كنت -
أنتِ شيئًا صغيرًا متكبرًا إلى حد ما، وهو يريد أن يُبعدك عن طريق الضرر. لقد رأيت دائمًا بأنه
لن يرغب في أن يطلقك، ولم يخطر في بالي بأنه من ذلك النوع من الرجال، لكنه قدّم ما أرى بأنه
عرض كريم، لكنك أثرتِ حفيظته برفضك عرضه، لا أريد أن ألومك، لكنني أرى بأنك يجب أن
تعطي الأمر قليلًا من الاعتبار من أجلنا معًا

لكن ألا ترى بأن هذا سيقتلني؟ ألا تعرف بأنه يأخذني إلى هناك لأنه يعرف بأن هذا -
سيقتلني؟

أوه يا عزيزتي، لا تتكلمي بهذا الشكل، نحن في وضع سيئ لعين، وليس هناك متسع من -
الوقت لأن نكون ميلودراميين

- أنت تصر على عدم الفهم -

.أوه الألم في قلبها، والخوف، لو كان بإمكانها أن تصرخ

لا يمكنك أن ترسلني إلى موت محتم. إذا لم يكن لديك أي حب أو شفقة نحوي، فلا بد أن -
يكون لديك شعور إنساني عادي

أرى أن من الصعب عليّ إلى حد ما أن أصيغ الأمر على هذا النحو. إن زوجك يتصرف -
تصرفاً غاية في الكرم حسب ما أرى. إنه يريد أن يعفو عنك إذا أنتِ سمحتِ له بهذا. إنه يريد أن
يبعدك عن هنا وقد سنحت هذه الفرصة لأخذك إلى مكان ستكونين فيه بمنأى عن طريق الضرر
لمدة بضعة شهور. أنا لا أزعم أن ماي- تان- فو منتج صحي، ولم أعرف أبداً في حياتي مدينة
صينية كانت كذلك، لكن ليس هناك من داع لتفزعني لهذا. إن ذلك في الحقيقة أسوأ ما يمكنك فعله
حقاً، وأنا أعتقد أن عدد الذين يموتون من الخوف من وباء يساوي عدد الذين يموتون من
إصابتهم بهذا الوباء

- لكنني خائفة الآن، عندما تكلم ولتر عن السفر كاد يغمى عليّ -

- إنني أعتقد بأن هذا سيكون صدمة في اللحظة الأولى، لكنك حين تنظرين إلى الأمر بهدوء، -
ستكون حالتك جيدة. ستكون تجربة لن يُجبرها كل إنسان

...ظننت... ظننت -

اهتزت إلى الأمام وإلى الخلف بألم كبير، لم يتكلم، واكتسى وجهه مرة أخرى بالتجهم الذي لم
تعرفه أبداً إلا مؤخراً. لم تعد كيّتي تبكي الآن. كانت جافة العينين، هادئة، ومع أن صوتها كان
خفيضاً إلا أنه كان ثابتاً

- أتريد مني الذهاب؟ -

- إنه اختيار هوبسون(2)، أليس كذلك؟ -

اختيار هوبسون: اختيار في أن تأخذ الشيء المعروض عليك أو لا تأخذ شيئاً آخر (2)

- أهو كذلك؟ -

- إن من العدل أن أخبرك بأنني لن أكون في وضع يسمح لي أن أتزوجك إذا أقام زوجك -

-دعوى طلاق وريحها

بدا أن عمراً طويلاً قد مضى قبل أن ترد، نهضت واقفة على قدميها ببطء

.لا أظن أن زوجي فكر في إقامة دعوى للطلاق قط -

:سألها

- فلماذا بحق الرب ظللتِ تُخوفيني حتى أخرجتني عن وعيي؟ -

:نظرت له ببرود

- .كان يعرف بأنك ستتخلى عني -

صمتت، وبشكل غامض، وكما يحدث عندما تدرس لغة أجنبية وتقرأ صفحة لا تفهم منها في البداية أي شيء إلى أن تُعطي كلمة أو جملة مفتاحًا لك، ومض في عقلها المضطرب شك بالمعنى على نحو مفاجئ، بهذا الشكل الغامض مرت في خاطرها طريقة عمل عقل ولتر. كانت الفكرة كمنظر طبيعي يُنذر بالشر أظهره للعيان وميض برق ثم أخفاه الليل ثانية وفي لحظة. فارتعدت أمام ما رأيته.

لقد أطلق ذلك التهديد؛ لأنه كان يعرف بأنك ستتهار أمام هذا التهديد يا شارلي. من الغريب - أنه حكم عليك بهذه الدقة. لقد تصرف حسب طبيعته بتعريضي إلى مثل هذا التخلص بقسوة من هذا الوهم.

نظر شارلي إلى قطعة ورق النشاف أمامه. كان يعبس قليلاً وكان يقطب فمه، لكنه لم يحر جواباً.

كان يعرف بأنك مغرور وجبان وأناني التفكير. لقد أراد لي أن أرى هذا بأمر عيني. كان - يعرف بأنك ستهرب كأرنب بري عند اقتراب الخطر. وكان يعرف مدى انخداعي الشديد بالتفكير بأنك كنت تحبني؛ لأنه كان يعرف بأنك غير قادر على حب أي شخص إلا نفسك. كان يعرف بأنك ستضحى بي بلا وخزة ندم لكي تنفد بجلدك.

إذا كان يرضيك أن ترددي كلاماً عنيفاً لي، فإنني أرى أن ليس من حقي أن أشكو، فالنساء - دائماً غير منصفات، وهن قادرات على أن يضعن الرجال عامة في موضع الخطأ، لكن هناك أمر لا بد أن يُقال من جانب آخر.

:لم تهتم بمقاطعته

وها أنا أعرف ما عرفه. انني أعرف أنك قاسٍ وعديم القلب. إنني أعرف أنك أناني، أناني - إلى درجة تفوق الكلمات، وأنا أعرف أن ليس لديك شجاعة أرنب. أنا أعرف أنك كذاب ونصاب،

...أنا أعرف أنك حقير إلى أقصى مدى و الجانب المأساوي

:انقلب وجهها فجأة من الألم

والجانب المأساوي من الأمر هو أنني أحبك من كل قلبي بالرغم من كل هذا -

إكيتي -

أطلقت ضحكة مريرة. لقد ردد اسمها بتلك اللهجة الرقيقة المدللة التي تواتيه على نحو طبيعي
للغاية وتعني القليل جدًا

:قالت

.أنت أبله -

ارتد إلى الخلف بسرعة وقد احمرّ وجهه وبان عليه الغيظ، ولم يستطع أن يخرجها. أقلت
:عليه نظرة فيها بريق الاستهتار

لقد بدأت تكرهني، أليس كذلك؟ حسنًا، اكرهني. لن يُشكل هذا أي فرق بالنسبة لي -

:وبدأت ترتدي قفازها. سأل

- ماذا ستفعلين؟ -

.أوه، لا تخف، لن تتعرض لأي أذى. ستكون آمنًا تمامًا -

:أجاب وصوته العميق يوحى بالقلق

بحق الرب لا تتكلمي بهذه الطريقة يا كيتي، لا بد أن تعرفي بأن ما يعينك يعينني. سأكون -

بالغ القلق لكي أعرف ما سيحدث، ما الذي ستقولينه لزوجك؟

.سأخبره بأنني مستعدة للذهاب إلى ماي-تان-فو معه -

.ربما لن يلح عليك بالذهاب عندما توافقين -

لم يكن ليستطيع أن يعرف لماذا نظرت إليه بهذا الشكل الغريب عندما قال هذا

:سألها

- أنتِ لستِ خائفة حقًا؟ -

:قالت

لا، لقد ألهمتني الشجاعة. إن الذهاب وسط وباء الكوليرا سيكون تجربة فريدة، وإذا أنا مت -
.هناك، حسنًا، سأكون قد مت

.حاولت أن أكون لطيفًا معك بقدر الإمكان -

نظرت إليه ثانية و قفزت الدموع إلى عينيها ثانية، وكان قلبها مفعماً للغاية، وكان الدافع لأن ترمي بنفسها على صدره وتسحق شفتيها على شفتيه يكاد لا يُقاوم. لم يكن ثمة فائدة

:قالت وهي تحاول أن تُبقي صوتها هادئًا

إذا أردت أن تعرف، فإنني أذهب والموت في قلبي والخوف، إنني لا أعرف ما الذي في عقل -
.ولتر المظلم الملتوي، لكنني أرتجف من الرعب. إنني أرى الموت قد يكون حقًا خلاصًا لي

شعرت أنها لم تكن تستطيع أن تحافظ على سيطرتها على نفسها للحظة أخرى، فمشت بخفة
وسرعة نحو الباب وخرجت قبل أن يتسع وقته للتحرك من كرسيه، وأطلق تاونسيند تنهيدة
.ارتياح طويلة، وكان في حاجة ماسة إلى براندي وصودا

* * *

حين عادت إلى البيت كان وولتر موجوداً. كانت ترغب أن تذهب مباشرة إلى غرفتها، لكنه كان في الطابق السفلي، في الردهة، يُصدر أوامراً لأحد الصبية الخدم، كانت تعيسة جداً إلى درجة أنها رضيت بالمهانة الذي ستعرض نفسها لها. فتوقفت وواجهته

قالت:

- سأذهب معك إلى ذلك المكان -

- أوه، حسناً -

- متى تريد مني أن أكون مستعدة؟ -

- ليلة الغد -

لم تعرف أي روح شجاعة مصطنعة سيطرت عليها، كانت لا مبالاة كوخزة حربة. فقالت قولاً

أدهشها هي نفسها:

- أظن أنني لن أحتاج إلى أكثر من بضع ملابس صيفية وكفن، أليس كذلك؟ -

- كانت تراقب وجهه، فعرفت أن لا مبالاة أعضبته

- لقد أخبرت خادمك بما ستحتاجينه -

- أوامات برأسها وصعدت إلى غرفتها. كانت شاحبة جداً

* * *

وصلا إلى هدفهما أخيراً. لقد حُملا في محفتين يوماً بعد يوم وعلى ممر ضيق بين حقول أرز بلا نهاية. انطلقا في الفجر وسافرا إلى أن أجبرتهما حرارة النهار على أن يلتجئا إلى ملاذ في خان على جانب الطريق، ثم تابعا رحلتها ثانية إلى أن وصلا إلى المدينة حيث رتبا كيف سيقضون الليل. كانت محفة كيتي تتقدم الموكب ولتر يتبعها، ثم تبعهما الخدم يحملون لوازم نومهما ومؤونتهما ومعداتها في خط يشق طريقه بصعوبة. ومرت كيتي خلال الريف بعينين لا تريان شيئاً. لم يُقطع الصمت طوال الساعات الطويلة كلها إلا بملاحظة عرضية من أحد الحمالين أو بفقرة من أغنية غريبة، بينما كيتي تقلّب في ذهنها المعذب تفاصيل المشهد الساحق للفرّاد في مكتب شارلي، وقد أفرعها وهي تستعيد ما كان قد قاله لها وما قالت له، أن ترى حديثهما وقد تحول إلى حديث جذب وشبيه بحديث يتعلق بالأعمال. لم تقل ما كانت تريد قوله ولم تتكلم باللهجة التي نوت أن تتكلم بها. لو كانت قادرة أن تجعله يرى حبها اللامحدود، والعاطفة في قلبها وعجزها لما استطاع أن يكون لا إنسانياً إلى درجة أن يتركها لمصيرها. لقد أخذت على حين غرة. ما كان بإمكانها أن تصدق أذنيها حين أخبرها - وبأوضح العبارات - بأنه لم يكن يُبالي بها. لذلك السبب لم تبكي كثيراً جداً. فقد كانت مذهولة إلى درجة كبيرة، لقد بكت بعد ذلك. بكت بتعاسة.

في الليل وفي الخانات، وفيما هي تشترك مع زوجها في احتلال غرفة الضيوف الرئيسية عارفة أن ولتر يتمدد مستيقظاً على سريره السفري على بُعد بضعة أقدام منها، كانت تغرز أسنانها في المخدات حتى لا ينطلق أي صوت منها. لكنها كانت تسمح لنفسها في النهار - وستائر المحفة تحميها - أن تستسلم للبكاء. كان ألمها كبيراً جداً إلى درجة أنها لم تستطع أن تصرخ بأعلى صوتها. فلم تكن تعرف بأن أحداً يمكنه أن يُعاني إلى تلك الدرجة، فساءلت نفسها بيأس عما كانت قد فعلته لتستحق هذا. لم تستطع أن تكتشف لماذا لم يحبها شارلي. فكرت: إنها غلظتها، لكنها كانت قد بذلت أقصى جهدها لكي تجعله يغرم بها. لقد سارت أمورهما دائماً سيراً حسناً، فقد كانا يضحكان طوال الوقت الذي يقضيانه معاً. فلم يكونا محبين فقط، بل صديقين حميمين أيضاً. لم تستطع أن تفهم. لقد تحطمت، قالت لنفسها بأنها تكرهه وتحترقه، لكنها لم تكن لديها أي فكرة كيف كانت ستعيش إذا هي لم تكن ستراه ثانية. إذا كان ولتر سيأخذها إلى ماي -

تان- فو كعقاب لها، فإنه يضع نفسه موضع سخريّة، فما الذي يهّمها الآن مما سيؤول إليه مصيرها؟ لم يعد لديها أي شيء لتعيش من أجله. لقد كان من الصعب -إلى حد ما- أن تنتهي حياتها في سن السابعة والعشرين.

* * *

على السفينة التي أبحرت بهما إلى أعلى النهر الغربي واصل ولتر القراءة بلا انقطاع، لكنه كان يحاول - وعند وجبات الطعام - أن يتبادل نوعًا من الحديث. كان يكلمها كأنها غريبة صادفها أثناء الرحلة. فأخذ يتحدث إليها عن أمور غير ذات أهمية على سبيل المجاملة كما تخيلت كيتي، أو حتى يتمكن من أن يزيد من عمق الفجوة التي تفصل بينهما.

وبلمحة من بُعد نظر منها، كانت قد أخبرت شارلي بأن ولتر أرسلها إليه مع تهديد بالطلاق كبديل عن اصطحابها له إلى المدينة الموبوءة لكي ترى بأم عينها مدى لا مبالاة وجبن وأناية شارلي. لقد كان هذا صحيحًا. كانت حيلة تتفق تمامًا مع مزاجه الساخر. لقد كان يعرف بالضبط ما كان سيحدث، فأصدر لخدماتها التعليمات الضرورية قبل عودتها. لقد لمحت في عينيه ازدياد بدا أنه يشمل عشيقها بالإضافة إليها. لعله قال لنفسه بأنه لو كان في مكان تاونسيند لما منعه شيء في العالم من القيام بأي تضحية لتحقيق أصغر نزوة من نزواتها.

كانت تعرف بأن ذلك كان صحيحًا أيضًا. لكنها فكرت عندما تفتحت عيناها كيف يمكنه أن يجعلها تقدم على عمل محفوف بالمخاطر كهذا، عمل لا بد أنه يعرف بأنه يرعبها على نحو رهيب، فكرت في البداية بأنه كان يلهو بها فقط، فظلت تفكر بأنهما عندما ينطلقان في رحلتها، لا، بعد ذلك، عندما يغادران النهر ويستقلان المحفتين للانطلاق عبر الريف، سيطلق تلك الضحكة القصيرة المعهودة ويخبرها بأن لا داع لمجيئها. فليست لديها أقل فكرة عما يدور في ذهنه. إنه لا يمكن أن يرغب في موتها. فقد أحبها حبًا يائسًا جدًا. إنها تعرف ما الحب الآن. وتذكرت ألف علامة تدل على عبادته لها، فهي بالنسبة إليه - وحسب التعبير الفرنسي - تخلق جواً جميلاً وبشعاً. من المستحيل أنه توقف عن حبها. هل تتوقف عن حب شخص لأنك معاملته قاسية؟ لم تعذبه كما عذبت شارلي، ومع ذلك، فلو أن شارلي أشار إليها أي إشارة - وبالرغم من كل شيء - وحتى بالرغم من أنها عرفته الآن، فإنها كانت سترفض كل ما يقدمه لها لكي تطير إلى ذراعيه، وبالرغم من أنه ضحى بها ولم يبالي بها قط، وبالرغم من أنه كان قاسياً وعديم الرحمة إلا أنها تحبه.

في البداية فكرت بأن عليها فقط أن تنتظر الفرصة المناسبة، فولتر سيصفح عنها آجلاً أو عاجلاً، لقد كانت شديدة الثقة في تأثيرها عليه إلى درجة أن من الصعب أن تصدق أن هذا

التأثير قد انتهى إلى الأبد، فالكثير من المياه لا يمكنها أن تُطفئ الحب، إنه ضعيف إن هو أحبها، وشعرت بأنه لا بد أن يحبها. لكنها لم تكن الآن متأكدة تمامًا من هذا، وعندما يجلس في المساء يقرأ على كرسي مستقيم الظهر مصنوع من خشب أسود في الخان ونور مصباح الأعاصير على وجهه، كانت قادرة على مراقبته وهي غير متوترة، فتتمدد على الحشية التي تُفرد لتكوّن فراشها، وتكون هي في الظل. إن ملامحه المستقيمة المنتظمة تلك تجعل وجهه يبدو صارمًا جدًا. حتى إنك ما كنت لتصدق بأن من الممكن أن يتغير هذا الوجه في بعض المناسبات إلى ابتسامة عذبة. كان قادرًا على أن يقرأ بهدوء تام. كأنها كانت على بُعد ألف ميل عنه، فقد رآته يقلّب الصفحات ورأت عينيه تنتقلان بانتظام وهما تقفزان من سطر إلى آخر. لم يكن يفكر فيها، وحين تكون الطاولة قد أُعدت وجُلب الطعام كان يضع كتابه جانبًا ويلقي عليها نظرة سريعة دون أن يدري كيف كان الضوء يلقي على وجهه ملامح محددة- وقد فزعت لرؤيتها نظرة كراهية واضحة في عينيه. نعم، لقد أفرعها. هل من الممكن أن يكون حبه قد فارقه تمامًا؟ هل من الممكن أن يكون قد خطط حقًا لموتها؟ إن هذا سخيف. سيكون ذلك فعل رجل مجنون. كانت غريبة تلك الرجفة الطفيفة التي سرت في عروقها، وفكرة أن ولتر ربما لا يكون عاقلًا تمامًا. تخطر في بالها

* * *

فجأة أخذ حاملو محفتها الذين لزموا الصمت مدة طويلة يتكلمون، ثم التفت أحدهم إليها مردداً كلمات لم تفهمها ومشيراً إشارات لتجذب انتباهها. نظرت في الاتجاه الذي أشار إليه، فرأت على قمة التل قوساً، فعرفت الآن بأنه كان نُصباً يُحيي ذكرى عالمٍ محظوظ أو أرملة فاضلة، وقد مرت بالكثير منها منذ أن غادرت النهر، لكن هذا النصب، المرسوم ظله في مواجهة الشمس الغاربة، كان أجمل وأبهى من أي نُصب آخر كانت قد رآته. لكنه أثار في نفسها القلق دون أن تدرى سبب هذا، لقد أوحى إليها بمعنى شعرت به. لكنها لم تستطع أن تصوغه بكلمات، هل كان تهديداً ميزته بغموض أو كان سخيرية؟

كانت تمر بأشجار غاب، وكانت الأشجار تميل منحنية على الممر بشكل غريب كأن هذه الأشجار كانت ستحتجزها، وكانت أوراقها الخضراء الضيقة ترتجف قليلاً رغم أن الهواء كان ساكناً، أوحى إليها هذا بأن شخصاً كان يختبئ بين هذه الأشجار ويراقبها وهي تمر، ووصلوا الآن إلى سفح التل، وانتهت حقول الأرز وصعد الحمالون التل بخطى سريعة خفيفة. كان التل مكسوًا بكثافة بربوات خضراء تلتصق كل واحدة منها بالأخرى، فكانت الأرض مضلعة كرمل البحر عندما ينحسر عنه المد، وكانت تعرف هذا أيضاً فقد مرت ببقع كهذه وهم يقتربون من كل مدينة مأهولة ويغادرونها، لقد كانت المقبرة. وعرفت الآن لماذا لفت الحمالون انتباهها إلى الممر المقدس القائم على قمة التل. لقد وصلوا إلى نهاية رحلتهم

مروا من خلال الممر المقوس، وصمت حاملو المحفات لينقلوا عمود المحفة من كتف إلى كتف. مسح أحدهم وجهه المتفصد بالعرق بخرقه قدرة وتلوى الممر هابطاً. كانت هناك بيوت متسخة على جانبي الطريق. كان الليل يُرخي سدوله الآن، لكنَّ الحمالين انطلقوا فجأة في حديث منفعّل، واقتربوا من الجدار قدر ما استطاعوا ذلك بقفزة هزتها، وعرفت في لحظة ما الذي أفزعهم، فقد مر بالحمالين الواقفين هناك المثرثرين إلى بعضهم بعضاً أربعة فلاحين، سريعين وصامتين، حاملين تابوتاً جديداً غير مطلي وخشبه الجديد يتوهج أبيض في الظلام الموشك على الحلول. شعرت كيتي بقلبها يخفق برعب بين ضلوعها، مر التابوت، لكنَّ الحمالين وقفوا صامتين، بدا كأنهم لا يستطيعون أن يستجمعوا إرادتهم للاستمرار في السير، لكن صيحة انطلقت من الخلف ففزعوا، ولم ينطقوا الآن

ساروا لبضع دقائق، ثم استداروا بحدة داخلين بوابة مفتوحة، ووضعت المحفة على الأرض.
لقد وصلت

* * *

كان المسكن من نوع كوخ بنجالو، دخلت غرفة الجلوس وجلست بينما أحضر الحمالون أحمالهم وهم يشقون طريقهم إلى الداخل واحدًا تلو الآخر، وجههم ولتر وهو في الفناء مشيرًا إلى الاتجاه الذي سيوضع فيه هذا الشيء أو ذلك. كانت متعبة للغاية. أجفلت عندما سمعت صوتًا مجهولًا.

هل يمكن أن أدخل؟ -

احمرّت وشحبت. لقد كانت منهكة القوى مما جعلها عصبية لمقابلتها شخصًا غريبًا، وخرج رجل من الظلام، فقد كانت الغرفة الواطئة مضاعة فقط بمصباح مظل، ومد الرجل يده

.اسمي وادينجتون. إنني وكيل مفوض -

.أوه، الجمارك. أعرف هذا. لقد سمعت بأنك هنا -

كان بإمكانها أن ترى في ذلك الضوء المعتم أنه كان رجلًا ضئيلاً فقط، لا يزيد طوله عن طولها، وله رأس أصلع ووجه صغير أجرد

إنني أعيش أسفل ، ولم تروا بيتي لأنكم سلكتم الطريق الذي سلكتموه. لقد رأيت أنكما ستكونان متعبين للغاية فلا تستطيعان الحضور لتناول العشاء معي لذلك أمرت بإحضار العشاء إلى هنا، وقد دعوت نفسي كذلك

.إنني سعيدة لسماع هذا -

.ستجدين أن الطباخ ليس سيئًا، لقد استبقيت خدم واطسون لكما -

واطسون هو رجل البعثة التبشيرية الذي كان هنا؟ -

.نعم، رجل رائع جدًا. سأريك قبره غدًا إذا أردت -

:قالت كيتي مبتسمة

.كم أنت لطيف -

فى تلك اللحظة دخل ولتر، كان وادينجتون قد قدم نفسه له قبل أن يدخل ليرى كيتي. فقال:
الآن:

لقد كنت أرف إلى زوجتك خبر أنني سأتعشى معكما. منذ أن مات واطسون لم يعد هناك من -
أبدله الحديث سوى الراهبات، وأنا لا أستطيع أن أظهر كفاعتي في اللغة الفرنسية، بالإضافة إلى
أن هناك عددًا غير محدود من المواضيع فقط التي يمكنك الحديث عنها معهن

:قال ولتر

لقد أخبرت الصبي الخادم أن يحضر بعض الشراب -

أحضر الخادم ويسكي وصودا، ولاحظت كيتي أن وادينجتون يقدم الشراب لنفسه بسخاء. وقد
أوحى إليها أسلوبه في الكلام وقهقهته المنطلقة عندما دخل عليها أنه لم يكن صاحبًا تمامًا

:قال

هذا للحظ -

:ثم قال وهو يلتفت إلى ولتر

إن العمل مجهز لك هنا. إنهم يموتون كالذباب، وقد أضاع المسجل صوابه ويبدل العقيد يو -
قائد الجنود هنا- جهدًا شيطانيًا لمنعهم من السلب والنهب. وإذا لم يحدث شيء هنا قريبًا فإنا
سنقتل جميعًا في أسرتنا. لقد حاولت حمل الراهبات على الرحيل، لكن رفضن طبعًا، فكلهن يرد
أن يصبحن شهيدات، عليهن اللعنة

تكلم بخفة وخالط صوته نوع من ضحكة شبحية، حتى إنك لم تكن تستطيع أن تصغي إليه دون
أن تبتمس

:سأل ولتر

لماذا لم ترحل؟ -

حسنًا، لقد فقدت نصف الموظفين، أما الآخرون فمستعدون لأن يسقطوا ويموتوا في أي -
دقيقة، لا بد أن يبقى شخص ويحافظ على سير الأمور سيرًا حسنًا

هل أخذت اللقاح؟ -

نعم، أعطاني اللقاح واطسون وقد أخذه هو أيضًا. لكن ذلك لم يفد كثيرًا المتورط المسكين -

والتفت إلى كيتي وكان وجهه الصغير المضحك متعصنًا بمرح

لا أظن أن هناك مخاطرة كبيرة إذا أنت اتخذت الاحتياطات السليمة، اغلي حليبك وماءك ولا -

تأكلي الفواكه الطازجة أو الخضار غير المطهي. هل أحضرت معك أي أسطوانات للمسجل؟

:قالت كيتي

.لا، لا أعتقد هذا -

أنا آسف لذلك، كنت آمل أن تُحضري معك بعضها، فلم يكن لدي أي منها منذ وقت طويل، -
وقد مللت من أسطواناتي القديمة

دخل الصبي الخادم ليسألهم إذا كانوا سيتناولون العشاء

:سألها وادينجتون

لن تغيرا ملابسكما الليلة، أليس كذلك؟ لقد مات الصبي الخادم الخاص بي الأسبوع الماضي، -
والصبي الخادم الذي عندي الآن أبله، لذلك فإنني لا أغير ملابسني في المساء

:قالت كيتي

.سأذهب وأخلع قبعتي -

كانت غرفتها هي المجاورة للغرفة التي كانوا يجلسون فيها، وكانت لا تكاد تحوي أثاثًا،
وكانت الخادمة تركع على الأرضية وهي تُخرج أمتعة كيتي ومصباح إلى جوارها

* * *

كانت الحجرة صغيرة، تملأ الجزء الأكبر منها طاولة هائلة الحجم. وكانت على الجدران مشاهد محفورة من الإنجيل ونصوص مضاءة.

:أوضح وادينجتون

لدى البعثات التبشيرية دائماً طاولات موائد كبيرة، فهم يفسحون مكاناً أكبر كل سنة لكل طفل - ينضم إليهم، وهم يشترون طاولاتهم عندما يتزوجون بشكل يترك مكاناً لغرياء صغار.

تدلى من السقف مصباح بارفين كبير، فتمكنت كيتي من أن ترى أي نوع من الرجال كان وادينجتون. لقد خدعتها صلته فاعتقدت أنه لم يعد شاباً. لكنها رأت الآن أنه لا بد أن يكون أقل من الأربعين بكثير. كان وجهه الصغير تحت جبهة مستديرة عالية، غير مجعد ونضر اللون وقبيح كوجه قرد، لكنه قبيح قبحاً ليس خالياً من السحر، كان وجهاً مسلياً، لم تكن ملامحه وأنفه وفمه أكبر من ملامح وأنف وفم طفل، وكانت عيناه عينيْن صغيرتين زرقاوين صافيتين جداً. أما حاجباه فأشقران وخفيفان. بدا كفتى صغير مضحك، وظل يشرب حتى اتضح لهما أنه صار بعيداً جداً عن الصحو والعشاء يتقدم، لكنه إذا كان ثملاً فإنه يكون كذلك بلا عدوانية وبمرح كما عر سُرقت قربة النبيذ من راعيها النائم.

تكلم عن هونج كونج فلدنيه الكثير من الأصدقاء هناك، وكان يريد أن يعرف أخبارهم. كان قد سافر إلى هناك قبل سنة لمشاهدة السباق، وتكلم عن الخيل وأصحابها.

:ثم سأل فجأة

بالمناسبة، ماذا عن تاونسيند؟ هل سيصبح حاكم المستعمرة؟ -

شعرت كيتي بنفسها تتضرج احمراراً، لكن زوجها لم ينظر إليها.

:أجاب

لن أستغرب هذا -

إنه من النوع الذي لا يكف عن السعي إلى هذا -

:سأله ولتر

هل تعرفه؟ -

نعم، أعرفه تماماً، لقد سافرنا من الوطن مرة معاً -

ومن الجانب الآخر من النهر، سمعوا خفق الأجراس القرصية وقرقعة الصواريخ النارية، وهناك -وعلى مسافة قريبة منهم- تهجج المدينة العظيمة مرتعبة بينما يندفع الموت فجائياً وقاسياً خلال شوارعها الملتوية. لكن وادينجتون أخذ يتكلم عن لندن فتكلم عن المسارح، وكان يعرف كل المسرحيات التي تُعرض في تلك اللحظة. وأخبرهم عن المسرحيات التي شاهدها حينما كان في الوطن أخيراً وهو في إجازة. وضحك وهو يتذكر هذا الممثل الهزلي الرخيص، وتنهّد وهو يستعيد متأملاً جمال تلك النجمة في الكوميديا الموسيقية، وكان سعيداً لأنه كان قادراً على التباهي بأن ابن عم له تزوج من إحدى الشهيرات جدّاً، وكان قد تناول الغداء معها كما أعطته صورتها، وسيريتها لهما عندما يحضران ويتناولان العشاء معه في إدارة الجمارك.

نظر ولتر إلى ضيفه محديقاً ببرود وسخرية، لكنه لم يكن مسروراً منه في قليل أو كثير، وبذل مجهوداً ليُظهر اهتماماً مؤدباً في مواضيع كانت كيتي تعرف تماماً أنه لم يكن يعرف عنها شيئاً، وطافت على شفثيه ابتسامة طفيفة، لكن كيتي كانت مملوءة بالرهبة دون أن تعرف سبب هذا، فقد ظهروا -في بيت ذلك المبعوث التبشيري الميت القائم على مشارف المدينة الموبوءة-، ظهروا منعزلين عن العالم كله بشكل لا يمكن وصفه. ثلاثة مخلوقات منعزلون وغرباء عن بعضهم البعض.

انتهى العشاء، فنهضت عن الطاولة.

أتسمحان لي أن أتمنى لكما ليلة طيبة، ساوي إلى الفراش -

:أجاب وادينجتون

سأنصرف، فأنا أتوقع أن الدكتور يرغب في أن يأوي إلى الفراش أيضاً، فلا بد أن نخرج في -

ساعة مبكرة من صباح الغد.

صافح كيتي. كان متزناً تماماً وهو يقف على قدميه، لكن عينيه كانتا أكثر تألقاً من السابق.

:قال ولتر

سأحضر وأخذك لزيارة الحاكم والعقيد يو، ثم نتجه إلى الدير. سيكون عملك جاهزاً يمكنني -

قول هذا لك.

* * *

تعذبت ليلتها بأحلام غريبة، فقد بدا لها أنها حُملت في محفتها، وشعرت بالحركة المتأرجحة والحمالون يتحركون بخطواتهم الطويلة غير المنتظمة، فدخلت مدناً واسعة ومعتمة، حيث أحاطت بها الناس بأعين فضولية. كانت الشوارع ضيقة وملتوية وتوقف المارون في المحلات المفتوحة والمليئة بالبضائع الغريبة، عندما مرت هي، كما توقف المشترون والبائعون عن البيع والشراء، ثم وصلت إلى القوس التذكاري، فبدأت معالمه الخيالية تكتسب حياة وحشية فجأة، وأصبحت تضاريسه الغريبة غرابة النزوات كأذرع متموجة لإله هندوسي، وسمعت صدى ضحكة ساخرة عندما مرت تحته، لكن شارلي تاونسيند اقترب منها حينها وأخذها بين ذراعيه، رفعها عن المحفة وقال إن كل ذلك كان مجرد غطة، فهو لم يقصد أبداً أن يعاملها كما عاملها، فهو يحبها ولا يستطيع أن يحيا من دونها. شعرت بقبلاته على فمها وبكت من الفرحة، وهي تسأله لماذا كان قاسياً إلى هذا الحد، لكنها كانت تعرف بأن الأمر لم يكن ليهما بالرغم من سؤالها، ثم انطلقت صرخة فجائية خشنة وانفصلا، بينما مشى الحمالون بينهما مسرعين وصامتين بملابسهم الزرقاء الرثة وهم يحملون تابوتاً

.استيقظت مرعوبة

كان كوخ البنجالو قائماً وسط تل منحدر، رأت من نافذتها النهر الضيق تحتها والمدينة في الجهة المقابلة. كان الفجر قد بزغ الآن. وارتفع من النهر ضباب أبيض يغلف السفن الشراعية الصينية الراسية متلاصقة كحبات بازلاء في غلافها. كان هناك المئات من السفن، صامتة غامضة تحت ذلك الضوء الشبحي، فبتملكها إحساس بأن بحارتها يتمددون تحت تأثير السحر، فقد بدا أنه لم يكن النوم هو الذي ثبتهم ساكنين وصامتين بهذا الشكل، بل أن شيئاً غريباً ورهيباً هو الذي فعل هذا.

وتقدم الصباح، ولمست الشمس الضباب، فتألفت بيضاء كشبح ثلج على نجم يموت، ومع أن الضوء كان يضيء النهر مما يجعلك تميز خطوط السفن المزدحمة وغابة صواريخها تمييزاً غير دقيق، إلا أن جداراً متألّقاً لا تستطيع العين اختراقها كان في مقدمة النهر. لكن فجأة ظهر من تلك السحابة البيضاء حصن طويل كنيب وهائل الحجم. لم يبد أنه ظهر للعيان بسطوع الشمس الكاشفة عن كل شيء، بل بزغ إلى حد ما من لا شيء عند لمسة عصا سحرية، وقد ارتفع فوق

النهر كبرج مأوى لجنس بشري قاسٍ وهمجي. لكن الساحر الذي بنى ذلك العمل كله عمل بسرعة، فتوج الآن جزءاً من جدار ملون للحصن، وشوهدت مجموعة من سقوف خضراء وصفراء بعد لحظة وهي تخرج من الضباب وتبدو واسعة وقد لمسها شعاع أصفر من الشمس هنا وهناك، بدت هائلة الحجم ولم يكن بإمكانك أن تميز نموذجاً لها، وكان النظام -إذا كان هناك نظام- يفوتك، وكانت جامحة وهائلة، لكنها غنية غنى لا يمكن تصويره، لم يكن هذا الحصن قلعة، ولا معبداً، بل قصرًا سحرياً لإمبراطور من الآلهة لا يمكن لأي إنسان أن يدخله. كان واسعاً جداً وخيالياً وغير مادي إلى حد لا يجعل منه عملاً قامت به أيدي بشرية، بل نسيج حلم

سالت دموع كيّتي على وجهها، ونظرت وقد تشابكت يداها على صدرها وفمها مفتوح قليلاً، لأنها كانت مقطوعة الأنفاس، لم تشعر بخفة قلبها بهذا الشكل من قبل على الإطلاق، وبدت لها أن جسدها كان صدفة تستقر عند قدميها وأنها مجرد روح خالصة، هنا كان الجمال فأخذته كما يتناول المؤمن في فمه رقاقة الخبز التي هي الرب

* * *

منذ أصبح ولتر يخرج في الصباح الباكر ليعود عند الغداء فقط لمدة نصف ساعة، ولا يعود إلا عندما يكون العشاء جاهزاً، وجدت كيتي نفسها وحيدة تماماً، فلم تتزحزح من كوخ البنجالو لبضعة أيام، وكان الطقس حاراً للغاية، فقضت معظم الوقت مستلقية في كرسي طويل عند النافذة المفتوحة، تحاول أن تقرأ، وقد سلب نور منتصف النهار القاسي القصر السحري من غموضه، ولم يعد سوى مجرد معبد على سور المدينة، مبهرجاً ورث الهيئة، لكنه لم يكن مكاناً عادياً أبداً، بعد أن رآته ذات مرة في مثل هذه النشوة التي سيطرت عليها، وكثيراً ما كانت تجد نفسها قادرة على أن تستعيد شيئاً من ذلك الجمال مرة أخرى عند الفجر أو عند الغسق وفي الليل ثانية، وما بدا لها أنه حصن منيع لم يكن سوى سور المدينة، وعلى هذا السور الهائل والمعتم كانت تستقر عيناها باستمرار، وكان خلف فتحاته المخصصة للبنادق تمتد المدينة في قبضة الوباء الرهيب.

كانت تعرف -على نحو غامض- بأن أموراً رهيبة تجري هناك، ولم تعرف ذلك من ولتر الذي كان يجيبها عندما تسأله (فهو لا يتكلم إليها إلا نادراً إذا هي لم تتكلم إليه) باستخفاف مرح يبعث القشعريرة في عمودها الفقري، بل من وادينجتون ومن الخادمة. كان الناس يموتون بمعدل مائة شخص في اليوم، ونادراً ما كان يُشفى أولئك الذين كان يهاجمهم المرض. فأخرجت الآلهة من المعابد المهجورة ووضعوها في الشوارع، ووضعت أمامها القرابين وقدمت إليها الضحايا، لكن هذا لم يوقف الوباء، ومات الناس بسرعة هائلة، حتى إنه كان من المتعذر دفنهم، وفي بعض البيوت حُصدت الأسرة كلها فلم يبقَ أحد للقيام بمراسم الجنازة. كان الضابط قائد الجند رجلاً قوي الشخصية، فإذا لم تتعرض المدينة للفوضى وعمليات الحرق فذلك يعود إلى تصميمه؛ فقد أجبر جنوده على دفن أولئك الذين لم يكن هناك أحد ليدفنهم، حتى إنه أطلق النار بيده على ضابط تقاعس عن دخول بيت موبوء.

وكان الخوف يسيطر على كيتي أحياناً، إلى درجة أن قلبها كان يغوص في جوفها وترتجف أوصالها كلها. كان كل شيء على ما يرام إذا قلت إن الخطر طفيف، إذا أنت أخذت الاحتياطات المعقولة، لقد كانت فريسة للفرع. وقلّبت في ذهنها خطأً مجنونة للهرب، للابتعاد، مجرد أن تبتعد عن المنطقة، وكانت مستعدة لكي تنطلق كما هي وتشق طريقها وحدها إلى مكان آمن ودون أن يكون معها أي شيء إلا ما ترتديه من ملابس. فكرت أن ترمي بنفسها تحت رحمة

واديڃتون ذاكرة له كل شيء، مناشدة إياه كي يساعدها حتى تعود إلى هونج كونج. إذا هي رمت بنفسها على ركبتيها أمام زوجها، وأقرت له بأنها كانت خائفة، فلا بد أن يكون لديه ما يكفي من شعور إنساني ليرثي لها بالرغم من أنه كان يكرهها الآن.

إن هذا خارج الموضوع تمامًا. فإذا هي رحلت فإلى أين سترحل؟ ليس إلى أمها، فإن أمها ستظهر لها بوضوح بأنها أرادت أن تتخلص منها بعد أن زوجتها، إضافة إلى أنها لا تريد أن تسافر إلى أمها.

إنها تريد أن تذهب إلى شارلي وهو لا يريد. إنها تعرف ما سيقوله إن هي ظهرت فجأة أمامه. إنها ترى التجهم الذي سيكسو وجهه والقسوة اللاذعة خلف عينيه الساحرتين. سيكون من الصعب له أن يجد كلمات ذات وقع جيد. انقبضت يداها. كانت ستتنازل عن أي شيء في مقابل أن تذله كما أدلها. سيطر عليها أحياناً حماس دفعها أن تتمنى لو أنها تركت ولتر يطلقها، مدمرة نفسها إذا هي تمكنت من تدميره هو أيضاً. وعندما تتذكر أمور معينة كان قد قالها لها في السابق، كانت تتضرع خجلاً وعاراً.

* * *

حينما خلت إلى وادينجتون للمرة الأولى، أدارت دفعة الحديث حول شارلي، وكان وادينجتون قد تحدث عنه في مساء وصولهما، وتظاهرت بأنه لم يكن أكثر من أحد معارف زوجها فقط.

قال وادينجتون:

لم أهتم به كثيرًا، فقد اعتبرته مملًا دائمًا -

فأجابته كي تي بلهجة خفيفة ممزحة استطاعت أن تتخذها

لا بد أن من الصعب إرضاءك، فأنا أعتقد أنه أكثر الناس شعبية في هونج كونج -

أعرف هذا، فهذه بضاعته التي يتاجر بها، لقد ابتكر علم الشعبية، فليده موهبة دفع كل من يقابله الشعور بأنه الشخص الوحيد الذي يرغب في أن يراه في العالم، فهو مستعد دائمًا للقيام بخدمة لا تكلفه أي عناء، وحتى إذا هو لم يقم بما تريده فإنه يستطيع إثارة الانطباع في نفسك بأن ما تريده لم يتحقق لأنه فوق طاقة البشر

هذه ميزة رائعة بالتأكيد -

سحر، ولا شيء غير سحر يصبح أخيرًا مُتعبًا إلى حد ما، كما أظن. إن مما يبعث على الراحة حينها هو التعامل مع رجل ليس ظريفًا تمامًا بل مخلصًا قليلًا إلى حد ما. لقد عرفت شارلي تاوونسيند لسنين كثيرة، ورأيتة مرة أو مرتين وقد انحسر القناع عن وجهه، فأنا كما ترين لم أكن شخصًا مهمًا أبدًا، مجرد موظف صغير في الجمارك، وأنا أعرف بأنه لا يهتم في قرارة نفسه أدنى اهتمام بأي شخص في العالم إلا نفسه.

نظرت له كي تي وهي تسترخي في كرسيها بعينين مبتسمتين، وواصلت لف خاتم زفافها حول إصبعها مرارًا وتكرارًا.

سينجح طبعًا، فهو يعرف كل الحيل الرسمية، وأنا أو من بأني -وقبل أن أموت- سأخاطبه -

ببيا صاحب السعادة، وسأقف على قدمي عندما يدخل الغرفة

يرى معظم الناس أنه أهل للنجاح في مسعاه، فمن المفروض أنه على قدر عظيم من المقدرة.

مقدرة؟ يا له من هراء! إنه رجل غبي للغاية، إنه يثير في نفسك الانطباع بأنه يندفع في عمل وينتهيه بذكاء خالص، إنه ليس شيئًا من هذا القبيل، إنه مجتهد كأبي موظف كتابي أوروبي

.آسيوي

كيف اكتسب شهرة أنه ذكي؟ -

هناك الكثير من الناس السذج في العالم، فعندما يرفع رجل في منصب عالٍ الكلفة معهم - ويربّت على ظهورهم، ويُخبرهم بأنه يبذل كل جهد في العالم من أجلهم، فمن المحتمل طبعاً أن يروه ذكياً، وهناك زوجته طبعاً، وهي امرأة قديرة لو أرضاك هذا. فلها رأس جيد سليم ومشورتها دائماً جديرة بأن تُتبع، فطالما هي مع شارلي تاونسيند ليعتمد عليها، فهو بمأمن دائماً من أن يقوم بعمل أحمق، وذلك هو أول ما هو ضروري لرجل يتقدم في خدمة الحكومة ويترقى، فهم لا يريدون رجالاً أذكياً، فللأذكى أفكار، والأفكار تسبب المتاعب، إنهم يريدون رجالاً يتمتعون بسحر ولباقة، ويمكن الاعتماد عليهم في عدم ارتكاب أخطاء، أوه، نعم، سيصل شارلي تاونسيند إلى قمة الشجرة حقاً.

.إنني أتساءل عن سبب كراهيتك له -

.إنني لا أكرهه -

:وابتسمت كيتي وهي تقول

.لكنك تحب زوجته أكثر -

.إنني رجل صغير الشأن عتيق الطراز وأحب المرأة حسنة التربية -

.ليتها كانت حسنة الأناقة بقدر حُسن تربيتها -

.أليست أنيقة؟ لم ألاحظ هذا أبداً -

:قالت كيتي وهي تتفحصه من تحت أهدابها

.لقد سمعت دائماً بأنهما زوجان مخلصان -

.إنه مغرم بها للغاية، إنني أعترف له بتلك الصفة، وأنا أرى أن ذلك أفضل ما فيه -

.مديح بارد -

إن لديه مغازلات بسيطة، لكنها ليست جديّة، فهو أمكر من أن يجعلها تمتد إلى حدود قد -

تسبب له المتاعب، وهو ليس رجلاً عاطفياً طبعاً، إنه رجل مغرور، إنه يحب الاطراء، إنه سمين وفي الأربعين الآن، وهو يهتم بنفسه كثيراً، لكنه كان حسن المظهر عندما وصل إلى المستعمرة أول مرة، وكثيراً ما سمعت زوجته تمازحه عن نزواته

إنها لا تأخذ غرامياته بجديّة؟ -

أوه، لا، إنها تعرف، فهي لا تذهب بعيداً جداً، وتقول بأنها ترغب في أن تكون قادرة على أن -
تصاحب النساء الصغيرات المسكينات اللواتي يقعن في غرام شارلي، لكنهن يكن دائماً من
العوام، وتقول إنه ليس مُرضياً لها أن تكون النساء اللواتي يقعن في غرام زوجها نساء من
الدرجة الثانية ومن العوام إلى هذا الحد.

* * *

عندما ترك وادينجتون كيبي فكرت بما قاله بنوع من اللامبالاة، ولم يكن مما يسرها سماعه، وقد بذلت بعض المجهود حتى لا تُظهر مدى تأثرها، لقد كان أمرًا مريبًا أن ترى أن كل ما قاله كان صحيحًا. فقد كانت تعرف بأن شارلي كان غيبًا ومغرورًا ومتعطفًا للمنافقة. وتذكرت الرضى الذي بان عليه وهو يقص عليها قصصًا صغيرة للدلالة على ذكائه. وكان فخورًا بالمكر الرخيص. يا لمدى رخصها هي إذ أعطت قلبها بتلك العاطفة العميقة إلى رجل كهذا الآن، لأن له عينين رائعتين وقوامًا جميلًا. تمنيت أن تحتقره لأنها كانت تعرف أنها طالما شعرت نحوه بالكراهية فقط، فإنها ستكون قريبة جدًا من حبها له، إن الطريقة التي عاملها بها كانت يجب أن تفتح عينيها، ولقد كان ولتر يشعر نحوه بالاحتقار دائمًا، أوه، لو أنها استطاعت فقط أن تُخرجه من قلبها تمامًا، وهل مازحته زوجته عن افتتانها الواضح به؟

كانت دوروثي تود أن تصاحبها، لكنها وجدتها امرأة من الدرجة الثانية. ابتسمت كيبي ابتسامة خفيفة، يا للحنق الذي سيمتلك أمها لو عرفت بأن ابنتها اعتبرت كذلك.

لكنها حلمت به مرة أخرى في الليل. شعرت بذراعيه تضغطانها إليه بقوة، كما شعرت بعاطفة قبلاته الحارة على شفثيها. ما الذي يهم إذا كان سمينًا وفي الأربعين؟ ضحكت بحنان لأنه كان يهتم بهذا كثيرًا جدًا، وأحبته أكثر لغروره الطفولي، كما كان يمكنها أن تأسف من أجله وتواسيه، وعندما استيقظت كانت الدموع تنهمر من عينيها. لم تعرف لماذا بدا لها الأمر مأساويًا لأنها بكت أثناء نومها.

* * *

كانت ترى وادينجتون كل يوم، فقد كان يصعد التل ماشياً ببطء وهو يتجه نحو كوخ البنجالو الخاص بأسرة فاين عندما ينتهي عمله. وهكذا توطدت علاقة بينهما بعد أسبوع، علاقة ما كانا سيبيلغانها في ظل ظروف أخرى خلال سنة واحدة، وعندما قالت له ذات مرة بأنها لم تكن تعرف: ما كانت ستفعله من دونه، أجابها ضاحكاً

كما ترين أنتِ وأنا الشخصان الوحيدان هنا واللذان يمشيان بهدوء تام وسلام على أرض - صلبة. فالراهبات يمشين في السماء وزوجك في الظلام

ومع أنها أطلقت ضحكة لا مبالية، إلا أنها تساءلت عما يقصده، وشعرت بعينيه المرحتين الصغيرتين الزرقاوين تتفحصان وجهها بانتباه ودي ولكنه مقلق. فقد اكتشفت بأنه كان خبيثاً، وشعرت بأن العلاقة بينها وبين ولتر تثير فيه فضولاً كفضول الكلاب، وقد وجدت متعة معينة في أن تحيره. كانت تميل إليه وكانت تعرف بأنه يتخذ موقفاً ودياً منها. لم يكن ذكياً جداً ولا ماهراً، لكن لديه طريقة جافة وجارحة في عرض الأمور التي تسليها، كما كان وجهه المضحك والصبياني، تحت تلك الجمجمة الصلعاء وقد تجعد كله من الضحك يُضفي على ملاحظاته أحياناً تهريجاً مفرطاً. لقد عاش لسنوات عديدة في أماكن نائية دون أن يكون هناك واحد من بني جنسه ليتحدث إليه، فتطورت شخصيته في جو من حرية شاذة، فغلبت عليه النزوات وغرابة الأطوار. وكانت صراحته منعشة، وبدا أنه ينظر إلى الحياة بروح مداعبة، وكانت سخريته من المستعمرة في هونج كونج لأذعة، لكنه كان يسخر من الموظفين الصينيين في ماي- تان- فو أيضاً ومن الكوليرا التي أهلكت معظم المدينة، ولم يكن بوسعه أن يقص قصة مأساوية أو قصة بطولية دون أن يجعل منها قصة سخيفة قليلاً، وكان لديه الكثير من الحكايات عن مغامراته خلال عشرين سنة في الصين، فتستنتج منها بأن الأرض مكان غرائبي وعجيب ومثير للسخرية جداً

وبالرغم من أنه أنكر أنه كان عالماً صينياً - فقد أقسم بأن علماء اللغة والآداب الصينية مجانيين كأرانب المستنقعات-، إلا إنه كان يتكلم اللغة الصينية بسهولة. وكان يقرأ قليلاً، وقد تعلم ما يعرفه من الحديث، لكنه غالباً ما قص على كيتي قصصاً من الروايات الصينية ومن التاريخ الصيني. وبالرغم من أنه كان يقص تلك القصص بخفة مازحة كانت من طبيعته إلا إنها كانت ذات روح مرحة ورقيقة. فبدا لها بأنه ربما تبني -وبلا وعي منه- وجهة النظر الصينية القائلة

بأن الأوروبيين برابرة وأن حياتهم حماقة، فالحياة في الصين وحدها كانت تسير على النحو الذي يجعل الإنسان العاقل يميز فيها نوعاً من الواقعية. فها هنا طعام للفكر. فلم تسمع كيتي من قبل أحداً يصف اللغة الصينية إلا بالانحلال والقذارة وأنها لغة لا يمكن الكلام بها، وبدا كأن ركناً من ستارة قد رُفِع للحظة، فرأت بلمحة سريعة عالماً غنياً بلون ومعنى لم تحلم بهما من قبل.

جلس هناك متحدثاً وضاحكاً وهو يشرب.

قالت له كيتي بجرأة:

ألا ترى بأنك تشرب كثيراً جداً -

أجاب:

إنها متعتي الكبرى في الحياة، بالإضافة إلى أنه يُبعد عني الكوليرا -

وعندما غادرها كان ثملاً بشكل عام، لكنه كان يتحمل الشراب بشكل جيد، فهو يجعله مهرجاً دون أن يكون منفراً.

وذات مساء حضر ولتر مبكراً عن مواعده فطلب منه أن يبقى للعشاء، ووقع حادث غريب، فقد تناولوا الحساء والسّمك ثم قدّم الصبي لكيتي سلطة طازجة خضراء مع الدجاج.

صاح وادينجتون وهو يراها تتناول بعض السلطة:

يا للرب الرحيم، لن تأكلي هذا -

قال ولتر:

إن زوجتي تحبها -

وقدم الباقي إلى وادينجتون لكنه هز رأسه:

شكراً لكما، لكنني لا أفكر في الانتحار بعد -

ابتسم ولتر بكآبة وتناول بعض السلطة، ولم يقل وادينجتون شيئاً بل أصبح في الحقيقة واجماً بشكل غريب، وغادرهما بعد العشاء مباشرة.

كان صحيحاً أنهما يأكلان السلطة كل ليلة، فبعد يومين من وصولهما، أدخل الطباخ سبلا مبالاة الصينيين - السلطة إلى غرفة الطعام، فتناولت كيتي بعضها بلا تفكير، فمال ولتر إلى الأمام بسرعة:

يجب ألا تأكلي ذلك. مجنون هذا الصبي لتقديمه لها -

:سألت كيتي وهي تنظر في وجهه تمامًا

- ولمَ لا؟ -

- إن هذا خطير دائمًا، إنه جنون الآن. ستقتلين نفسك -

:قالت كيتي

- اعتقدت أن تلك كانت الفكرة -

وراحت تأكل بهدوء. لقد سيطرت عليها روح شجاعة لم تعرف طبيعتها. وراقبت ولتر بعينين ساخرتين، وظننت أنه شحب قليلاً، لكنه تناول بعض السلطة حين قُدمت له. وبعد أن رأى الطباخ أنهما لم يرفضاها أخذ يقدم إليهما بعضاً منها كل يوم، فأخذا يأكلان منها كل يوم مغازلين الموت. لقد كان من البشع مواجهة خطر كهذا. فكانت كيتي تتناول السلطة والرعب من الإصابة بالمرض يسيطر عليها، وهي لا تشعر فقط أنها بعملها هذا كانت تنتقم لنفسها بخبث من ولتر فحسب، بل كانت تسخر من مخاوفها اليائسة نفسها أيضاً

* * *

وفي اليوم التالي لهذا العشاء سأل وادينجتون كيتي حينما زار كوخهما بعد الظهر وجلس معها قليلاً، إن كانت ستخرج معه في نزهة على الأقدام، ولم تكن قد خرجت من المجمع منذ وصولهما، فأبهجتها دعوته.

قال:

- أخشى ألا يكون هناك الكثير من أماكن التنزه، لكننا سنصعد إلى قمة التل -

- أوه، نعم حيث يقع الممر القوسي. لقد رأيتك كثيراً من الشرفة -

فتح لهما أحد الصبية الخدم باباً ثقيلاً، فمشيا خارجين إلى الزقاق المترّب. ومشيا بضع ياردات، ثم أطلقت كيتي صرخة فزعة وهي تقبض على ذراع وادينجتون

- انظر -

- ما الأمر؟ -

فعدت أسفل السور الذي يُحيط بالمجمع، كان رجل مستلقياً على ظهره، وساقاه ممدودتان، وذراعه على رأسه، وكان يرتدي الخرق الزرقاء المرقعة، وتعلو رأسه كتلة شعر المتسولين الصينيين.

شبهت كيتي:

- يبدو كأنه ميت -

- إنه ميت. هيا. الأفضل أن تنظري إلى الجهة الأخرى. سأمر بنقله عندما نعود -

لكن كيتي كانت ترتجف بعنف حتى إنها لم تستطع أن تتحرك

- لم أر ميتاً من قبل -

- الأفضل أن تتعودين بسرعة على هذا إذن، لأنك ستريين الكثير منهم قبل أن تنتهي من هذه -

البقعة البهيجة.

أمسك بيدها، وسحبها تحت ذراعه، وسارا مسافة قصيرة بصمت

قالت أخيراً:

- هل مات من الكوليرا؟ -

.أعتقد هذا -

سارا يصعدان التل، إلى أن بلغا الممر القوسي. كان غنياً بالنقوش. خيالياً وساخرًا انتصب كعلاقة مميزة في المنطقة الريفية المحيطة بهم. جلسا على قاعدته مواجهين السهل الواسع. وكان التل قد زرع قرب ربوات الموتى الخضراء، لا بخطوط منتظمة بل بفوضى، حتى إنك كنت تشعر أن النباتات تدفع بعضها بعضًا بالمناكب تحت سطح الأرض. وتلوى الممر الضيق متعرجًا بين حقول الأرز الخضراء، وجلس صبي صغير على عنق جاموس الماء يقوده ببطء صوب بيته، بينما سار ثلاثة فلاحين يرتدون قبعات قش عريضة بخطوات جانبية متراخية تحت أحمالهم الثقيلة، وبعد حرارة النهار، كان مما يُبهج في تلك البقعة أن يتنسم الإنسان نسمة المساء الخفيفة، وأشاع امتداد الأرض الريفية الواسعة شعورًا بكآبة مريحة في القلوب المعذبة. لكن كيتي لم تستطع أن تبعد عن ذهنها المتسول الميت.

:وسألت فجأة

كيف يمكنك أن تضحك وتشرب الويسكي والناس يموتون حولك في كل مكان؟ -

لم يرد وادينجتون، استدار ونظر إليها، ثم وضع يده على ذراعها

:قال بجدية

أتعرفين؟ إن هذا ليس مكانًا مناسبًا لامرأة، لماذا لا ترحلين؟ -

ألقت عليه نظرة جانبية سريعة من تحت أهدابها الطويلة، ولاح على شفيتها ظل ابتسامة

.كان يجب أن أفكر في هذه الظروف بأن مكان الزوجة هو إلى جوار زوجها -

عندما أرسلوا برقية بأنك قادمة مع فاين، دُهشت! لكن خطر في بالي بأنك ربما كنت -

ممرضة أو شيئاً من هذا القبيل المتعلق بالعمل اليومي. لقد توقعت أن تكوني واحدة من تلك

النساء المتجهومات الوجه اللواتي يدفعنك إلى العيش عيشة كلب حين تكون مريضاً في

المستشفى. كان يمكنك أن تطرحيني أرضاً بريشة طير عندما دخلت كوخ البنجالو، ورأيتك

.تجلسين وتستريحين، فقد كنت هشة جداً وبيضاء ومتعبة

.ما كنت تتوقع مني أن أبدو في أحسن حال بعد تسعة أيام على الطريق -

وأنتِ تبدين هشة وبيضاء ومتعبة الآن، وتعيسة إلى درجة اليأس أيضاً إذا سمحت لي أن -

.أقول هذا

احمر وجه كيتي، فهي لم تتمالك نفسها من أن تحمرّ على ذلك النحو، لكنها كانت قادرة على أن تطلق ضحكة بدت مرحلة إلى حد ما.

أنا أسفة لأنك لا تحب ملامحي، إن السبب الوحيد لظهوري بمظهر التعيسة هو أنني كنت - على وعي منذ كنت في الثانية عشر من عمري بأن أنفي طويل قليلاً، لكن نفاذ حزن خفيّ هو أكثر المظاهر تأثيراً في النفوس. أنت لا تتصور من بلغ عدد الشباب اللطفاء الذين أرادوا مواساتي.

استقرت عينا وادينجتون الزرقاوان اللامعتان عليها، فعلمت أنه لم يصدق كلمة مما قالته، ولم تكن تهتم بذلك طالما ظل يتظاهر بأنه صدقها.

إنني أعرف أنك لم تتزوجي منذ وقت طويل، لكنني توصلت إلى استنتاج أنكِ وزوجكِ - متحابان حباً جنونياً. لم أصدق أنه طلب منك أن تأتي، بل أنت التي ربما رفضت رفضاً قاطعاً أن تتركيه.

:قالت بخفة

- هذا تفسير معقول للغاية -

- نعم لكنه ليس التفسير الصحيح -

انتظرت أن يكمل كلامه، وهي خائفة مما كان على وشك أن يقوله، فهي على معرفة كاملة بخبثه، كما كانت واعية بأنه لا يتردد أبداً في التعبير عما في ذهنه، لكنها لم تكن قادرة على مقاومة رغبتها في أن تسمعه يتحدث عنها.

لا أعتقد للحظة واحدة أنك تحبين زوجكِ. أظن أنك لا تميلين إليه، ولن أندesh إذا كنت - تكرهينه، لكنني متأكد من أنك تخافينه.

وأشاحت بوجهها لحظة، لم تكن تريد أن تترك وادينجتون يرى بأن ما قاله أثر عليها.

:فقالت بسخرية باردة

- عندي شك أنك لا تحب زوجي كثيراً -

إنني أحترمه، فقد أوتي العقل والشخصية وذلك تكوين غير عادي تماماً إذا أمكنني قول هذا - لك، لا أظن أنك تعرفين ما يفعله هنا، فهو لا يُسهب في الحديث معك عن نفسه كما أرى. فإذا كان بمقدور أي رجل ان يضع حداً لهذا الوباء المخيف وحده، فهو سيضع حداً له، إنه يعالج

المرضى، ويُطهر المدينة، محاولاً تنقية مياه الشرب. إنه لا يُبالي إلى أين يذهب ولا ماذا يفعل، إنه يُخاطر بحياته عشرين مرة في اليوم. لقد وضع العقيد يو في جيبه، وأقنعه أن يضع الجنود تحت تصرفه، وقد بث قليلاً من الشجاعة حتى في نفس الحاكم، حتى إن العجوز يحاول حقاً أن يقوم بأي شيء، والراهبات في الدير يقسمن به، إنهن يجدنه بطلاً

- ألا تراه أنت كذلك؟ -

بعد كل هذا، إنها ليست مهنته، أليس كذلك؟ إنه عالم بكتيريا، ولم توجه إليه دعوة للحضور - إلى هنا، وهو لا يُثير فيَّ انطباعاً بأنه انتقل إلى هنا شفقةً بهؤلاء الصينيين الذين يموتون. كان واطسون مختلفاً عنه. فقد كان يحب الجنس البشري، وبالرغم من أنه كان مبشراً إلا إنه لم يكن يفرق بين مسيحي أو بوذي أو كونفشيوسي، فقد كانوا كلهم مجرد مخلوقات بشرية، لكن زوجك لم يحضر إلى هنا لأنه يهتم أدنى اهتمام لو مات مائة ألف صيني من الكوليرا، وهو لم يحضر إلى هنا أيضاً شغفاً بالعلم. لماذا حضر إلى هنا؟

- الأفضل أن تسأله -

يسعدني أن أراكما معاً، وأنا أتساءل أحياناً كيف تتصرفان عندما تكونان على انفراد، فعندما أكون بينكما فأنتما تمثالان، أنتِ وهو، تمثالان تمثيلاً سيئاً وحق جورج! ما كان أي منكما سيحصل على ثلاثين شلناً في الأسبوع في فرقة تمثيل متجولة إذا كان ذا أقصى ما تستطيعان من تمثيل

ابتسمت كيتي وهي تحافظ على مظهر الاستخفاف الذي كانت تعرف بأنه لا يخدع أحداً، ثم قالت:

- أنا لا أعرف ما تعنيه -

أنتِ امرأة جميلة جداً. من الغريب ألا ينظر اليكِ زوجك، فعندما يتكلم معكِ فإن صوته يبدو - كأنه ليس صوته بل صوت شخص آخر

:سألته كيتي في صوت خافت للغاية ومتحشرج وقد ألفت عنها فجأة استخفافها

- أعتقد أنه لا يحبني؟ -

لا أعرف، إنني لا أعرف إذا كنتِ تثيرين في نفسه نفوراً يجعل جسده يقشعر عند اقترابه - منك، أو إن كان يحترق من حب لن يسمح لنفسه أن يُظهره لسبب من الأسباب. لقد سألت نفسي! إذا كنتما قد حضرتما إلى هنا لتنتحرا؟

لاحظت كيتي النظرة الفرعة، ثم النظرة المتفحصة اللتين ألقاهما وادينجتون عليهما عندما وقع حادث السلطة.

قالت باستخفاف:

- أعتقد أنك تعطي أهمية كبيرة لبضع ورقات من الخس -

ثم نهضت واقفة:

- هل سنرجع إلى البيت؟ لأتأكد من أنك تريد كأس ويسكي وصودا -

- أنت لست بطلة على أي حال. أنت خائفة حتى الموت. هل أنت متأكدة من أنك لا تريدين -

الرحيل؟

- ما شأنك أنت بهذا؟ -

- سأساعدك -

هل ستسقط أمام نظرة الأسي الخفية في نفسي؟ انظر إلى بروفيل وجهي وقل لي إذا لم يكن -

أنفي طويلاً قليلاً.

حدق إليها متأملاً، وتلك النظرة الخبيثة الساخرة في عينيه اللامعتين، لكنها نظرة يمتزج بها ظل، كشجرة على حافة نهر سقط انعكاسها في الماء، تعبير عطف فردي. أثار هذا التعبير دموغاً فجائية في عيني كيتي.

- هل يجب أن تبقى هنا؟ -

- نعم -

وعبراً تحت الممر القوسي زاهي الألوان، وهبط التل، وعندما وصلا إلى المجمع شاهدا جثة الشحاذ الميت. أخذ يدها، لكنها أفلتتها ووقفت ساكنة.

- إنه رهيب، أليس كذلك؟ -

- ما هو؟ الموت؟ -

نعم، إنه يجعل كل شيء آخر يبدو تافهًا جدًا، إنه لا يبدو إنسانًا الآن عندما تنظر إليه، - يصعب أن تقنع نفسك بأنه كان على قيد الحياة في أي وقت من الأوقات. من الصعب أن تفكر أنه كان منذ سنين عديدة جدًا مجرد صبي صغير يهبط التل عدوًا ويطيّر طائرة ورقية.

ولم تستطع أن تقاوم النشيج الذي خنقها.

* * *

بعد بضعة أيام وبينما كان وادينجتون يجلس مع كيتي وكأس ويسكي بالصودا طويلة بين يديه، راح يتكلم إليها عن الدير فقال:

إن الأم الرئيسة امرأة رائعة، وتقول لي الأخوات الراهبات بأنها تنتمي إلى واحدة من أعظم الأسر في فرنسا، لكنهن يرفضن أن يُخبروني أي أسرة هي، فهن يقلن بأن الأم الرئيسة لا ترغب في الكلام عن هذا.

:ابتسمت كيتي

- لماذا لا تسألها إذا كان هذا يهمك؟ -

- لو كنت تعرفينها؛ لأدركت أن من المستحيل أن تسألها سؤالاً طائشاً -

- بالتأكيد إنها لرائعة إذا هي استطاعت أن تثير في نفسك الخوف -

إنني أحمل منها رسالة إليك. فقد طلبت مني أن أقول بأنها ستسعد سعادة عظيمة إذا لم تمنعي في أن تُريك الدير، مع أنك قد لا ترغبين في أن تخاطري في الدخول إلى مركز الوباء

- إنه لطف زائد منها. ما خطر ببالي أنها تدري بوجودي -

لقد تكلمت عنك، فأنا الآن أذهب إلى هناك مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. لأرى إذا كان هناك أي عمل أستطيع القيام به، وأنا متأكد أن زوجك أخبرهم عنك. ولا بد أن تجهزي نفسك لأن تكتشفي أنهم يشعرون نحوك باعجاب لا حد له.

- هل أنت كاثوليكي؟ -

:تألفت عيناه الماكرتان وتغضن بالضحك وجهه الصغير الغريب. سألته كيتي

- لماذا تبسّم لي؟ -

هل يمكن أن يخرج من الجليل شيء صالح؟ لا، أنا لست كاثوليكيًا، إنني أصف نفسي كعضو من كنيسة إنجلترا، وهي كما أعتقد طريقة مؤدبة للقول بأنك لا تؤمن بأي شيء كثيرًا جدًّا، عندما حضرت الأم الرئيسة هنا قبل عشر سنوات فانت. أحضرت معها سبع راهبات ماتوا كلهن ما عدا ثلاث فقط. أتعلمين، حتى في أفضل الأوقات لا تكون ماي- تان- فو ملجأً صحيًا. إنهن يعشن في وسط المدينة تمامًا، في أفقر منطقة، وهن يشتغلن بجهد مُضنٍ ولا يتمتعن بإجازة

- لكن هناك ثلاث راهبات فقط والأم الرئيسة الآن؟ -

أوه، لا، فقد حلت محلهن راهبات أخريات. هناك ست راهبات الآن، وعندما ماتت واحدة من -
الكوليرا في بداية الوباء، جاءت راهبتان أخريان من كانتون

:ارتجفت كيتي قليلاً

- هل تشعرين بالبرد؟ -

- لا، إن شخصاً ما مشى فوق قبوري فقط -

عندما يغادرن فرنسا فإنهن يغادرنها إلى الأبد. إنهن لسن كالمبشرين البروتستانت الذين -
يحصلون على عطلة لمدة سنة من وقت إلى آخر، وأنا أرى دائماً أن ذلك أصعب ما في حياتهن.
نحن الإنجليز لا نرتبط ارتباطاً قوياً جداً بالأرض، فنحن نشعر بأننا في وطننا في أي جزء من
العالم، لكنني أرى أن الفرنسيين يرتبطون ببلادهم برباط يكاد أن يكون مادياً. فهم لا يشعرون
بالراحة أبداً عندما يكونون خارجها، ويبدو لي دائماً أن المؤثر جداً أن تقدم هذه النساء على
تلك التضحية. أعتقد أنني لو كنت كاثوليكيةً لبدأ لي الأمر طبيعياً جداً

نظرت كيتي له ببرود. لم تفهم تماماً العاطفة التي يتكلم بها الرجل الضئيل، وقد سألت نفسها
ما إذا كان هذا موقفاً مفتعلاً. فقد شرب الكثير من الويسكي وربما لم يكن مفيقاً تماماً

:قال بابتسامته الساخرة وهو يقرأ ما يدور في ذهنها بسرعة

- تعالي وانظري بنفسك. إنه ليس خطراً جداً إلى درجة خطورة أكل الطماطم -

- إذا لم تكن أنت خائفاً، فليس هناك سبب يدعوني لأن أخاف -

- أعتقد أنها ستسليكي. إنها قطعة صغيرة من فرنسا -

* * *

عبرا النهر في قارب سامبان صيني، وكانت هناك محفة في انتظار كيتي عند خشبة الرسو، فحُملت صاعدة التل صوب بوابة الماء، ومن هذه البوابة كان الحمالون الصينيون يحضرون لجلب الماء من النهر وهم يهرولون جيئةً وذهابًا بدلانهم المتدلية من النير على أكتافهم، ناثرين الماء على الممر فيبتل تمامًا كأن مطرًا غزيرًا هطل عليه، وصاح حمّالو كيتي صيحات قصيرة حادة على حمالي الماء يحثونهم على إخلاء الطريق.

قال وادينجتون وهو يمشي بجوارها

إن كل الأعمال متوقفة طبعًا الآن، لكن في الظروف العادية كان عليك أن تشقي طريقك - بالقوة بين الحمالين وهم يحملون حمولاتهم صعودًا وهبوطًا متجهين إلى السفن الشراعية الصينية.

كان الشارع ضيقًا ومتعرجًا، حتى إن كيتي فقدت الشعور بكل اتجاه كانت تتجه إليه. كان الكثير من المحال مغلقًا. وكانت قد عودت في رحلتها الصاعدة نحو الدير على قذارة الشارع الصيني، لكن النفايات والقمامة هنا كانت قد انتشرت منذ أسابيع، وكانت الرائحة الكريهة مريعة إلى درجة أنها اضطرت إلى أن تضع منديلها على وجهها. وخلال مرورها في المدن الصينية كانت تنزعج من تحديق المواطنين فيها، لكنها لاحظت الآن أنه لم يرمقونها بأكثر من نظرات سريعة لا مبالية. فقد بدا المارة المتفرقون بدلًا من تجمعهم كعادتهم منهمكين في شؤونهم الخاصة، فقد كانوا خائفين وقلقين، وسمعا بين الحين والآخر وكلما مرا ببيت من البيوت - قرع أجراس قرصية وصراخ ندب مكتوم لأدوات مجهولة خلف تلك الأبواب المغلقة كان يرقد ميت.

قال وادينجتون أخيرًا

ها نحن وصلنا -

وضعت المحفة عند فتحة باب صغير، يعلوه صليب في جدار أبيض طويل، فنزلت كيتي من المحفة، ورن الجرس.

لا تتوقعي وجود أي شيء عظيم جدًّا، كما تعرفين فهن فقيرات بشكل بائس -

فتحت الباب فتاة صينية، وبعد أن خاطبها وادينجتون بكلمة أو كلمتين، قادتهما إلى غرفة على جانب الممر الداخلي، اشتملت الغرفة على طاولة كبيرة مغطاة بمشمع ذي نقوش مربعة،

وتراصت حول الجدران مجموعة من الكراسي الصلبة، وفي أحد أطراف الغرفة تمثال من الجبس للعدراء المباركة، ودخلت بعد لحظة راهبة قصيرة وممتلئة، لها وجه هادئ ووجنتان حمراوان وعينان مرحتان. دعاها وادينجتون -وهو يقدم كيتي لها- بالأخت القديس جوزيف.

:سألت بالفرنسية وهي تشع حيوية

هذه زوجة الطبيب؟ -

ثم أضافت بأن الأم الرئيسة ستتنضم إليهما على الفور

لم يكن بوسع الأخت القديس جوزيف أن تتكلم الإنجليزية، وكانت فرنسية كيتي عرجاء، لكن وادينجتون بلغته المنطلقة وغير الدقيقة واصل إطلاق تعليقه المرح الذي هز الراهبة المرحمة وأطلق ضحكاتها.

وأدهش كيتي ضحك الراهبة المنطلق، فقد كانت لديها فكرة أن المتدينين صارمون دائماً، فأثر عليها هذا المرح الطفولي العذب.

* * *

فُتح الباب بطريقة بدت لخيال كيتي غير طبيعية تمامًا، فقد فُتح كأنه يتأرجح على مفصلاته، ودخلت الأم الرئيسة باب الحجرة وهي تنظر إلى الأخت الضاحكة ووجه وادينجتون المتغضن المازح، ثم تقدمت ومدت يدها لكيتي.

:قالت بلغة إنجليزية بها لكنة واضحة للغاية، لكنها سليمة النطق ثم انحنت شبه انحناءة

:السيدة فاين؟ إنه لسرور عظيم لي أن أتعرف على زوجة طبيبنا الشجاع -

وشعرت كيتي بأن عيني الأم الرئيسة شملتها بنظرة تقييم طويلة غير مرتبكة. لقد كانت صريحة جدًا إلى حد لم يتجاوز التهذيب فتشعر أن أمامك امرأة مهمتها أن تكون فكرة عن الآخرين. امرأة لم يحدث أبدًا أن كانت ممارسة الخداع عليها ضروريًا، وبحفاوة وقور أشارت إلى زانريها أن يتخذا لهما كرسيين، ثم جلست هي نفسها. ووقفت الأخت القديس جوزيف إلى أحد الأطراف، لكن إلى الخلف قليلًا من الأم الرئيسة وهي لا تزال تبتسم وإن ظلت صامتة.

:قالت الأم الرئيسة

إنني أعرف أنكم تحبون الشاي أنتم الإنجليز، ولقد طلبت بعضًا منه، لكنني لا بد أن أقدم - اعتذاري إذا قدم على الطريقة الصينية، إنني أعرف أن السيد وادينجتون يفضل الويسكي، لكنني أخشى ألا أستطيع تقديمه له.

.ابتسمت وارتسمت في عينيها الجادتين لمحة من دهاء.

.أوه، هيا أيتها الأم، إنك تتكلمين كما لو كنت سكيرًا مدمنًا -

.ليتك تستطيع القول بأنك لا تشرب أبدًا يا سيد وادينجتون -

.يمكنني أن أقول في جميع الأحوال أنني لم أشرب إلا إلى حد الإفراط -

ضحكت الأم الرئيسة وترجمت للأخت القديس جوزيف الملاحظة الوقحة إلى اللغة الفرنسية، فنظرت إليه بعينين متكاسلتين ودودتين.

لا بد أن نلتمس الأعذار للسيد وادينجتون؛ لأنه أسرع إلى إنقاذنا مرتين أو ثلاث مرات - عندما لم يكن لدينا مال على الإطلاق، ولم نكن نعرف كيف كنا سنطعم أيتامنا.

دخلت الفتاة الصينية التي فتحت لهما الباب ومعها صينية عليها أكواب من الخزف الصيني وإبريق شاي وطبق كعك فرنسي يُدعى مادلين.

-قالت الأم الرئيسة

لا بد أن تأكلا المادلين؛ لأن الأخت القديس جوزيف صنعته بنفسها خصيصًا لكما هذا -
الصباح.

وتبادلوا الحديث حول أمور عادية عامة، وسألت الأم الرئيسة كيتي عن المدة التي قضتها في الصين وعمّ إذا كانت الرحلة من هونج كونج قد أتعبتها تعبًا كبيرًا، وسألتها إذا كانت زارت فرنسا، وإذا لم تكن قد وجدت مناخ هونج كونج مُرهقًا. كان حديثًا تافهًا لكنه وديّ، اكتسب طابعًا خاصًا من الظروف المحيطة به. كانت الردهة هادئة جدًا، حتى إنك ما كنت تصدق إلا بصعوبة أنك في وسط مدينة مزدحمة بالسكان، فالسلام يقيم هناك، ومع ذلك كان الوباء يعرّب في كل مكان بينما كبحت جماح الناس -المرعوبين والقلقين- الإرادة القوية لجندي كان أكثر من نصف قاطع طريق. وكانت المصحة داخل جدران الدير مزدحمة بجنود مرضى ومحتضرين، بينما مات ربع الأيتام الذين كانوا تحت رعاية الراهبات.

ولاحظت كيتي -وقد تأثرت بشكل لم تكن تدري سببه- وقار السيدة التي طرحت عليها هذه الأسئلة الودية. كانت في رداء أبيض، وكان اللون الوحيد على رداها الكهنوتي هو القلب الأحمر الذي يشتعل على صدرها. كانت امرأة في منتصف العمر، فقد تكون في الأربعين أو الخمسين، ولم يكن من الممكن تحديد سنّها بالضبط، فلم يكن على وجهها الناعم الشاحب إلا بعض التغمضات، ولكنّ انطباعًا يثور في نفسك بأنها تجاوزت سن الشباب بمدة طويلة، وذلك بالحكم على وقار مظهرها ورصانتها ومن هزال يديها القويتين الجميلتين. كان وجهها طويلًا، وفمها كبير واسع، أسنانها منتظمة، وكان أنفها دقيقًا وحساسًا بالرغم من أنه لم يكن صغيرًا، لكنّ العينين تحت حاجبيها الرفيعين السوداوين هما اللتان أضفيتا على وجهها طابعه المتوتر المأساوي.

لقد كانتا كبيرتين جدًا وسوداوين مع أنهما لم تكونا باردتين تمامًا إلا إن ثباتهما الهادئ كان يُكسبهما قوة تسلط غريبة. و أول ما يتبادر إلى ذهنك من تفكير عندما تنظر إلى الأم الرئيسة هو أن لا بد أنها كانت جميلة عندما كانت فتاة، لكن سرعان ما تدرك بأن هذه امرأة ينمو جمالها معتمدًا على قوة شخصيتها مع مرور السنوات، وكان صوتها عميقًا وخافتًا وتحكمة به، وهي تتكلم ببطء إذا كانت تتكلم بالفرنسية أو الإنجليزية. لكن أكثر من يثيرك فيها هو روح السيطرة الذي تطفه روح التسامح المسيحية، فأنت تشعر فيها عادة إعطاء الأوامر. وطاعتها كانت أمرًا

طبيعياً بالنسبة إليها، لكنها كانت تتقبل الطاعة بتواضع. ولم يكن يفوتك أن ترى بأنها على وعي عميق بسلطة الكنيسة التي تضمها بين جوانحها، لكن كيتي خمنت أنها تواجه الضعف البشري بتسامح بشري، بالرغم من سلوكها المتمتت إزاء هذا الضعف البشري، وكان من المستحيل أن تنظر إلى ابتسامتها الوقور وهي تصغي إلى هراء دوادينجتون الجريء الثرثار دون أن تتأكد من أن لديها إحساساً حياً بالفكاهة.

لكن كانت فيها صفة أخرى شعرت بها كيتي بشكل غامض، صفة لم تستطع إطلاق اسم عليها. هذه الصفة جعلت كيتي تشعر أنها على مسافة بعيدة منها بالرغم من السلوك الرقيق النابع من القلب الذي جعل كيتي تشعر أمامها كأنها تلميذة مدرسة مرتبكة.

* * *

قالت الأخت القديس جوزيف بالفرنسية:

.المسيو لا يأكل شيئاً -

:ردت الأم الرئيسة

.لقد أفسد طهي مانشو شهية السيد -

ففارقت الابتسامة وجه الأخت القديس جوزيف ورسمت عليه تعبير التزمت. أخذ وادينجتون
-وقد ارتسمت في عينيه نظرة خبيثة- كعكة أخرى، ولم تفهم كيتي معنى الحديث

.لأثبت لك مدى ظلمك أيتها الأم، فإنني سأفسد العشاء الممتاز الذي ينتظرنى -

.إذا رغبت السيدة فاين أن تشاهد الدير، فإنه سيكون من دواعي سروري أن أريها إياه -

:والتفتت الأم الرئيسة إلى كيتي، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مستنكرة

أنا آسفة لأنك ستريه الآن وكل شيء في حالة فوضى. فلدينا الكثير من العمل وعدد غير -

كاف من الأخوات للقيام به. وقد ألح العقيد يو على وضع مصحتنا تحت تصرف الجنود المرضى.
كما اضطررنا إلى أن نحول قاعة الطعام إلى مصحة لأيتامنا

وقفت عند الباب لتسمح لكيتي بأن تمر، فسارت متبوعة بالأخت القديس جوزيف ووادينجتون
على طول الممرات الباردة البيضاء دخلوا أولاً غرفة كبيرة عارية، حيث كان عدد من الفتيات
الصينيات يقمن بأعمال التطريز الدقيقة. نهضن ووقفن عندما دخل الزائرون، وأشارت الرئيسة
:لكيتي لعينات من العمل

.نحن نتابع هذا العمل بالرغم من الوباء، فهو يشغل بالهن عن الخطر -

ذهبوا إلى غرفة ثانية حيث تعمل فتيات أصغر سنًا بالخياطة البسيطة، خياطة الحواشي، ثم
إلى غرفة ثالثة حيث يوجد أطفال صغار ضئيلو الجسم تحت إشراف امرأة صينية اعتنقت
المسيحية. كانوا يلعبون وهم يثيرون ضجة، وعندما دخلت الأم الرئيسة تحلقوا حولها، مخلوقات
في الثانية والثالثة، بأعينهم الصينية السوداء وشعرهم الأسود. فأمسكوا بيدها وأخفوا أنفسهم
تحت تنورتها الكبيرة، فأضاعت ابتسامة فاتنة وجهها الوقور وداعتهم ورددت كلمات مازحة
فهمت كيتي - بالرغم من جهلها باللغة الصينية - بأنها كانت مداعبات. ارتجفت قليلاً فقد بدوا
لها بزيهم الموحد وأجسادهم النحيلة القصيرة وبأنوفهم المنبسطة كأنهم لا يكادون يكونون بشرًا.

كانوا منفريين، لكن الأم الرئيسة وقفت بينهم كأنها الإحسان نفسه متجسداً، وعندما أرادت أن تغادر الغرفة لم يتركوها تخرج بل تعلقوا بها، حتى إنها اضطرت -بتعنيف مبتسم- أن تستعمل قوة مترفقة لتخليص نفسها. فلم يكونوا -على أي حال من الأحوال- يجدون أي شيء يدعوهم للخوف من هذه السيدة العظيمة.

قالت وهم يمشون في ممر داخلي آخر:

أنتِ تعرفين بأنهم ليسوا سوى يتامى طبعاً، بمعنى أن آباءهم رغبوا في التخلص منهم، - ونحن نعطيهم بعض المال عن كل طفل يحضرونه إلى هنا، وإلا ما كانوا تحملوا عناء إحصارهم، بل تخلصوا منهم فقط.

:والتفتت إلى الأخت وسألتها:

هل حضر أي شخص اليوم؟ -

أربعة -

إنهم الآن -ومع الكوليرا- متلهفون أكثر من أي وقت آخر في عدم تحمل عبء بنات لا فائدة -

منهن.

ورأت كيتي العنابر، ثم مروا بباب كتب عليه بالطلاء كلمة «مصحة». سمعت كيتي أنات وصرخات عالية وأصواتاً كانت تتألم بالرغم من أنها بدت كأنها ليست آدمية.

:قالت الأم الرئيسة بلهجتها الهادئة:

لن أريكِ المصحة. هي ليست مشهداً يرغب الإنسان في أن يراه -

:وخطرت ببالها فكرة:

إنني أتساءل إذا كان الدكتور فاين هنا؟ -

نظرت إلى الأخت متسائلة، ففتحت الباب وهي تبتسم ابتسامتها المرحية، وتسللت من خلاله. انكشيت كيتي مرتجفة عندما سمح لها الباب المفتوح في أن تسمع الضجة الداخلية بشكل أكثر إثارة للرعب. عادت الأخت القديس جوزيف.

لا، لقد كان هنا، لكنه لن يعود إلا في وقت متأخر -

ماذا عن رقم 6؟ -

.الفتى المسكين! لقد مات -

صلبت الأم الرئيسة، وتحركت شفاتها في صلاة قصيرة صامتة

مروا بفناء، فوقعت عينا كيتي على شكلين طويلين يتمددان جنبًا إلى جنب على الأرض وقد
تغطيا بقطعة قماش قطني أزرق. التفتت الأم الرئيسة إلى وادينجتون

تنقصنا الأسرة كثيرًا، إلى حد يضطرنا أن نضع مريضين في سرير واحد وعندما يموت -
مريض، فلا بد أن يُلف ويُخرج لكي نفسح مكانًا لمريض آخر

:لكنها رمت كيتي بابتسامة

سنريك الآن كنيستنا، فنحن فخورون بها جدًّا، وقد أرسل إلينا أحد أصدقائنا في فرنسا منذ -
فترة قصيرة تمثل العذراء المباركة بالحجم الطبيعي

* * *

لم تكن الكنيسة أكثر من غرفة طويلة منخفضة السقف بجدران بيضاء الطلاء وصفوف من مقاعد مصنوعة من ألواح خشب الصنوبر، وفي نهاية الكنيسة كان المذبح الذي ينتصب عليه التمثال، وكان من جبس باريس مطلياً بالألوان فجأة، وكان زاهياً جداً وجديداً ومبهرجاً، وخلفه كانت صورة صلب المسيح بالألوان الزيتية، وقد ظهرت عند قاعدة الصليب المريمتان: مريم العذراء ومريم المجدلية حزینتين حزناً كبيراً. كان الرسم سيئاً، وقد تلونت اللوحة بالألوان داكنة بواسطة عين لا تعرف شيئاً عن جمال الألوان، ورسمت على الجدران مراحل الصلب نفس اليد غير المحظوظة. لقد كانت كنيسة بشعة ومبتذلة.

ركعت الراهبات بعد أن دخلتا الكنيسة لترددن صلاة، ثم نهضتا واقفتين ثم أخذت الأم الرئيسة بالكلام مرة أخرى مع كيتي:

كل ما يمكن أن ينكسر فإنه ينكسر عندما يصل إلى هنا، لكن التمثال الذي قدمه إلينا محسننا - وصل إلى هنا من باريس دون أن يُصاب بأصغر شق. ليس هناك شك في أن هذه معجزة

وتألفت عينا وادينجتون الماكرتان لكنه أمسك لسانه

لقد رسمت نقش المذبح ومراحل الصلب واحدة من أخواتنا. الأخت القديس آنسلم -

ثم صلبت الأم الرئيسة

لقد كانت فنانة حقيقية، لكنها راحت ضحية الوباء لسوء الحظ. ألا تجدونها جميلة جداً؟ -

ردت كيتي بالإيجاب وهي متلعثمة، وكانت على المذبح باقات من أزهار ورقية، وكانت الشمعدانات مزخرفة بشكل مذهل

إننا نحظى بشرف الاحتفاظ بالقربان المقدس هنا -

قالت كيتي دون أن تفهم مقصدها

نعم؟ -

لقد كان مبعث عزاء لنا خلال هذا الوقت من متاعب رهيبة -

غادروا الكنيسة راجعين إلى الردهة التي جلسوا فيها في البداية

أتريدون رؤية الأطفال الرضع الذين جاءوا هذا الصباح قبل أن تغادري الدير؟ -

:قالت كيتي

.أرغب بشدة -

قادتهم الأم الرئيسية إلى داخل غرفة صغيرة للغاية على الجانب الآخر من الممر الداخلي، وكانت على طاولة وتحت قطعة قماش حزمة تتلوى

سحبت الأخت قطعة القماش وكشفت عن أربعة أطفال صغار جداً وعراة. كان لونها أحمر قانياً، ويقومون بحركات متململة مضحكة بأذرعهم وأرجلهم، وكانت وجوههم الصينية الصغيرة الغريبة تعبس في تقطبية غريبة. كانوا لا يكادون يبدون بشراً، بل حيوانات غريبة لأنواع مجهولة، لكن كان في شكلهم شيء مؤثر للغاية. نظرت الأم الرئيسية لهم بابتسامة مسرورة

يبدون ممتلئين بالحياة جداً، إنهم يأتون أحياناً وهم على وشك الموت، ونحن نعددهم طبعاً - في لحظة مجيئهم

:قالت الأخت القديس جوزيف

يسعد زوج السيدة بهم. أظن أنه يلعب مع الأطفال لساعات وعندما يصرخون فإنه عندما - يرفعهم ويريحهم على ذراعه المنحنية حتى يضحكوا سعداء

ثم وجدت كيتي ووادينجتون نفسيهما عند الباب. فشكرت كيتي الأم الرئيسية على ما تحملته من عناء، فأنحنت الأم الرئيسية انحناء يوحى بالجلال و الود

لقد كان من دواعي سعادتني الكبيرة. أنت لا تعرفين مدى اللطف والمساعدة التي يقدمها - زوجك لنا. لقد أرسلته السماء لنا. أنا سعيدة لأنك حضرتِ معه، فحين يرجع إلى البيت، فلا بد أن يكون مبعث راحة عظيمة وجودك هناك بحبكِ و.. ووجهك الجميل. يجب أن تعتني به ولا تتركه يُجهد نفسه بالعمل. يجب أن تعتني به من أجلنا كلنا

احمرّ وجه كيتي. لم تعرف ما يجب أن تقوله، فمدت الأم الرئيسية يدها، وبينما كانت كيتي تُمسك بهذه اليد، أحست بهاتين العينين الباردتين المتأملتين اللتين استقرتا عليها بتجرد. وإن كام فيهما ما يُشبه تفهماً عميقاً

أغلقت الأخت القديس جوزيف الباب خلفهما، وركبت كيتي محفتها. عادا راجلين خلال الشوارع الضيقة المتعرجة. أبدى وادينجتون ملاحظة عابرة، ولم ترد كيتي. التفت حوله، لكن

الستائر الجانبية للمحفة كانت مسدلة فلم يستطع أن يراها. وتابع السير صامتاً، لكن، وحين وصلا للنهر ونزلت عن المحفة، رأى لدهشته أن عينيها كانتا تفيضان بالدموع

:سأل وقد قطب وجهه في تعبير يوحي بالفزع

- ما الأمر؟ -

:حاولت أن تبتسم

- لا شيء. مجرد بلاهة -

* * *

حاولت كيتي أن ترتب مشاعرها وقد استقرت وحيدة، مرة أخرى، في البهو القذر لكوخ المبشر الميت، وهي ممددة على الكرسي الطويل المواجه للنافذة، وقد أرسلت عينيها الشاردتين إلى المعبد الواقع على ضفة النهر الأخرى (الذي أصبح الآن مع اقتراب المساء ثانية أثيراً وجميلاً). ما كانت ستصدق قط أن هذه الزيارة للدير كانت ستؤثر فيها إلى هذا الحد. لقد ذهبت للدير بدافع الفضول. فلم يكن لديها شيء آخر تفعله، وكانت راغبة بعد أن نظرت إلى المدينة المسورة عبر الماء طوال تلك الأيام الماضية، في أن تلقي على الأقل نظرة سريعة على شوارعها الغامضة.

لكن حينما دخلت الدير، بدا لها أنها انتقلت إلى عالم آخر لا يُحدده مكان ولا زمان بشكل غريب، فبدت تلك الغرف العارية والممرات البيضاء، العارية والبسيطة، تحوي روح شيء بعيدة وغامضة. وكان المعبد الصغير، ببشاعته وابتذاله على ذلك النحو وفضاظته البالغة مثيراً للشجون، ففيه شيء تفتقر إليه عظمة كاتدرائية بزجاجها الملون وصورها، كان معبداً متواضعاً جداً، وقد أضفى عليه الإيمان الذي زينه والحنان الذي رعاه جمال روح رقيق. وأظهرت الطريقة المنهجية التي يُجرى على حسبها عمل الدير وسط الوباء رباطة جأش في وجه الخطر، وإدراك عملي عميق للتأثير في النفس يكاد يكون ساخراً في الحقيقة. وظلت ترن في أذني كيتي الأصوات المروعة التي سمعتها عندما فتحت الأخت القديس جوزيف باب المصحة للحظة.

كانت الطريقة التي تكلمتا بها عن ولتر غير متوقعة. فأولاً، تكلمت الأخت ثم الأم الرئيسة نفسها، وكانت نعمة صوتها لطيفة للغاية حينما مدحته. ومن الغريب أنها شعرت بشيء من الزهو إذ عرفت مدى حُسن تقديرهما له. لقد أخبرها وادينجتون أيضاً بشيء عما يفعله ولتر، لكنَّ الراهبتين لم تمدحا كفاءته فقط (لقد عرفت في هونج كونج بأنه يُعتبر ذكياً)، بل تكلمتا عن عمق تفكيره ورقته. إنه يمكنه أن يكون رقيقاً للغاية طبعاً. لقد كان في أفضل أحواله عندما تكون مريضة، فهو أذكى من أن يغضب ويثور، ولمسته تُدخل السرور إلى النفس، باردة ومسرية. فهو يبدو قادراً بسحر ساحر وبمجرد وجوده على أن يريحك من معاناتك. كانت تعرف بأنها لن ترى ثانية نظرة الحنان في عينيه، النظرة التي تعودت عليها في السابق كثيراً، حتى أصبحت تجدها مجرد مثيرة لغيظها. إنها تعرف الآن مدى اتساع قدرته على الحب، فقد أصبح يصبها بطريقة

غريبة على هؤلاء المرضى التعساء الذين ليس لديهم من أحد سواه ليعتني بهم. لم تشعر بالغيرة، بل شعرت بشعور من الخواء، فبدا لها كأنَّ دعمًا كانت قد اعتادت على أن تعتمد عليه دون أن تُدرك وجوده قد سُحب فجأة منها، حتى إنها تمايلت مترنحة في هذا الاتجاه وذاك كشيء ثقيل الرأس.

لم تعد تشعر إلا باحتقار نفسها؛ لأنها أحست باحتقار ولتر في أحد الأيام. لا بد أنه كان يعرف كيف كانت تنظر إليه، لكنه تقبّل تقديرها له من دون مرارة. لقد كانت بلهاء، وكان يعرف هذا، ولم يكن هذا يشكل فارقًا بالنسبة له لأنه كان يحبها. إنها لا تكرهه الآن، ولا تشعر نحوه بالبغضاء، بل بالخوف والحيرة إلى حد ما. لم تكن تستطيع إلا الإقرار بتمتعته بصفات مدهشة، وقد فكرت أحيانًا بأن فيه عظمة غريبة وغير جذابة، وكان من العجيب ألا تستطيع أن تحبه حينذاك، بل تحب ولا تزال تحب رجلاً كانت تفاهته واضحة جدًا لها. وبعد التفكير، والتفكير خلال الأيام الطويلة، حددت قيمة شارلي تحديدًا دقيقًا، فكان شخصًا عاديًا وكانت صفاته من الدرجة الثانية. لو أنها تستطيع فقط أن تنزع من قلبها الحب الذي لا يزال يستقر هناك! حاولت ألا تفكر فيه.

إن وادينجتون يقدر ولتر تقديرًا عظيمًا. هي وحدها العمياء عن صفاته الحسنة. لماذا؟ لأنه أحبها ولم تحبه. ما الشيء الذي في قلب الإنسان الذي يجعلك تحتقر رجلاً لأنه يحبك؟ لكن وادينجتون اعترف بأنه لم يحب ولتر. الرجال لا يحبونه. من السهل أن ترى أن لدى هاتين الراهبتين شعورًا قريبًا جدًا من الحنان الشديد. إنه مختلف مع النساء، ورغم خجله إلا أنك تشعر فيه رقة متناهية.

* * *

لكن الراهبات عن اللواتي كن قد أثرن عليها تأثيرًا عميقًا بعد كل هذا. وكانت الأخت القديس جوزيف بوجهها المرح ووجنتيها المتوردتين كالتفاح، واحدة من المجموعة الصغيرة التي جاءت إلى الصين مع الأم الرئيسة قبل عشر سنوات ورأت زميلاتها تموت واحدة إثر الأخرى من المرض والحرمان والحنين إلى الوطن. لكنها ظلت مرحة وسعيدة. ما الذي يبثّ فيها ذلك المزاج الساذج والساحر؟ والأم الرئيسة. وقفت كيّتي، في خيالها، أمامها مرة أخرى فشعرت بالضالة والخجل مرة أخرى. فمع أنها كانت بسيطة وغير متكلفة، إلا إنها كانت تتمتع بجلال يوحى بالرهبة، ولا يمكنك أن تتخيل أي إنسان يمكنه أن يعاملها بغير احترام. فقد أظهرت الأخت القديس جوزيف من طريقة وقفها وبكل إشارة أو لهجة إجاباتها، أظهرت خضوعًا عميقًا تكنه لها في أعماق نفسها، كما أظهر وادينجتون المستهتر و الوقح وبلهجته بأنه لم يكن مرتاحًا أمامها. رأت كيّتي أن من غير الضروري أن يعلموها بأن الأم الرئيسة تنتمي إلى إحدى الأسر الفرنسية العظيمة، فقد كان في هينتها ما يوحى بعراققتها. وكانت تتمتع بنفوذ إنسانة لم تعرف قط أن ثمة إمكانية لعصيانها. وكانت لها كياسة سيدة عظيمة وتواضع قديسة، وكان في وجهها القوي والجميل والمهدّم صرامة كانت عاطفية، كما كانت تتمتع بدعة ولطف جعلها هؤلاء الأطفال الصغار يتجمعون حولها مطلقين ضجة دون أن يملكهم أي خوف، ليعيشوا في طمأنينة حنانها العميق. وحين نظرت للأطفال الرضع حديثي الولادة، كست وجهها ابتسامة عذبة وعميقة في نفس الوقت. كانت كشعاع الشمس على أرض بور مهجورة. وما قالتها الأخت القديس جوزيف بلا مبالاة عن ولتر أثر بكيتي تأثيرًا غريبًا، فهي تعرف أنه أراد منها برغبة يانسة أن تحمل بطفل، لكنها لم يساورها أدنى شك أنه قادر على أن يظهر لطفًا ساحرًا ومداعبًا نحو طفل رضيع دون أن يبدو عليه الارتباك وذلك لصمته وتجهمه. وأغلب الرجال سخفاء وبلهاء مع الأطفال الرضع. يا لغرابة سلوكه في الدير! لكن إلى جانب كل تلك التجارب المؤثرة، كان ثمة ظل (خط داكن على أطراف سحابة فضية)، ملمح وواضح أزعجها. ففي مرح الأخت القديس جوزيف الرزين وأكثر من هذا كثيرًا، في حفاوة الأم الرئيسية الباهرة، شعرت بترفع ضايقها. لقد كانتا ودودتين ومرحبتين ترحيبًا قلبيًا بها، وفي الوقت نفسه، كانتا تمسكان عنها شيئًا، لم تدرِ كنهه، حتى إنها شعرت بأنها لم تكن سوى غريبة عابرة. كان بينها وبينهما ثمة حاجز. فهما تتكلمان

بلغة مختلفة، لا لغة اللسان فقط، بل لغة القلب، وحين أغلق الباب عليها، شعرت بأنهما وضعتها خارج ذهنيهما تماماً، عاندتين إلى عملهما المهمل ثانية بلا تأخير. أي إنها قد تكون بالنسبة إليهما غير موجودة إطلاقاً. شعرت بأنها لم تُفصَ فقط عن ذلك الدير الصغير، بل عن حديقة الروح الغامضة التي تهفو إليها بكامل نفسها، وأحست فجأة بأنها وحيدة كما لم تشعر من قبل. ذلك كان السبب الذي جعلها تبكي

:وتنهدت الآن، وهي تطرح رأسها إلى الوراء في إعياء

!أوه، أنا عديمة القيمة -

* * *

في ذلك المساء عاد ولتر إلى كوخ البنجالو في وقت مبكر عن العادة قليلاً. كانت كيتي تستلقي على الكرسي الطويل عند النافذة المفتوحة، وكان الوقت معتمًا إلى حد ما.

سأل:

- ألا تريدان مصباحًا؟ -

- سيحضرونه عندما يُجهز العشاء -

كان يتحدث إليها دائمًا حديثًا عابرًا تمامًا وعن أمور تافهة، كأنهما كانا شخصين متعارفين، ولم يكن في سلوكه أي شيء يوحي بأنه يحمل لها في قلبه حقدًا. ولم يقابل عينيها أبدًا كما لم يبتسم لها على الإطلاق. لقد كان مهذبًا جدًا

سألته:

- ولتر، ما الذي تقترح أن نفعله إذا نحن اجتزنا الوباء بسلام؟ -

- تريث لحظة قبل أن يُجيب. لم تستطع أن ترى وجهه

- لم أفكر -

في الأيام الخوالي كانت تردد بلا اكتراث ما يخطر في بالها، فلم يخطر في بالها أبدًا أن تفكر قبل أن تتكلم، لكنها خائفة منه الآن، وأحست بشفتيها ترتجفان وقلبها يخفق بألم

- لقد ذهبت إلى الدير بعد ظهر اليوم -

- سمعت بهذا -

- أجبرت نفسها على أن تتكلم بالرغم من أنها لم تكن تكاد تستطيع أن تصيغ كلماتها

- أكنت تريدني أن أموت حقًا حين جئت بي إلى هنا؟ -

- لو كنت في مكانك لتركت الموضوع يا كيتي، فلست أرى أي خير في الكلام عن موضوع -

يجب أن يكون من المستحسن جدًا لنا أن ننسأه

- لكنك لن تنسى، و لا أنا، ظللت أفكر كثيرًا جدًا منذ جئت إلى هنا. ألن تصغي إلى ما يجب أن -

أقوله؟

- بالتأكيد -

لقد عاملتك معاملة سيئة للغاية. لقد كنت غير مخلص لك -

وقف ساكنًا تمامًا. كان جموده مرعبًا بشكل غريب

لا أعرف إذا كنت ستفهم ما أعنيه. إن ذلك النوع من الأمور لن يعني شيئًا كثيرًا جدًا لامرأة - حين ينتهي. وأنا أظن أن النساء لا يفهمن تمامًا أبدًا الموقف الذي يتخذه الرجال

:وتكلمت فجأة بصوت كان من الصعب أن تعرف فيه صوتها العادي

أنت تعرف من كان شارلي وأنت تعرف ما كان سيفعله. حسنًا، لقد كنت على حق تمامًا. إنه - مخلوق تافه. أظن أنه ما كان عليّ أن أخدع لو لم أكن أنا تافهة مثله. أنا لا أطلب منك أن تصفح عني. وأنا لا أطلب منك أن تحبني كما اعتدت أن تحبني. لكن ألا نستطيع أن نكون صديقين؟ مع... كل هؤلاء الذين يموتون بالآلاف حولنا، ومع تلك الراهبات في ديرهن

:قاطعها

- وما هو شأنهن بهذا؟ -

لا أستطيع أن أوضح تمامًا. لقد سيطر عليّ شعور غريب حينما ذهبت إلى هناك اليوم. يبدو - أن كل هذا يعني الكثير لي. فكل هذا رهيب وتضحياتهن مدهشة، فأنا لا أملك إلا أن أشعر أن من السخف والخجل، إذا أنت فهمت ما أعني، أن تضايق نفسك بسبب أن امرأة بلهاء كانت غير وفية لك. أنا أتفه وأقل قيمة بكثير من أن تفكر فيّ

لم يرد، لكنه لم يبتعد أيضًا، فقد بدا أنه ينتظر أن تواصل الكلام

لقد أخبرني السيد وادينجتون والراهبات بأعمال مدهشة عنك. إنني فخورة بك جدًا يا ولتر -

لم تتعودي أن تكوني كذلك. كنت تشعرين بالاحتقار تجاهي. ألا زلتِ تشعرين بهذا؟ -

- ألا تعرف بأنني خانفة منك؟ -

:ولاذ بالصمت ثانية. ثم قال أخيرًا

.أنا لا أفهمك. و أنا لا أعرف ما تريدينه -

.لا شيء لنفسي. إنني أريدك فقط أن تكون أقل تعاسة -

:أحست به يتخشب، وكان صوته باردًا جدًا حين أجاب

أنت مخطئة في التفكير بأنني تعس، فعندي الكثير جدًا مما يجب أن أفعله مما يمنعي من - التفكير بك كثيرًا جدًا

- لقد تساءلت إذا كانت الراهبات ستسمح لي بالذهاب والعمل في الدير. إن عددهن قليل جداً. -
ولو كنت أي عونٍ لهن فإنني سأكون ممتنة لهن
إنه ليس عملاً سهلاً أو عملاً ساراً. و أنا أشك إذا كان سيسليكِ لمدة طويلة -
هل تحتقرني تماماً يا ولتر؟ -
لا -
وتردد وكان صوته غريباً حين قال
إنني أحتقر نفسي -

* * *

كان الوقت بعد العشاء، جلس ولتر كعادته إلى جانب المصباح يقرأ. كان يقرأ في كل مساء إلى أن تأوي كيتي إلى الفراش، ثم يدخل مختبراً جهزه في إحدى غرف كوخ البنجالو الفارغة. ويظل يعمل هناك حتى ساعة متأخرة من الليل، وكان ينام قليلاً. لقد كان مشغولاً بتجارب لم تكن تعرفها. فلم يخبرها بأي شيء عن عمله، لكنه حتى في الأيام الخوالي كان كتومًا فيما يتعلق بهذا، فهو لم يكن كثير الكلام بطبيعته. فكرت بعمق بما قاله لها، لم يؤدِ الحديث إلى شيء. لقد كانت على معرفة ضعيفة به، حتى إنها لم تكن متأكدة مما إذا كان يقول الحق أم لا. أمن الممكن أنها كفت عن الوجود بالنسبة له بينما أصبح هو يملأ الوجود بالنسبة إليها بشكل يُنذر بالسوء؟ قد يكون حديثها الذي كان يسليه في وقت ما لأنه كان يحبها، أصبح مضجرًا له بعد أن لم يعد يحبها. وصددها هذا.

نظرت له، وكشف نور المصباح وجهه الجانبي كأنه كان حجرًا كريمًا. لقد كان وجهه بلامحه المنتظمة دقيقة التكوين مميّزًا جدًا، لكنه كان أكثر من صارم. كان متجهماً، بذلك الجمود الذي هو عليه والذي لا يتحرك فيه سوى عينيه وهو يتصفح كل صفحة، كان مرعبًا بشكل غامض. من كان سيفكر بأن هذا الوجه القاسي يمكن أن يذوب من العاطفة إلى حد رقة التعبير؟ كانت تعرف هذا وقد أثار فيها رعدة نفور. لقد كان من الغريب أن يكون من المستحيل أن تحبه بالرغم من أنه كان جميل المظهر وصادقًا وشهمًا وموهوبًا. وكان مما يثير الارتياح أنها لم تعد مضطرة إلى أن تخضع لمداعباته مرة أخرى.

ما كان ليحجب عندما سألته إذا كان قد رغب حقًا في قتلها حين أجبرها على المجيء إلى هنا. إن الغموض الذي يكتنفه هذا يسحرها ويرعبها. لقد كان لطيفًا إلى حد خارق للعادة. ولم يكن مما يُصدّق أن يكون لديه قصد شيطاني كهذا القصد. لا بد أنه اقترح عليها الحضور إلى هنا ليُخيفها فقط ولينتقم من شارلي ثانية (وذلك يتمشى مع مزاجه الساخر)، ثم ألح عليها في أن تصل معه إلى هنا لعناده وخشية أن يبدو أبله.

نعم، لقد قال بأنه يحتقر نفسه. ما الذي يعنيه ذلك؟ ونظرت كيتي ثانية إلى وجهه الجامد الهادئ. قد لا تكون في الغرفة على الإطلاق. إنه لا يشعر بوجودها.

سألت وهي لا تكاد تدري بأنها تتكلم، كأنها كانت تستأنف دون توقف الحديث الذي تبادلاه في وقت مبكر:

- لماذا تحتقر نفسك؟ -

وضع كتابه وتأملها وهو يفكر. بدا أنه يستجمع أفكاره من مسافة بعيدة

- لأنني أحببتك -

احمرّ وجهها وأشاحت بوجهها بعيداً. لم تستطع تحمّل نظرتة الباردة الثابتة المتفحصة. لقد فهمت ما قصده، ومرت برهة قبل أن تجيب. قالت:

أظن أنك تظلمني. ليس من الإنصاف أن تلومني لأنني كنت سخيفة ومستهترة ومبتذلة. لقد رُبيت بهذا الشكل، وكل الفتيات اللواتي أعرفهن كذلك. إنه كعتاب شخص لا يتمتع بأذن موسيقية لأنه يشعر بالملل في حفل موسيقى سيمفونية. أمن العدل أن تلومني لأنك نسبت إليّ صفات لم تكن فيّ؟ إنني لم أحاول أبداً أن أخدعك بالتظاهر بأنني كنت ما لم أكنه. لقد كنت جميلة ومرحة فقط. لا تسأل عن عقد اللؤلؤ أو معطف من فرو السمور في كشك في معرض. اسأل عن طبل صفيح وبالون ألعاب

- أنا لا ألومك -

كان صوته متعباً. لقد بدأت تحس بنفاذ الصبر قليلاً معه. لماذا لا يستطيع أن يدرك ما أصبح واضحاً تماماً لها فجأة، بأن علاقتهما، إلى جانب كل رعب الموت الذي يستقران تحت ظله وإلى جانب رهبة الجمال الذي لمحتة لمحة واحدة فقط في ذلك اليوم، كانت تافهة؟ ما الذي يهّم حقاً إذا أقدمت امرأة سخيفة على اقرار جريمة الزنا ولماذا لا بد أن يولي زوجها، وهو يواجه ما هو سام، هذا الأمر الكثير من التفكير؟ لقد كان من الغريب ألا يتمتع ولتر، بكل ذكائه، إلا بالقليل من الشعور بالتوازن. لأنه ألبس دمية رداء فحماً وأسكنها في محراب ليعبدها. ثم اكتشف بأن تلك الدمية مليئة بنشارة الخشب، فلم يغفر لنفسه هذا، كما لم يغفر لها ذلك أيضاً. كانت روحه ممزقة. فقد كان كل ما عاش عليه وهماً أضفى عليه عنصر الحقيقة، وحين حطمت الحقيقة هذا الوهم. ظن بأن الواقع نفسه تحطم. كان من الحقيقي أنه لن يصفح عنها لأنه لم يستطع أن يصفح عن نفسه.

ظنت أنها سمعته يُطلق تنهيدة خفيفة، فألقت عليه نظرة سريعة قصيرة وخطرت ببالها فكرة
فجائية فقطعت أنفاسها، وكبحت انطلاق صرخة منها بصعوبة

أكان ما يعاني منه هو ما يدعونه انسحاق القلب؟

* * *

ظلت كيتي تفكر في الدير طوال اليوم التالي. وفي الصباح التالي وبعد أن غادر ولتر البيت بوقت قصير أخذت معها الخادمة لاستئجار محفتين، وعبرت النهر. لم يكد النهار يكتمل بعد، وازدحم قارب المعديّة بالصينيين، وكان بعضهم بملابس فلاحين قطنية زرقاء وبعضهم الآخر في ملابس مسؤولين سوداء، وقد ارتسمت على وجوههم النظرة الغريبة المنطبعة على وجوه الموتى الذين يُحملون فوق الماء إلى أرض الظل، وعندما خطوا على الشاطئ وقفوا قليلاً على مكان الرسو مترددين، كأنهم لا يعرفون تمامًا أين سيتوجهون، قبل أن يأخذوا في التجوال إلى أعلى التل وهم متفرقون مثنى وثلاثاً.

كانت شوارع المدينة في تلك الساعة خالية تمامًا، فبدت أنها إحدى مدن الموتى أكثر من أي وقت آخر. وأحاط بالمارين جو من الشرود، حتى إنك كنت تظن تقريباً بأنهم أشباح. كانت السماء خالية من الغيوم بينما صبت الشمس المبكرة لطفاً سماوياً على المشهد. وكان من الصعب أن تتصور أن المدينة في هذا الصباح المبهج المنعش والباسم تنطرح لاهثة تحت قبضة الوباء المظلمة كرجل سلبت حياته خنقاً يد رجل مجنون. ولم يكن من الممكن تصديق أن الطبيعة (فزرقة السماء كانت واضحة كقلب طفل) غير مبالية إلى هذا الحد و الرجال يتلون في عذاب مبرح ويسيروا إلى حتفهم وهم خائفون. حين أنزلت المحفتان على الأرض عند باب الدير. نهض شحاذ عن الأرض وطلب من كيتي صدقة. كان يرتدي خرقاً باهتة اللون عديمة الشكل، بدت وكأنه بحث عنها وأخرجها من كومة روث وأوساخ. وكنت ترى من خلال رقعها بشرته قاسية وخشنة ومدبوغة كجلد عنزة، وكانت ساقاه العاريتان هزيلتين، ورأسه بكتلة شعره الأشيب الخشن (وجنتاه مجوفتان وعيناه وحشيتان) رأس رجل مجنون. ابتعدت عنه مرعوبة، فصاح حاملو المحفتين بصوت خشن طالبين منه الابتعاد، لكنه كان مُلحاً، فأعطته كيتي بعض قطع النقود وهي ترتعد لكي تتخلص منه.

فُتح الباب، وأوضحت الخادمة أن كيتي ترغب في رؤية الأم الرئيسية. وأدخلت مرة أخرى إلى الردهة القاتمة التي بدا أنه لم تُفتح فيها أي نافذة أبداً. فجلست هناك مدة طويلة جداً إلى حد أنها بدأت تظن أن رسالتها لم تُبلِّغ، وأخيراً دخلت الأم الرئيسية. قالت:

لا بد أن أطلب منك أن تعذرني لأنني أبقيتك تنتظرين، فلم أكن أتوقع حضورك وكنت مشغولة.

اغفري لي إزعاجي لك. أخشى أنني أتيت في لحظة غير ملائمة تمامًا.

ألقت عليها الأم الرئيسة ابتسامة جادة لكنها عذبة، ورجتها أن تجلس، لكن كيبي رأت أن عينيها كانتا منتفختين. لقد كانت تبكي.

فرعت كيبي فقد تكون لديها انطباع من الأم الرئيسة أنها امرأة لم تكن المتاعب الدنيوية قادرة على التأثير عليها.

تلعثت قائلة:

أخشى أن يكون قد حدث شيء. أتريديني أن أذهب؟ يمكنني الحضور مرة أخرى.

لا، لا أخبريني ما الذي أستطيع فعله من أجلك. إن الأمر فقط أن إحدى أخواتنا ماتت في الليلة الماضية.

وفقد صوتها لهجته السوية، و اغرورقت عيناها بالدموع.

إنه لتصرف شرير مني أن أحزن، فأنا أعرف أن روحها الطيبة والبسيطة طارت مباشرة إلى السماء. لقد كانت قديسة، لكن من الصعب دائمًا أن يسيطر الإنسان على ضعفه. أخشى ألا أكون مسؤولة مسؤولة كاملة دائمًا.

قالت كيبي:

أنا آسفة، أنا آسفة جدًا.

ودفع تعاطفها الجاهز دائمًا النسيج إلى صوتها.

كانت إحدى الأخوات اللواتي سافرن معي من فرنسا قبل عشر سنوات. بقيت ثلاث منا فقط - الآن. وأذكر أننا وقفنا في مجموعة قليلة عند نهاية السفينة ونحن نُبحر خارج المرفأ في مرسيليا ورأينا شكل القديسة ماري النعمة وتلونا معًا صلاة. لقد كانت أمنيبي الكبرى منذ أن دخلت الدين أن يُسمح لي أن أحضر إلى الصين، لكنني حين رأيت اليايسة تبتعد، لم أستطع منع نفسي من البكاء. لقد كنت رئيستهن ولم أكن مثلاً جيداً يُحتذى به. فأخذت الأخت القديس فرانسيس زافيير - هذا هو اسم الأخت التي ماتت الليلة الماضية - يدي وطلبت مني ألا أحزن، فقد قالت بأننا أينما نذهب فإن فرنسا ستكون هناك وسيكون الرب هناك.

وتشوه ذلك الوجه القاسي والجميل بالحزن الذي عصرته الطبيعة البشرية منها. وبالجهد الذي بذلته لمنع ذرف الدموع التي رفضها عقلها وإيمانها. أشاحت كيبي بوجهها. فقد رأت أن من غير الأدب أن تُمعن النظر في ذلك الصراع.

كنت أكتب إلى أبيها، فقد كانت مثلي أنا، ابنة أمها الوحيدة. كانوا صيادين في بريتاني - وسيكون وقع الخبر عليهم قاسياً. أوه! متى سيتوقف هذا الوباء الرهيب؟ لقد هوجمت فتاتان من فتياتنا هذا الصباح، ولن يستطيع أي شيء إلا معجزة أن تنقذهما. ليس لدى هؤلاء الصينيين أي مقاومة. إن خسارة الأخت القديس فرانسيس قاسية جداً. هناك الكثير مما يجب القيام به وأصبح لدينا الآن عدد أقل من الأخوات ليقمن به. لدينا في بيوتنا الأخرى في الصين أخوات متلهفات للحضور. فأنا أعرف أن كل راهباتنا على استعداد أن يقدمن أي شيء في العالم (مع أنهن لا يملكن شيئاً في العالم) للحضور إلى هنا. لكن الحضور إلى هنا موت أكيد تقريباً، وطالما أننا نستطيع تدبير أمورنا مع الأخوات اللواتي لدينا هنا، فأنا غير راغبة في أن يُضحى بالأخريات.

قالت كيبي:

هذا يشجني أيتها الأم. عندي شعور بأنني أتيت في لحظة سيئة جداً. لقد قلت في اليوم - السابق بأن لديكن عملاً يفوق عدد الأخوات اللواتي يمكنهن القيام به. وقد تساءلت إن كنت ستسمحين لي بالحضور إلى هنا ومساعدتهن. لن يهمني ما الذي يمكنني أن أفعله إذا كنت أستطيع فقط أن أكون نافعة. سأكون شاكرة لك إن سمحت لي بتنظيف أرضيات الدير.

ورمتها الأم الرئيسة بابتسامة مرحة، فذهلت كيبي من مزاجها المرن الذي يمكنه التنقل بسهولة من حال إلى حال.

ليس هناك حاجة إلى تنظيف الأرضيات. فهذا العمل يقوم به اليتيمات بطريقة غير متقنة -

ثم صمتت، وألقت على كيبي نظرة رقيقة:

يا طفلي العزيزة، ألا ترين بأنك بذلت ما فيه الكفاية في مجيئك مع زوجك إلى هنا؟ ذلك - يفوق ما تجرؤ كثير من الزوجات على أن يفعلنه. أما بالنسبة إلى باقي ما يمكنك فعله، فكيف يمكنك أن تقومي بعمل أفضل من أن تشغلي نفسك بإدخال الهدوء والطمأنينة في نفسه حين يعود إلى البيت اليك بعد يوم عمل؟ صدقيني، إنه بحاجة إلى كل حبك وكل اهتمامك حينها.

لم تستطع كيبي أن تواجه بسهولة عينيها اللتين استقرتا عليها بتحديقة حيادية ورقة ساخرة.

قالت كيتي:

ليس لديّ ما أفعله من الصباح حتى الليل، وأرى أن هناك الكثير جدًّا مما يمكن فعله، حتى -
إنني لا أستطيع تحمّل التفكير في أن أظلّ خاملة. لا أريد أن أكون مزعجة، كما أنني أعرف أنه لا
يحق لي أن أتطفّل على لطفك أو آخذ من وقتك أيضًا. لكنني أعني ما أقوله، كما سيكون إحسانًا
ما ستقدمينه إليّ إذا أنتِ سمحتِ لي في أن أكون عونًا لكُنَّ.

أنتِ لا تبدين قوية جدًّا، وحين أدخلتِ السرور إلى نفوسنا وحضرتِ لزيارتنا قبل أمس، بدا -
لي أنكِ كنتِ صاحبة الوجه جدًّا، وظنتِ الأخت القديس جوزيف بأنك ربما ستضعين طفلًا

صاحت كيتي وقد تضرّج وجهها محمّرًا حتى جذور شعرها

لا، لا.

أطلقت الأم الرئيسة ضحكة صغيرة فضية

ليس في هذا ما يخجلكِ يا طفلي العزيزة، وليس في هذا الافتراض أي شيء غير محتمل. -
كم مضى على زواجك؟

إنني صاحبة جدًّا لأنني صاحبة شحوبًا طبيعيًا، لكنني قوية جدًّا وأعدك ألا أخاف من العمل -
أصبحت الأم الرئيسة الآن سيدة نفسها تمامًا، واتخذت بلا وعي منها هيئة السلطة التي كانت
من طبيعتها، فألقت على كيتي نظرة متفرسة تقيمها. فشعرت كيتي بالعصبية إلى حد كبير

هل تتكلمين الصينية؟ -

أجابت كيتي:

أخشى أنني لا أتكلمها -

أه، هذا مثير للرتاء. كنت أستطيع أن أعينك مسؤولة عن الفتيات الكبيرات. إن هذا صعب -
جدًّا الآن، وأخشى أن يصبحن - ماذا تعدين هذا؟

ثم أنهت كلامها بصوت متردد

خارج السيطرة؟ ألا أستطيع أن أكون عونًا للأخوات في التمريض؟ لست خائفة من الكوليرا -
أبدًا. يمكنني أن أمرض الفتيات أو الجنود

هزت الأم الرئيسة رأسها دون أن تبتمس الآن، وقد ارتسمت على وجهها نظرة متأملة

أنتِ لا تعرفين ما الكوليرا. إنها شيء بشع رؤيته. إن الذين يقومون بالعمل في المصححة هم - الجنود، ونحتاج إلى أخت لتشرف على العمل فقط، وفيما يتعلق بعمل الفتيات.. لا.. لا، أنا متأكدة من أن زوجك لن يرغب في هذا، إنه منظر رهيب ومخيف

- سأعتاد عليه -

لا، إنه خارج الموضوع. إنه عملنا وامتيازنا أن نقوم بأعمال كهذه، وليس من داع لأن - تقومي بعمل كهذا

إنكِ تجعليني أشعر أنني بلا فائدة تمامًا وعاجزة جدًا. يبدو أنه من غير المعقول أنه لا يوجد - عمل يمكنني القيام به

- هل تكلمت مع زوجك عن رغبتك؟ -

- نعم -

نظرت إليها الأم الرئيسة كأنها كانت تغوص إلى أسرار قلبها، لكنها ابتسمت عندما رأت نظرة كيتي القلقة والمستجدية. فسألت:

- أنتِ بروتستانتية بالطبع؟ -

- نعم -

لا يهم. لقد كان دكتور واطسون، المبشر الذي مات، بروتستانتياً فلم يشكّل هذا أي فرق، - وكان بالنسبة لنا كل ما هو أجمل، ونحن مدينون له بدين عميق من العرفان بالجميل

ومرت على وجه كيتي خفقة ابتسامة الآن، لكنها لم تقل شيئاً. بدا أن الأم الرئيسة تفكر ثم نهضت واقفة على قدميها:

إنه لأمر طيب جداً منك. أعتقد أنني أستطيع أن أجد عملاً تقومين به. أصبح من المستحيل علينا الآن أن نقوم بالعمل كله وقد سُلبت منا الأخت القديس فرانسيس. متى ستكونين مستعدة للبدء؟

- الآن -

- ساعة مناسبة. يسعدني أن أسمعكِ تقولين ذلك -

- أعدكِ أن أبذل قصارى جهدي. إنني ممتنة جداً لكِ للفرصة التي تتيحنيها لي -

فتحت الأم الرئيسة باب قاعة الاستقبال، لكنها ترددت وهي تخرج وألقت على كيتي ثانية نظرة طويلة متفحصة ودارسة. ثم وضعت يدها بلطف على ذراعها

أنتِ تعرفين يا طفلي العزيزة أن الإنسان لا يستطيع أن يجد السلام في العلم أو في اللهو، -
في الدنيا أو في الدير، لكنه يجده فقط في نفسه

أجفنت كيتي قليلاً، لكن الأم الرئيسة مرت بها خارجة من الغرفة بخفة

* * *

وجدت كيتي العمل منعشاً لروحها. فهي تذهب إلى الدير كل صباح بعد شروق الشمس بوقت قصير، ولا تعود إلى البنجالو إلا حين تغمر الشمس المتجهة إلى الغرب النهر الضيق وزوارقه المزدحمة فيه بالذهب. ووضعت الأم الرئيسة الأطفال الصغار تحت رعايتها. كانت أم كيتي قد جلبت إلى لندن من موطنها ليفربول شعوراً بالتدبير المنزلي، وكانت لدى كيتي دائماً موهبة معينة كانت تشير إليها بلهجة مازحة فقط، بالرغم من جو الاستهتار الذي كان يُحيط بها. وهكذا كان يمكنها أن تطبخ بشكل جيد تماماً وتخيظ بشكل جميل، وحين كشفت هي عن هذه الموهبة، عُينت لتشرف على خياطة وتطريز الفتيات الصغيرات. كُنَّ يعرفن القليل من الفرنسية، فأخذت تلتقط بضع كلمات من اللغة الصينية كل يوم، حتى لم يعد من الصعب عليها أن تتدبر أمرها. وكان عليها في أوقات أخرى أن ترى أن الأطفال الصغار لا يتورطون بأعمال سيئة، فكان عليها أن تلبسهم ملابسهم وتخلعها لهم وتراعي أن يأخذوا قسطاً من الراحة حين يحتاجون إليها. كان هناك الكثير جداً من الأطفال الرضع، وكان هؤلاء في رعاية الخادמות. لكن طُلب منها أن تبقىهم تحت مراقبتها. ولم يكن أيُّ من العاملين مهمّاً. وكانت تود أن تقوم بعمل يحتاج إلى بذل جهد أكبر، لكن الأم الرئيسة لم تولي توسلاتها اهتماماً، فوفقت كيتي وهي تشعر بالرهبة منها إلى حد منعها من الإلحاح عليها.

كان عليها في الأيام القليلة الأولى أن تبذل جهداً للتغلب على الاشمزاز الطفيف الذي كانت تشعر به نحو هؤلاء الفتيات الصغيرات في بذلاتهن القبيحة، وشعورهن السوداء المتببسة، ووجوههن الصفراء المدورة وأينهن المحدقة السوداء الداكنة. لكنها تذكرت النظرة الناعمة التي حوّلت ملامح الأم الرئيسة وأضفت عليها جمالاً حين وقفت وقد أحاطت بها تلك الأشياء الصغيرة القبيحة عند زيارة كيتي للدير لأول مرة، فلا تسمح كيتي حينها لنفسها أن تستسلم لغريزتها. والآن وبينما كيتي تأخذ بين ذراعيها واحدة أو أكثر من تلك المخلوقات الدقيقة، الباكية بسبب سقوطها أو كسر سننها، وحين وجدت أن بضع كلمات رقيقة، مع أنها كلمات في لغة لا يستطيع الطفل فهمها، وأن ضغط ذراعيها ورقة وجنتيها على الوجه الأصفر الباكي، كان يمكن أن يدخل الراحة والعزاء في نفس هذه المخلوقة، بدأت كيتي تفقد شعورها بالاستغراب. وأخذ الأطفال الصغار يأتون إليها، بلا خوف منها، بمتاعبهم الطفولية، فبثت كسبها لثقتهم فيها سعادة غريبة

في نفسها، وكان الحال كذلك مع الفتيات الأكبر سنًا، اللواتي كانت تعلمهن الخياطة، فكانت ابتسامتهن المشرقة الذكية وسرورهن الذي كان يمكنها إثارتها في نفوسهن بكلمة مديح، يمس شغاف قلبها، شعرت بأنهن يحبينها، فأحبتهن بالتالي، وخامرها شعور بإشباع الغرور والفخر.

لكن كانت هناك طفلة واحدة لم تتمكن من التقرب منها. كانت طفلة صغيرة في السادسة من عمرها، ساذجة برأس متضخم بمرض استسقاء الماء، يتأرجح بتثاقل على جسد قصير بدين، ولها عينان خاويتان وفم يسيل لعابه، وتتكلم بصوت أجش بضع كلمات مدممة، وهي مثيرة للاشمئزاز ومخيفة، وقد تعلقت بسبب من الأسباب تعلقًا أبلى بكيتي. فكانت تتبعها من مكان إلى آخر وهي تغير مكان وجودها من جزء من الغرفة الكبيرة إلى جزء آخر. وتتشبث بتنورتها وتمسح وجهها على ركبتيها وتبحث عن يديها لتعبت بهما، فترتجف كيتي باشمنزاز. إن كيتي تعرف أنها تهفو إلى المداعبات، لكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على لمسها.

وتكلمت ذات مرة مع الأخت القديس جوزيف، وقالت إنه مما يدعو للرتاء أنها على قيد الحياة. فابتسمت الأخت ومدت يدها إلى الشيء المشوه الشكل، فأقبلت نحوها وحكت جبهتها: البارزة عليها. قالت الراهبة:

مخلوق مسكين صغير. لقد أحضرت إلى هنا وهي تحتضر تقريبًا، وكنت عند الباب عندما حضرت إلى هذا المكان، وكان ذلك رحمة من العناية الإلهية، فرأيت أنه لم يكن هناك أي لحظة نضيعها، فعمدتها في الحال. لن تصدقي ما واجهناه من متاعب لإبقائها معنا. وخُيل لنا ثلاث أو أربع مرات أن روحها الصغيرة ستهرب إلى السماء.

سكتت كيتي. وأخذت الأخت القديس جوزيف تتكلم بطريقتها الثرثرة عن أمور أخرى. وعندما اقتربت منها الطفلة البلهاء في اليوم التالي ولمست يدها. ضغطت كيتي على أعصابها ووضعت يدها على الجمجمة العارية مداعبة إياها، وأجبرت شفيتها على الابتسام، لكن الطفلة تركتها فجأة بحماقة بلهاء، فقد بدا أنها فقدت الاهتمام بها، ولم تعرها أي اهتمام في ذلك اليوم ولا في الأيام التالية. لم تعرف كيتي ما فعلته، فحاولت أن تغريها بالابتسامات والإشارات، لكنها ابتعدت عنها وتظاهرت أنها لم ترها.

* * *

ولأن الراهبات كن مشغولات من الصباح حتى المساء بمئات الواجبات، كانت كيّتي نادراً ما تقابلهن إلا عند الصلاة في الأبرشية المتواضعة العارية. وفي يومها الأول لمحتها الأم الرئيسة جالسة في المؤخرة خلف الفتيات الجالسات على المقاعد الخشبية الصغيرة حسب أعمارهن. فوقفت الأم الرئيسة وتكلمت إليها. قالت:

يجب ألا تفكري أن من الضروري عليك أن تأتي إلى الأبرشية عندما نحضر إليها نحن. فأنت - بروتستانتية ولك معتقداتك الخاصة

لكنني أحب أن آتي أيتها الأم، فأنا أجد أن هذا يريحني -

:أقلت عليها الأم الرئيسة نظرة سريعة للحظة، ثم أمالت رأسها الوقور قليلاً

ستفعلين طبعاً ما تختارينه بالضبط. أردت فقط أن أفهمك أنك لست ملزمة بأي التزام -

لكنها سرعان ما أصبحت تحس مع الأخت القديس جوزيف لا بالود بل ربما بالألفة. وكان اقتصاد الدير تحت مسؤوليتها، فكانت العناية بأمور الرفاهية المادية لتلك الأسرة الكبيرة تُبقي هذه الأخت واقفة على قدميها طوال النهار. وقد قالت إن الوقت الوحيد الذي تأخذ فيه قسطاً من الراحة هو الوقت المخصص للصلاة. لكنها كان يسعدها أن تدخل الحجرة والوقت يقترب من المساء عندما تكون كيّتي مع الفتيات وهن يعملن. فتجلس لمدة بضع دقائق وتأخذ بالثرثرة والقبل والقال بعد أن تكون قد أقسمت بأنها كانت منهكة القوى وأن ليس لديها أي لحظة تضيعها. فعندما لا تكون في حضرة الأم الرئيسة تكون مخلوقة ثرثرة ومرحة ومغرقة بالمزاح ولا تكره القليل من الفضايح. ولم تشعر كيّتي نحوها بأي خوف، كما لم تمنع هذه العادة الأخت من أن تكون امرأة رانقة المزاج ولطيفة. فتثرثر معها بمرح. لم تكن تبالي بأن تريها مدى السوء الذي تتكلم به الفرنسية، فكانتا تضحكان معاً على أخطاء كيّتي، وعلمتها الأخت كل يوم بضع كلمات صينية مفيدة. كانت ابنة مزارع وكانت الفلاحة لا تزال في قلبها. قالت:

اعتدت على رعاية الأبقار عندما كنت صغيرة، كالقديسة جان دارك، لكنني كنت شريرة إلى حد لا يسمح لي أن أرى رؤى. أظن أنني كنت محظوظة لأن والدي كان سيسوطني بالتأكيد لو ظهرت لي الرؤى. لقد تعود أن يضربني بالسوط كثيراً. العجوز الطيب، فقد كنت فتاة صغيرة مغرورة. إنني أحجل أحياناً عندما أفكر الآن في المقابل التي كنت أدبرها

ضحكت كيتي من التفكير بأن هذه الراهبة البدينة البالغة منتصف العمر كان يمكن أن تكون طفلة جامحة. ومع ذلك فلا زال فيها شيء طفولي مما يجعل قلبك يميل إليها. يبدو أنه يحيط بها عبير المناطق الريفية في الخريف عندما تكون أشجار التفاح محملة بالثمار والمحاصيل التي أدخلت وُخزنت بأمان. لم يكن لها قدسية الأم الرئيسية المأساوية والوقور، بل مرح كان بسيطاً ومبهجاً.

سألتها كيتي:

ألا ترغبين أن تعودي إلى الوطن ثانية يا أختاه؟ -

أوه، لا. سيكون من الصعب جداً أن أعود. إنني أحب أن أكون هنا، ولم أكن سعيدة قط كما - أنا سعيدة عندما أكون بين اليتامى. إنهم طيبون، شاكرون جداً. لكن الأفضل أن تكوني راهبة، فلا يزال للإنسان أم ولا يستطيع أن ينسى أنه رضع من حليب ثديها إنها عجوز، أقصد أمي ومن الصعب ألا أراها ثانية، لكنها الآن تحب كنتها، وأخي طيب معها، إن ابنه يكبر الآن وأعتقد أنهم سيكونون مسرورين لانضمام ذراعين قويتين إضافيتين إلى المزرعة. لقد كان طفلاً عندما غادرت فرنسا لكنه واعد أن تكون له قبضة يمكنه أن يصرع بها ثوراً.

كان تقريباً من المستحيل في تلك الحجرة الهادئة وأنت تصغي إلى الراهبة أن تدرك أن الكوليرا تتفشى في الجانب الآخر من هذه الجدران الأربعة. كانت الأخت تتمتع بشعور من اللامبالاة انتقل إلى كيتي.

إنها تتمتع بفضول ساذج حيال العالم وسكانه، فقد سألت كيتي كل أنواع الأسئلة عن لندن وإنجلترا والتي ظنت أنها بلاد فيها الضباب كثيف إلى درجة أنك لا تستطيع أن ترى يدك في منتصف النهار، وأرادت أن تعرف إذا كانت كيتي قد ذهبت إلى المراقص، وما إذا كانت تعيش في بيت كبير، وكم عندها من الإخوة والأخوات، كثيراً ما تكلمت عن ولتر. وقد قالت الأم الرئيسية أنه كان مدهشاً وأنهن يصلين من أجله كل يوم. ويا لمدى حظ كيتي أن يكون لها زوج على هذه الدرجة من الطيبة والشجاعة والذكاء.

* * *

لكن الأخت القديس جوزيف كانت لا تفتأ تعود إلى موضوع الأم الرئيسة عاجلاً أو آجلاً. وكانت كيبي قد عرفت منذ البداية أن شخصية هذه المرأة تسيطر على الدير. وكان كل الذين يقيمون هناك ينظرون لها نظرة حب وإعجاب بشكل أكيد، لكنه حب وإعجاب تشوبهما رهبة وغير قليل من الخوف، وبالرغم من عطفها إلا إن كيبي نفسها كانت تشعر بنفسها كتلميذة مدرسة في حضورها. فلم تكن على طبيعتها تماماً أمامها، فقد كانت ممتلئة بعاطفة غريبة إلى درجة أنها أربكتها. الاحترام. وقد حدثت الأخت القديس جوزيف كيبي -تدفعها رغبة ساذجة لكي تؤثر عليها- عن مدى عظمة الأسرة التي كانت الأم الرئيسة تنتمي إليها، فإن أجدادها أشخاص يتمتعون بأهمية تاريخية، وإنها كانت على صلة قرابة بعيدة مع نصف الملوك في أوروبا، فالفونسو ملك إسبانيا اصطاد في أملاك أبيها ولديهم قصور في جميع أنحاء فرنسا، ولا بد أنه كان من الصعب ترك فخامة عظيمة كهذه. أصغت كيبي لها وهي تبسم دون أن تتأثر حتى ولا قليلاً.

قالت الأخت:

عليك أن تنظري إليها فقط؛ لتري أن عائلتها ظاهرة عليها -

قالت كيبي:

لديها أجمل يدين رأيتهما في حياتي -

!آه لكنك لو عرفت كيف تستعملهما. إنها لا تخاف من العمل، أمنا الطيبة -

عندما حضرنا إلى المدينة لم يكن فيها أي شيء. فبني الدير، وكانت الأم الرئيسة هي التي خططت وأشرفت على العمل. وفي اللحظة التي وصلنا فيها، بدأنا في إنقاذ الفتيات الصغيرات المسكينات غير المرغوب فيهن من برج الأطفال وأيدي القابلات القاسية. ولم يكن لديهن في البداية أي أسرة لينمن عليهن، ولا زجاج يمنع دخول هواء الليل (قالت الأخت: «لم يكن هناك أي شيء أكثر ضرراً بالصحة»)، وكثيراً ما كن بلا مال، ليس فقط للدفع للبنات، بل حتى لشراء طعامهن البسيط، وعشن كفلاحات، وماذا كانت تقول؟ إن الفلاحين في فرنسا، الرجال الذين يعملون عند أبيها كانوا سيلقون الطعام الذي كن يأكلنه إلى الخنازير. ثم كانت الأم الرئيسة تجمع بناتها حولها، فكن يركعن ويصلين، فإذا العذراء المباركة ترسل إليهن المال. فألف فرنك تصل

ببريد اليوم التالي أو عن طريق غريب، رجل إنجليزي (بروتستانتى إذا سمحت)، أو حتى أن صينيًا سيقرع الباب بينما هن راكعات حقًا ويحضره لهن هدية. كن ذات مرة في ضيق إلى حد أنهن أقسمن كلهن للعدراء المباركة أن يرددن صلاة تمجيدًا لشرفها إذا هي أنقذتھن، وهل ستصدقين؟ حضر مستر وادينجتون المرح ذلك ليزورنا في اليوم التالي قائلاً بأننا نبدو كأننا كلنا بحاجة إلى طبق لحم بقر مشوي شهوي، ثم أعطانا مائة دولار

يا له من رجل صغير مضحك، برأسه الأصلع وبعينيه الصغيرتين الماكرتين وبنكاته، يا إلهي! يا للطريقة التي يقتل بها اللغة الفرنسية، ومع ذلك لا تستطيعين منع نفسك من الضحك عليه. لقد كان دائمًا في مزاج رائق، وقد قضى طيلة فترة هذا الوباء الرهيب كأنه يستمتع بإجازة. إن له قلبًا فرنسيًا تمامًا وبديهة تجعلك بالكاد تصدقين أنه رجل إنجليزي، باستثناء لكنته. لكن الأخت القديس جوزيف ظنت أحيانًا بأنه يتكلم بلغة ركيكة عن قصد ليثير الضحك. إن أخلاقه ليست الأخلاق التي يرغب الإنسان في أن تكون عليه، لكن ذلك شأنه (وبتتهيدة وهزة كتف وهزة رأس) وهو شاب و أعزب

:سألت كيتي مبتسمة

ما العيب في أخلاقه يا أختاه؟ -

أمن الممكن أنك لا تعرفين؟ إنها خطيئة مني أن أخبرك. ليس من شأني أن أقول أشياء كهذه. إنه يعيش مع امرأة صينية، وهذا يعني، ليست امرأة صينية، بل امرأة من المانشو. يبدو أنها أميرة، وهي تحبه إلى حد الجنون

:صاحت كيتي

يبدو ذلك مستحيلًا تمامًا -

لا، لا، أقسم لك أن هذا صحيح تمامًا. إن هذا لأمر شرير للغاية يقدم عليه. فتلك الأفعال لا تُمارس. ألم تسمعي بأنه لم يستطع أن يأكل المادلين التي صنعتها أنا وذلك حين حضرت إلى الدير أول مرة، حتى إن أمنا الطيبة قالت إن معدته فسدت من طبخ المانشو؟ كان ذلك ما قصدته، وكان عليك أن تري الانطباع الذي ارتسم على وجهه. إنها قصة عجيبة. يبدو أنه كان في هانكو أثناء الثورة حينما كانوا يذبحون المانشو، وأنقذ وادينجتون الصغير الطيب هذا حياة إحدى أسرهم الكبيرة، إنها تمتّ بصلة قرابة للأسرة الإمبراطورية، فهامت الفتاة بحبه و- حسنًا،

يمكنك تخيل باقي القصة. وعندما غادر هانكو هربت وتبعته وهي الآن تتبعه إلى كل مكان، وقد ساس نفسه على أن يُبقيها معه، المسكينة، ويمكنني أن أقول إنه مولع بها جداً، وهن فائنات تماماً أحياناً، نساء مانشو هؤلاء، لكن، ما الذي أفكر فيه؟ لدي ألف عمل لا بد أن أقوم به، وها أنا أجلس هنا. إنني متدينة سيئة. إنني خجلة من نفسي

* * *

سيطر على كيتي إحساس غريب في أنها تتطور. فقد صرف الانشغال المستمر عقلها وأيقظت اللحاحات التي ألقته على حياة الآخرين ووجهات نظرهم خيالها. وأخذت تستعيد روحها المعنوية، فشعرت بأنها في حال أحسن و أقوى. لقد بدا لها أنها لا يمكنها أن تفعل شيئاً الآن إلا أن تبكي، لكنها انتبهت إلى نفسها بأنها تضحك على هذا وذاك. الأمر الذي أثار دهشتها وقليلًا من تشوش ذهنها. وأخذ يبدو أن من الطبيعي جدًا أن تعيش وسط الوباء المروع. وعرفت أن الناس يموتون عن يمينها ويسارها، لكنها كفت تمامًا عن التفكير في الموت. وقد منعتها الأم الرئيسة من دخول المصحات وأثارت الأبواب المغلقة فضولها. وددت أن تختلس النظر إلى داخل هذه المصحات، لكنها لم تفعل ذلك دون أن يراها أحد، ولم تعرف أي عقوبة ستوقعها الأم الرئيسة عليها. فسيكون من المرعب أن يبعدها عن الدير. فقد كرّست نفسها للأطفال الآن، وسيفتقدونها إن هي ذهبت، وهي لا تعرف حقًا ما سيفعلونه من دونها.

وأدركت ذات يوم أنها لم تفكر بشارلي تاونسيند، ولا حلمت به مدة أسبوع. وخبط قلبها أضلعها فجأة. لقد شفيت. إنها تستطيع الآن أن تفكر فيه بلا مبالاة. لم تعد تحبه. أوه. الارتياح والشعور بالتححرر! كان من الغريب أن تلتفت إلى الماضي وتتذكر مدى العاطفة التي كانت تشتاق بها إليه. فقد ظنت أنها كانت ستموت حين يخذلها، وفكرت أن ليس في الحياة من الآن فصاعدًا أي شيء لتقدمه إليها سوى البؤس. وها هي الآن تضحك. مخلوق عديم النفع. يا للبلاهة التي أوصلت نفسها إليها! وفيما هي تفكر الآن فيه بهدوء استغربت متسائلة عما رأته فيه بحق الأرض. كان من حسن الحظ أن وادينجتون لا يعرف شيئًا، وإلا ما كانت تستطيع احتمال حملته الخبيثة وغمزاته الساخرة. لقد أصبحت حرة، حرة أخيرًا، حرة! ولم تتمالك نفسها من الضحك بصوت عالٍ إلا بصعوبة.

كان الأطفال يلعبون لعبة صاخبة، وكانت من عاداتها أن تراقبهم بابتسامة متسامحة، كابحة جماحهم حين يطلقون الكثير جدًا من الضجة، ومراعية ألا يتضرر أحد من ضجيجهم. لكنها الآن، وهي في روح معنوية عالية وتشعر أنها صغيرة كأي منهم. انضمت إليهم في اللعبة. استقبلتها الفتيات الصغيرات بسرور، فطاردتها هنا وهناك في الحجرة، صارخات بأعلى أصواتهن الحادة،

بمرح خيالي وبربري تقريباً، واشتد بهن الانفعال، حتى إنهن قفزن في الهواء فرحات، كانت الضجة رهيبية.

فجأة فُتح الباب ووقفت الأم الرئيسة على العتبة، وخلصت كيتي والخجل يسيطر عليها نفسها من قبضات عشرات من البنات الصغيرات، اللواتي أمسكن بها صارخات صرخات عنيفة

:سألت الأم الرئيسة وابتسامة على شفيتها

هل هذه هي الطريقة التي تحافظين بها على هدوء وحسن سلوك هؤلاء الأطفال؟ -

كنا نلعب لعبة أيتها الأم. لقد انفعلن. إنها غلطتي وقد دفعتهن إلى هذا -

تقدمت الأم الرئيسة منهن فتزاحم الأطفال حولها كما هي العادة. فوضعت يديها حول أكتافهن الضيقة وجذبت آذانهن الصفراء الصغيرة مداعبة. نظرت إلى كيتي نظرة طويلة ورقيقة. فتضرج وجه كيتي محمراً خجلاً وأطلقت أنفاساً سريعة. وأخذ سائل عينيها يلمع، بينما تشعث شعرها الجميل وأصبح في حالة فوضى جميلة أثناء الصراع والضحك.

:قالت الأم الرئيسة

أنت جميلة يا طفلي العزيزة. إن رؤيتك تثير البهجة في القلب. فلا عجب أن يعبدك هؤلاء الأطفال.

احمرّ وجه كيتي بعمق وترقرقت الدموع من عينيها فجأة دون أن تعرف السبب، وغطت وجهها بيدها

:أو أيتها الأم. أنت تخجليني -

لا تخجلي، لا تكوني سخيقة، فالجمال أيضاً هبة من الله. واحد من أندر وأعلى هباته، -
وسنكون شاكرين إذا كنا سعداء سعادة كافية أن يكون لدينا هذا الجمال، وشاكرين أيضاً أن يتمتع الآخرون بهذا الجمال لبثّ البهجة في نفوسنا، إن لم نكن نحن نتمتع بهذا الجمال

.ابتسمت ثانية كأن كيتي كانت طفلة أيضاً، فربتت على وجنتها الناعمة برفق شديد

* * *

منذ أن بدأت كيتي تعمل في الدير، صارت ترى وادينجتون أقل من السابق. فقد حضر مرتين أو ثلاث مرات إلى ضفة النهر ليقابلها ومشيا معاً صاعدين التل. ودخل البيت ليشرّب ويسكي بالصودا، لكنه نادراً ما كان يبقى للعشاء. ومع ذلك، وفي يوم أحد، اقترح أن يتناول الغداء معها ويستقلا محفتين إلى دير بوذي. وكان الدير يقع على بعد عشرة أميال من المدينة ويتمتع بسمعه كمكان للحج. وكانت الأم الرئيسة، التي تصر على أن تأخذ كيتي يوم راحة، لا تتركها تعمل في أيام الأحد، بينما ظل ولتر مشغولاً كما هي العادة طبعاً.

انطلقا في ساعة مبكرة من الصباح حتى يصلا قبل حرارة النهار، فحُملا على ممر ضيق بين حقول الأرز. ومرا من وقت إلى آخر ببيوت ريفية استكانت بحميمية ودية في غابة من أشجار الخيزران. واستطابت كيتي الخمول، فقد كان مبهجاً أن ترى ما حولها في الريف الواسع، بعد أن ظلت محبوسة في المدينة. وصلا إلى الدير البوذي الذي يعلو مباني خفيضة تنتصب إلى جانب النهر تظللها أشجار بشكل جميل، وقادهما كهنة مبتسمون في أنحاء أفنية خالية خلواً مهيباً، وأروهما المعابد وما فيها من آلهة عابسة. وفي المحراب جلس بوذا، بعيداً وحزيناً، كنيباً، ذاهلاً ومبتسماً ابتسامة طفيفة. وأحاط بكل شيء شعور بالكآبة. وكانت روعة المكان مهلهلة وخربة، والآلهة مغبرة، والإيمان الذي صنعها يحتضر. وبدا أن الرهبان باقون على مضض، كأنهم ينتظرون إشعاراً بالمغادرة، وكانت في ابتسامة رئيس الدير، بأدبه الشديد، سخرية استسلام. وفي أحد هذه الأيام سيتجول الرهبان مبتعدين عن الغابة الظليلة المبهجة، وستقوض عواصف هوجاء المباني المنهارة والمهملة، وتحاصرها الطبيعة المحيطة بها. وستلف النباتات المعرّشة البرية نفسها حول الصور الميتة وستنمو الأشجار في الأفنية. ثم لن تعود الآلهة تقيم هناك، بل ستقيم هناك أرواح الظلام الشريرة.

* * *

جلسا على درجات مبنى صغير (أربعة أعمدة مطلية وسقف عالٍ مبطن ينتصب تحته جرس برونزي كبير)، وراقبا النهر يتدفق متكاسلاً حيث الكثير من المنعطفات، متجهًا صوب المدينة الموبوءة. كان يمكنهما أن يريا جدران المبنى بشرفات إطلاق النار فيهما. وتعلقت الحرارة فوقه كطيلسان. وكان لا يزال في النهر الذي يتدفق ببطء على الرغم من ذلك، شعور بالحركة يثير في الإنسان شعور كأبة بسرعة زوال الأشياء. فكل شيء يمضي وأي أثر يبقى بعد مضيهِ؟ بدا لكيّتي أنهم كلهم، العنصر البشري، يشبهون قطرات ماء تتدفق إلى الأمام في ذلك النهر، وكل قطرة منها لصق الأخرى ومنفصلة عن بعضها في نفس الوقت، مكونة طوفاناً لا اسم له نحو البحر، وحين تستمر كل الأمور لفترة قصيرة من الزمن، وحين لا يكون هناك أي شيء ذا أهمية كبيرة، يبدو أنه من المثير للرتاء أن يعلّق الناس أهمية سخيّة على الأمور التافهة، فيشقون أنفسهم ويشقى أحدهم الآخر إلى حد كبير.

:سألت وادينجتون وابتساماً ترتسم في عينيها الجميلتين

- هل تعرف حدائق هارينجتون؟ -

- لا، لماذا؟ -

- لا شيء، إنها بعيدة جداً من هنا، إنها المنطقة التي يعيش فيها أهلي -

- أتفكران في العودة للوطن؟ -

- لا -

- أظن أنكما سترحلان عن هنا خلال شهرين، فالوباء يبدو أنه يخفّ وسينهيهِ الطقس البارد -

- أكاد أظن أنني سأسّف على مغادرة هذا المكان -

وفكرت للحظة من الزمن في المستقبل. لم تعرف ما هي الخطط التي تدور في عقل ولتر، فهو لم يُخبرها بشيء، فقد كان بارداً، وموذباً وصامتاً وغامضاً. إنهما نقطتان صغيرتان في ذلك النهر المتدفق بصمت نحو المجهول. نقطتان تبدوان لهما وقد اكتسبت كل منهما فردية شديدة. التميز عن الأخرى وتبدوان للمشاهدين جزءاً لا ينفصل عن الماء.

:قال وادينجتون بابتساماً خبيثة

- احذري أن تبدأ الراهبات في تحويلك إلى مذهبهن -

إنهن أكثر انشغالا من أن يقمن بذلك. وهن لا يهتمن بهذا. إنهن مدهشات ولطيفات للغاية، - ومع ذلك - لا أكاد أعرف كيف أفسر هذا- هناك جدار بيني وبينهن. أنا لا أعرف ما هو. كأن لديهن سر أدى إلى كل الفرق في حياتهن وأنا لست جديرة بمشاركتهن فيه. إنه ليس إيمانا، إنه شيء أعمق وأكثر- أكثر أهمية. إنهن يتحركن في عالم يختلف عن عالمنا، وسنكون دائما غرباء بالنسبة إليهن. وأنا أشعر كل يوم عندما يغلق الدير أبوابه خلفي، بأنني كفتت عن الوجود بالنسبة لهن.

رد عليها ساخرًا

.إنني أفهم! إن هذا يشكل صدمة لغرورك إلى حد ما -

-!غروري؟-

.هزت كيتي كتفيها ثم ابتسمت مرة أخرى، والتفتت إليه بكسل.

لماذا لم تقل لي أبدًا إنك تعيش مع أميرة من أسرة مانشو؟ -

ما الذي كانت تحكيه لك تلك النساء العجائز الثرثارات؟ أنا متأكد من أنه من الخطيئة على -

.راهبات أن يخضن في شؤون موظفي الجمارك الخاصة

لماذا أنت شديد الحساسية إلى هذا الحد؟ -

.غضّ وادينجتون بصره ونظر جانبًا، مما أضفى عليه جو من الخبث وهز كتفيه هزة خفيفة.

.إنه ليس أمرًا للدعاية، ولا أعرف أنه سيضيف إضافة كبيرة لفرص ترقيتي في الخدمة -

- هل أنت متيم بها؟ -

.رفع نظره الآن، وارتسمت على وجهه الصغير القبيح نظرة تلميذ مدرسة شقي

لقد هجرت كل شيء من أجلي. البيت، الأسرة، الأمن، واحترام الذات. لقد مرت سنوات -

كثيرة الآن منذ أن ألقيت بكل شيء للرياح لكي تكون معي. لقد أرسلت بها بعيدًا مرتين أو ثلاث

مرات. لكنها كانت تعود دائمًا، وقد هربت منها أنا نفسي، لكنها تبعنتني دائمًا. وها أنا الآن أتخلى

.عن هذا كعمل سيئ. وأظن أنني يجب أن أحتملها بقية عمري

.لا بد أنها تحبك حقًا إلى حد الجنون -

:أجاب مقطبًا جبهة ترتسم عليها الحيرة

إنه إحساس مضحك إلى حد ما، كما تعرفين، ليس لديّ أدنى شك أنها ستنتحر بالتأكيد إن أنا - هجرتها حقاً، ولن تنتحر وهي تشعر بأي شعور سيئ نحوي، بل ستفعل ذلك بشكل طبيعي جداً؛ لأنها غير راغبة في أن تعيش من دوني. إنه شعور غريب تثيره في الإنسان معرفته لذلك. ولا يمكن إلا أن يعني شيئاً بالنسبة إليك

لكن المهم هو أن يحب الإنسان، وليس أن يكون محبوباً، فالإنسان ليس حتى يمتن للناس - الذين يحبونه، فإن كان الإنسان لا يحبهم فإنهم سيثيرون الملل في نفسه.

أجاب:

ليست لديّ خبرة بالناس، فخبرتي فردية فقط -

أهي حقاً أميرة من الأسرة الإمبراطورية؟ -

لا، فهذه مبالغة رومانسية من الراهبات. إنها تنتمي إلى واحدة من الأسر العظيمة للماتشو، - لكن الثورة دمرتهم طبعاً، ومع ذلك فهي سيدة عظيمة جداً

وذكر هذا بلهجة فخر، فبانت ابتسامة في عيني كييتي

هل ستقيم هنا باقي عمرك إذن؟ -

في الصين؟ نعم. ما الذي سأفعله في مكان آخر؟ وعندما أتقاعد سأأخذ بيتاً صينياً صغيراً في - بكين، وأقضي بقية أيامي هناك

هل عندك أطفال؟ -

لا -

نظرت إليه بفضول. كان من الغريب أن هذا الرجل الصغير أصلع الرأس بوجهه الشبيه بالقرد أثار في المرأة الغريبة عاطفة مدمرة كهذه. لم تعرف لماذا أثارت فيها الطريقة التي تكلم بها عنها - بالرغم من سلوكه العرضي وتعبيراته المستخفة - انطباعاً بهذه القوة عن وفاء المرأة: الشديد والفريد. أزعجها هذا قليلاً، وابتسمت ثم قالت

يبدو أن المسافة إلى حدائق هارينجتون طويلة جداً -

لماذا تقولين هذا؟ -

أنا لا أفهم شيئاً. فالحياة غريبة جداً. أشعر كأنسان عاش طوال حياته إلى جانب بركة بط ثم - أرى البحر فجأة. إن هذا يجعلني منقطعة الأنفاس قليلاً، ومع ذلك فهو يملؤني بالمعنويات العالية.

إنني لا أريد أن أموت. أريد أن أعيش. وقد بدأت أشعر بشجاعة جديدة. إنني أشعر كأحد هؤلاء البحارة القدماء الذين يبحرون بحثاً عن البحار غير المكتشفة. وأعتقد أن روحي تتوق توقاً كبيراً للمجهول.

نظر وادينجتون إليها متأملاً، واستقرت تحديقتها الشاردة على نعومة النهر. قطرتان صغيرتان تندفعان بصمت، بصمت نحو البحر الأبدي المظلم.

:سألت كيتي فجأة وهي ترفع يدها

- هل أحضر لأرى سيدة المانشو؟ -

- إنها لا تستطيع أن تتكلم كلمة إنجليزية -

- لقد كنت لطيفاً جداً معي. لقد قمت بالكثير من أجلي. ربما يمكنني أن أريها بأسلوبي الخاص -

.بأنني أكنُّ لها شعوراً ودياً

:ابتسم وادينجتون ابتسامة صغيرة ساخرة، لكنه أجاب بمزاج رائق

.ساتي وأخذك في أحد الأيام وستقدم لك كوب شاي بالياسمين -

لم تكن لتخبره أن قصة حب غريبة كهذه قد أثارت خيالها بشكل غريب من أول لحظة. وقد وقفت أميرة المانشو الآن كرمز لشيء يشير إليها بغموض وإحاح في نفس الوقت. إنها تشير إشارة مبهمة إلى أرض سرية للروح

* * *

لكن كيتي اكتشفت اكتشافاً غير متوقع بعد يوم أو يومين

فقد ذهبت للدير كالعادة، وبدأت تقوم بأول أعمالها وهو التأكد من أن الأطفال كانوا قد اغتسلوا وارتدوا ملابسهم. وحيث إن الراهبات كن يعتقدن أن هواء الليل يضر. فقد كان الجو داخل المهاجع مغلقاً وكريه الرائحة. وكان هذا يجعل كيتي بعد انتعاش الصباح منزعة قليلاً، فتسارع بفتح أكبر عدد من النوافذ التي تستطيع فتحها، لكنها شعرت اليوم بإعياء شديد فوقفت عند النافذة ورأسها يترنح سابقاً محاولة أن تهدئ نفسها. لم تكن بمثل هذا السوء من قبل. ثم غلبها الغثيان فتقيأت. وأطلقت صرخة، فخاف الأطفال، وأسرعت إليها الفتاة الكبيرة التي كانت تساعدها. لكنها توقفت فجأة بعد أن رأت كيتي بيضاء الوجه ترتجف، وأطلقت صيحة دهشة: كوليرا! ومضت الفكرة متخللة عقلها وسيطر عليها إحساس شبيه بالموت ثم تملكها رعب، وكافحت للحظة ضد الليل الذي بدا أنه يتخلل عروقها بسرعة وألم مبرح، وشعرت بالمرض بشكل مرعب، ثم حلّ الظلام

عندما فتحت عينيها، لم تعرف في البداية أين كانت. بدا أنها تستلقى على الأرضية وتحرك رأسها تحريكاً طفيفاً، وخُيل إليها أن تحتها وسادة. لم تستطع أن تتذكر. كانت الأم الرئيسة تركع إلى جانبها مقربةً أملاح النشادر إلى أنفها، بينما وقفت الأخت القديس جوزيف ناظرة إليها. ثم عادت: كوليرا! رأت العبوس على وجوه الراهبات وبدأت الأخت القديس جوزيف هائلة الحجم كما بدأت معالمها مغبشة، وسيطر عليها الرعب ثانية. بكت قائلة:

أوه أيتها الأم، يا أمي، هل سأموت؟ لا أريد أن أموت -

قالت الأم الرئيسة:

طبعاً لن تموتي -

كانت هادئة تماماً وفي عينيها مرح

لكنها الكوليرا. أين ولتر؟ هل أرسلتم له؟ أوه أيتها الأم، يا أمي -

وانفجرت في فيض من الدموع. مدت الأم الرئيسة يدها فأمسكتها كيتي كأنها تقبض على الحياة التي كانت تخشى أن تفقدها.

تشجعي، تشجعي يا طفلي العزيزة. يجب ألا تكوني سخيقة. إنها ليست الكوليرا أو أي شيء - من هذا القبيل.

أين ولتر؟ -

إن زوجك مشغول جداً إلى حد أننا لن نزعجه، وخلال خمس دقائق ستتحسن صحتك تماماً -

نظرت إليها كيتي بعينين محمقتين متعبتين. لماذا تأخذ الأمر بهذا الشكل من الهدوء؟ إن هذا لقسوة.

قالت الأم الرئيسية:

اهدئي تماماً لدقيقة. ليس هناك شيء تزعجين نفسك به -

شعرت كيتي بقلبها يخفق بجنون. فقد اعتادت على التفكير بالكوليرا إلى حد أنه بدا أن من غير الممكن أن تصاب به. أوه. يا للبله الذي كانت عليه! لقد عرفت أنها ستموت. لقد كانت خائفة. أدخلت الفتيات كرسياً من الخيزران إلى الحجرة ووضعتة قرب النافذة.

قالت الأم الرئيسية:

تشجعي. لنرفعك، ستشعرين بالراحة أكثر على كرسي طويل. أتظنين بأنه يمكنك أن تقفي؟ -

وضعت يديها تحت ذراعي كيتي، وساعدتها الأخت القديس جوزيف لتقف على قدميها. فغطست في الكرسي منهكة القوى.

قالت الأخت:

الأفضل أن أغلق النافذة، لا يمكن أن يكون هواء الصباح الباكر مناسباً لها -

قالت كيتي:

لا، لا. اتركه مفتوحاً من فضلك -

لقد بثت رؤية السماء الزرقاء الثقة في نفسها، كانت مهتزة، لكنها بدأت تشعر بالتحسن بشكل أكيد. نظرت الراهبتان إليها للحظة في صمت، وقالت الأخت القديس جوزيف شيئاً إلى الأم الرئيسية لم تستطع هي أن تفهمه. ثم جلست الأم الرئيسية على جانب الكرسي وأمسكت بيدها.

اسمعي يا طفلي العزيزة -

وسألتهما سؤالاً أو سؤالين، فأجابتهما كيتي عليهما دون أن تعرف ماذا كانا يعنيان. كانت شفهاها ترتجفان إلى حد أنها لم تكن تستطيع صياغة الكلمات إلا بصعوبة.

:قالت الأخت

.لا شك في هذا. أنا لست بالتّي تُخدع في أمر كهذا -

أطلقت ضحكة بدا أن كيتي تُميز فيها انفعالاً معيناً وليس القليل من الحنان. ابتسمت الأم
.الرئيسة وهي تُمسك بيد كيتي برقة ناعمة

إن لدى الأخت القديس جوزيف خبرة في هذه الأمور أكثر مما عندي يا طفلي العزيزة، وقد -
.ذُكرت على الفور ما تعانين منه. وهي على حق تماماً بشكل واضح

:قالت كيتي بقلق

- ماذا تقصدين؟ -

إنه لأمر واضح تماماً. ألم يخطر في بالك على الإطلاق إمكانية حدوث أمر كهذا لك؟ أنتِ -
تحملين طفلاً يا عزيزتي

جفلت كيتي إلى حد أنها اهتزت من رأسها إلى قدميها، ثم وضعت قدميها على الأرض كأنها
كانت ستقف على قدميها

:قالت الأم الرئيسة

!اهدني! اهدني -

.شعرت كيتي بنفسها تتضرّج احمراراً بشكل عنيف، ووضعت يديها على نهديها

.إن هذا مستحيل. إن هذا ليس صحيحاً -

:سألت الأخت القديس جوزيف

- ماذا تقول؟ -

.ترجمت الأم الرئيسة قولها، وكان وجه الأخت البسيط العريض يشع بوجنتيها الحمرابين

.ليس من الممكن أن تكون هناك أي غلطة. أعدك وعد شرف -

:سألت الأم الرئيسة

كم مضى عليكِ وأنتِ متزوجة يا طفلي؟ لماذا، عندما تزوجت زوجة أخي ومضى عليها -

.نفس مدة زواجكِ وضعت طفلين

:غطت كيتي في الكرسي وتسلل موت إلى قلبها. همست

.إنني خجلة للغاية -

لأنك ستضعين طفلاً؟ لماذا، ما الذي يمكن أن يكون أكثر طبيعية؟ -

قالت الأخت:

يا للسرور الذي سينتاب الدكتور -

نعم، فكري بمدى السعادة التي سيشعر بها زوجك، سيسيطر عليه الفرح. ستريه فقط مع الأطفال والنظرة ترتسم على وجهه حين يلعب معهم، ستريين مدى السحر الذي سيسيطر عليه ولديه طفل من صلبه.

لبرهة قصيرة ظلت كيتي صامتة. نظرت إليها الراهبتان باهتمام رقيق ومسحت الأم الرئيسة على يدها.

قالت كيتي:

إنه لمن الغباء ألا أكون قد شككت بهذا من قبل. على كل الأحوال إنني سعيدة لأنها ليست الكوليرا، إنني أحس بالكثير من التحسن. سأعود إلى عملي

لا، ليس اليوم يا طفلي العزيزة. لقد أصبتِ بصدمة. الأفضل لك أن تعودي إلى البيت - وترجي نفسيك.

لا، لا. أفضل كثيراً أن أبقى هنا و أعمل -

إنني أصر. ما الذي سيقوله لنا طبيبنا الطيب إذا تركتك تتهورين؟ تعالي غداً، إذا أردت، أو في اليوم التالي، لكن يجب أن تهدئي اليوم. سأطلب محفة. أتودين أن أدع إحدى فتياتنا الصغار تذهب معك؟

أوه، لا. سأكون على ما يرام وحدي -

* * *

كانت كيبي مستلقية على سريرها، والمصاريع الخشبية مغلقة. كان الوقت قد تجاوز وجبة الغداء ونام الخدم. وكان ما علمته في ذلك الصباح (وهي الآن متأكدة من أن ذلك حقيقي) قد ملأها بالرعب. وقد ظلت تحاول أن تفكر بالأمر منذ أن عادت إلى البيت، لكن عقلها كان خاليًا. ولم تستطع أن تجمع أفكارها. ثم سمعت فجأة خطوة. كانت القدمان تنتعلان حذاءً، فلا يمكن أن يكون أحد الصبية الخدم، فأدركت وهي تطلق شهقة رعب أنه لا يمكن أن يكون سوى زوجها. كان في غرفة الجلوس وسمعت نداءً موجهاً إليها. لم تُجب، مرت فترة صمت ثم جاءت طرقة على بابها.

نعم؟ -

هل تسمحين لي بالدخول؟ -

:نهضت كيبي من سريرها وارتدت روبا

نعم -

دخل، كانت سعيدة لأن المصاريع الخشبية المغلقة أحاطت وجهها بالظل.

أتمنى ألا أكون قد أيقظتك. لقد طرقت طرقة خفيفًا جدًا جدًا -

لم أكن نائمة -

:اتجه إلى النوافذ وفتح المصاريع، واندفع فيض من نور دافئ إلى داخل الغرفة. سألت

ماذا هناك؟ لماذا عدت مبكرًا على هذا النحو؟ -

قالت الأخوات إنك لم تكوني بصحة جيدة جدًا. لقد فكرت أنه يحسن أن أحضر وأرى ما -

الأمر.

انتابتها ومضة من غضب.

ماذا كنت ستقول لو كانت كوليرا؟ -

لو كانت كوليرا لما استطعت أن تمضي إلى البيت هذا الصباح بالتأكيد -

اتجهت إلى منضدة الزينة ومررت المشط خلال شعرها المقصوص قصة قصيرة. أرادت أن

تكسب الوقت. ثم أشعلت سيجارة بعد أن جلست.

لم أكن في صحة جيدة هذا الصباح. وقد فكرت الأم الرئيسة أن من الأفضل أن أعود إلى -
هنا. لكنني الآن على ما يرام تمامًا. سأذهب إلى الدير غدًا كالمعتاد

- ماذا كان بك؟ -

- ألم يخبروك؟ -

- لا، قالت الأم الرئيسة إنك يجب أن تخبريني بنفسك -

وفعل ما يفعله نادرًا، تفرّس في وجهها، كانت غرائزه المهنية أقوى من غرائزه الشخصية.
ترددت ثم أجبرت نفسها على أن تقابل عينيه. قالت:

- سأضع طفلاً -

كانت قد تعودت على عادته في أن يواجه بصمت تصريحًا تتوقع توقعًا طبيعيًا أن يثير
استغرابًا. لكن تلك العادة لم تبد لها قط أكثر تدميرًا مما هي الآن. لم يقل شيئًا، لم يرقم بأي إشارة،
ولم تدل أي حركة على وجهه ولا تغيير تعبير في عينيه الداكنتين إلى أنه سمعها. شعرت فجأة
بميل للبكاء، فلو أن رجلًا يحب زوجته وتحبه زوجته لجمعت بينهما عاطفة جارفة في لحظة
كعذه. كان الصمت غير محتمل فقطعته هي

- لا أعرف لماذا لم يخطر هذا ببالي من قبل. كان غباء مني، لكن... ماذا يكون حالي وشيء -

يجري هنا وهناك

- كم مضى عليك... متى تتوقعين أن تضعي؟ -

بدا أن الكلمات تصدر من بين شفثيه بصعوبة. شعرت أن حلقة كان جافًا كحلقتها. كان من
المزعج لها أن شفثيه ارتجفتا بهذا الشكل حين تكلمت، لو أنه لم يكن حجرًا لأثارت حالها
شفثته

- أعتقد أنني كنت على هذه الحال خلال شهرين أو ثلاثة أشهر -

- هل أنا الأب؟ -

أطلقت شهقة خفيفة. خيم طيف من رجفة في صوتها، وكان من المرعب أن سيطرته الباردة
على نفسه هي التي جعلت الإشارة الصغيرة من الانفعال مدمرًا. لم تعرف السبب الذي جعلها
تفكر فجأة بأداة كانت تُعرض في هونج كونج وعليها إبرة تتذبذب قليلًا. وقد أُخبرت بأن هذه
الذبذبة تمثل هزة أرضية وقعت على بُعد ألف ميل، ولعل ألف إنسان قد فقدوا حياتهم. نظرت

إليه. كان شاحبًا شحوبًا مريعًا. لقد رأت ذلك الشحوب عليه مرة واحدة، مرتين من قبل. كان يغمض النظر وينظر من الجانبين

حسنا؟ -

قبضت يديها. كانت تعرف أنها لو كان يمكنها أن تقول نعم لعنى له هذا كل شيء في العالم. كان سيصدقها، سيصدقها طبعًا، لأنه يريد أن يصدقها، ثم سيصفح. كانت تعرف مدى عمق حنائه ومدى استعداده أن يظهر هذا الحنان، بالرغم من كل خجله. إنها تعرف أنه لم يكن ميالًا للانتقام. فهو سيصفح عنها لو أنها استطاعت فقط أن تقدم إليه عذرًا، عذرًا يمس قلبه فيغفر لها تمامًا. باستطاعتها أن تعتمد عليه في ألا يرمي الماضي في وجهها. قد يكون قاسيًا، باردًا وكنيبيًا، لكنه لم يكن دنيئًا ولا حقييرًا. لو قالت نعم لتغير كل شيء

وكانت في حاجة ملحة إلى الحنان. إن معرفتها غير المتوقعة بأنها حامل سيطرت عليها بآمال غريبة ورغبات غير متوقعة. شعرت بالضعف وبقليل من الخوف، وهي وحيدة وبعيدة جدًا عن أي من أصدقائها. وشعرت فجأة في ذلك الصباح، وبالرغم من أنها كانت قليلة الاهتمام بأمها، بالشوق إلى أن تكون معها. كانت في حاجة إلى المساعدة والعزاء. إنها لم تحب ولتر، وكانت تعرف بأنها لن تستطيع قط أن تحبه، لكنها اشتاقت في هذه اللحظة، وبكل قلبها، إلى أن يأخذها بين ذراعيه حتى يمكنها أن تضع رأسها على صدره، وكان يمكنها أن تبكي سعادة وهي متشبثة به، وكانت تريد أن تقبله وتريد أن تلف ذراعيها حول رقبته

بدأت تبكي. لقد كذبت كثيرًا جدًا ويمكنها أن تكذب بسهولة جدًا. أي فرق يمكن أن تشكله كذبة حين يمكن أن تكون خيرًا؟ كذبة، كذبة. ما الضرر من كذبة؟ كان من السهل أن تقول نعم. رأت عيني ولتر تذوبان وذراعيه تمتدان إليها. لا يمكنها أن تردد هذه الكذبة، إنها لا تعرف لماذا، إنها لا تعرف فقط. كل تلك الأمور التي مرت بها خلال هذه الأسابيع المريرة، شارلي وقسوته، الكوليرا وكل هؤلاء الناس الذين يموتون، الراهبات، وحتى وعلى نحو يدعو للغرابة تمامًا، هذا الوادينجتون المضحك السكر الضئيل، كل هذا بدا أنه غيرها إلى حد أنها لم تعرف نفسها، بالرغم من أنها كانت قد تأثرت بعمق شديد، وبدا كأن شخصًا عابرًا في نفسها يراقبها وهو مرتعب ومندesh. كان عليها أن تذكر الحقيقة. ولم يبد أن ترددها الكذب يستحق الجهد المبذول. تجوّلت أفكارها تجوالًا غريبًا. فقد رأت فجأة الشحاذ الميت أسفل السور. لماذا يجب أن تفكر فيه؟

لم تنتحب، بل سألت الدموع على وجهها بسلاسة تامة من عينيها الواسعتين. وأخيراً أجابت على السؤال. لقد سألتها إن كان هو أب الطفل.

قالت:

لا أعرف -

أطلق شبه قهقهة أشاعت الرجفة في كيتي.

إنه وضع محرج قليلاً، أليس كذلك؟ -

كان جوابه يحمل خصائصه الشخصية. كان بالضبط ما كانت تتوقع منه قوله. لكنه جعل قلبها يغوص. تساءلت مندهشة إذا كان قد أدرك مدى الصعوبة التي كانت تواجهها لذكر الحقيقة (وأدركت في نفس اللحظة أنه لم يكن من الصعب إطلاقاً أن تقول الحقيقة، بل كان حتمياً عليها)، وإن كان سينصفها عند ذكرها الحقيقة. وتردد جوابها: أنا لا أعرف، لا أعرف وطرق كمطرقة في رأسها. وكان من المستحيل الآن أن تتراجع عنه. أخرجت منديلها من حقيبتها وجففت عينيها. لم ينبسا بكلمة. كان على الطاولة إلى جانب سريرها شاليموه، فصب لها كأس ماء. جلب إليها الكأس وأمسك بالكأس وهي تشرب. لاحظت مدى هزال يده، وكانت يداً رقيقة ودقيقة بأصابع طويلة، لكنها أصبحت الآن لا شيء سوى جلد على عظم، فارتجفت قليلاً، إنه يستطيع السيطرة على وجهه، لكن يده خائنه.

قالت:

لا تهتم ببكائي. إنه لاشيء حقاً. إن الأمر فقط هو أنني لا أستطيع منع الدموع من الاندفاع - من عيني.

شربت الماء، فأعاد الكأس إلى الطاولة. جلس على كرسي وأشعل سيجارة. أطلق التنهيدة صغيرة. لقد سمعته مرة أو مرتين يتنهد بهذا الشكل، وكانت هذه التنهيدة تخز قلبها دائماً. واندهشت الآن وهي تنظر إليه، فقد كان يحدق تحديقة ذاهلة إلى خارج النافذة؛ لأنها لم تلاحظ من قبل مدى نحوله الرهيب الذي بلغه خلال الأسابيع الماضية. كان صدغاه غائرين، وظهرت عظام وجهه من خلال جلده. وتعلقت ملبسه عليه فضفاضة كأنها خيطت لرجل أكبر منه حجماً. ظهرت من خلال وجهه الملوّح بالشمس شحوب ضارب للخضرة. بدا منهوك القوى. فقد كان

يعمل بجد بالغ وبنام قليلاً، ولا يأكل شيئاً. وفي غمرة حزنها واضطرابها وجدت مجالاً للثناء له.
كان من القسوة أن تفكر بأنه لم يكن باستطاعتها فعل أي شيء له.

وضع يده فوق جبهته، كأن رأسه كان يؤلمه، وشعرت أن تلك الكلمات كانت تطرق في دماغه
أيضاً بجنون كمطرقة: لا أعرف، لا أعرف. كان من الغريب أن يحس هذا الرجل متقلب المزاج
والبارد والخجول بحنان طبيعي نحو الأطفال الصغار جداً، فغالبية الرجال لا يهتمون كثيراً حتى
بأطفالهم، لكن الراهبات تكلمن عن هذا أكثر من مرة وهن متأثرات ومتعجبات قليلاً. إن كان
يشعر نحو هؤلاء الأطفال الصينيين الصغار المضحكين بهذا النحو، فماذا سيكون شعوره نحو
أطفاله؟ عضت كيتي شفيتها لتمنع نفسها من البكاء ثانية.

:نظر إلى ساعة يده

- أخشى أنني لا بد أن أرجع إلى المدينة؛ لدي الكثير مما سأفعله اليوم.. هل ستكونين بخير؟ -

- أوه، نعم. لا تهتم بي -

- أظن أنه يحسن بك ألا تنتظريني هذا المساء. قد أتأخر كثيراً، وقد أتناول بعض الطعام عند -

العقيد يو.

- حسناً جداً -

نهض.

لو كنت مكانك لما حاولت القيام بأي شيء اليوم. الأفضل أن تأخذي الأمور ببساطة. هل -

هناك أي شيء تريدينه قبل أن أذهب؟

- لا، شكراً. سأكون على ما يرام تماماً -

صمت للحظة، كأنه كان متردداً، ثم أخذ قبعته فجأة دون أن ينظر إليها وخرج من الغرفة.

سمعته يسير داخل المجمع. شعرت بالوحدة بشكل رهيب. ليس هناك داع لكبح جماح نفسها

الآن، فأطلقت العنان لثورة الدموع.

* * *

كان الليل شديد الحرارة والرطوبة، وظلت كيتي جالسة عند النافذة ناظرة إلى أسطح المعبد الصيني الخيالية المعتمة قبالة أنوار النجوم. حتى عاد ولتر إلى البيت أخيراً. كانت عيناها ثقيلتين بالدموع لكنها كانت هادئة. وبالرغم من كل ما كان يزعجها، إلا إنها شعرت بالهدوء بشكل غريب، لعل هذا ناتج عن التعب المنهك الذي تحس به.

قال ولتر عندما دخل البيت:

- ظننت أنك ستكونين في السرير -

- لم أكن نعسة. رأيت أنه سيكون أكثر برودة إذا أنا ظللت جالسة هنا. هل تناولت أي عشاء؟ -

- كل ما أريده -

ذرع الغرفة الطويلة ذهاباً وإياباً. فرأت أن لديه ما يقوله لها. كانت تعرف أنه كان مرتبكاً، وبلا مبالاة انتظرت أن يستقر على رأي. فبدأ فجأة:

- ظللت أفكر فيما أخبرتني به بعد ظهر هذا اليوم. يبدو لي أنه سيكون من الأفضل أن ترحلي. -

لقد تكلمت مع العقيد يو وسيقدم إليك مرافقاً، ويمكنك أخذ الخادمة معك. ستكونين آمنة تماماً

- إلى أي مكان يمكنني أن أذهب؟ -

- يمكنك الذهاب إلى بيت أمك -

- هل تظن أنها ستسر لرؤيتي؟ -

- صمت للحظة متردداً كأنه كان يفكر في الأمر.

- إذن يمكنك الذهاب إلى هونج كونج -

- ما الذي سأفعله هناك؟ -

- ستحتاجين إلى الكثير من العناية والاهتمام. أظن أن من غير الإنصاف أن أطلب منك البقاء -

هنا.

لم تستطع منع نفسها من الابتسام، ليس من المرارة فقط، بل من الفرحة الصريحة التي عبرت وجهها. ألقت عليه نظرة سريعة وكادت أن تضحك.

- لا أعرف السبب الذي يجعلك قلقاً جداً على صحتي -

اقترب من نافذتها ناظرًا إلى الخارج، إلى الليل. لم يكن هناك الكثير جدًّا من النجوم في السماء الخالية من السحب.

ليس هذا مكانًا ملائمًا لامرأة في وضعك -

نظرت إليه، وهو أبيض الملابس في مقابل الظلام. ارتسم على وجهه الجانبي شيء شرير، ومن العجيب أن هذا لم يثر فيها أي خوف في هذه اللحظة.

:سألت فجأة

هل أردت أن تقتلني حين ألححت عليّ بالمجيء إلى هنا؟ -

مرت لحظة طويلة جدًّا عليه ليُجيب، حتى إنها فكرت أنه رفض أن يسمعها.

في البداية -

ارتجفت رجفة طفيفة، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أقر فيها بمقصده. لكنها لم تحمل له أي ضغينة بسبب هذا. لقد أدهشها شعورها. فقد كان يخالطه إعجاب معين وفرح طفيف. لم تعرف السبب تمامًا، لكنه بدا لها أنه أبله تمامًا بعد أن فكرت فجأة بشارلي تاونسيند.

:أجابت

لكنها كانت مخاطرة رهيبية التي تُعرض نفسك لها. فأنا أتساءل باستغراب إذا كنت ستغفر -
لنفسك إذا أنا مت ولك ضميرك الحساس

حسنًا، أنت لم تموتي. لقد ازدهرت حياتك -

لم أكن في حال أفضل من حالي الآن -

تملكها شعور غريزي في أن ترمي بنفسها تحت رحمة مزاجه. وبعد كل ما مر به من معاناة، وفيما يعيشان بين مشاهد الرعب والفقر، بدا أن من غير الملائم ربط الكثير من الأهمية إلى فعل الزنا السخيف، وبينما الموت ينتصب متربصًا حول الركن حاصدًا الأرواح كبستاني يخرج البطاطس من الأرض، فإن من السذاجة إعطاء أي أهمية للأمور القذرة التي يرتكبها هذا الشخص أو ذلك بجسده. لو أنها استطاعت فقط أن تجعله يدرك مدى ضالّة ما يعنيه شارلي لها، حتى إنها تجد الآن صعوبة في استعادة ملامحه في خيالها، وكيف أن حبه خرج من قلبها تمامًا، ولأنها لا تشعر بأي عاطفة نحو تاونسيند فقد فقدت الأفعال التي اقترفها معه أهميتها. لقد استعادت قلبها، فبدا أن ما قدمته من جسدها ليس له أي أهمية. لقد راودتها الرغبة في أن تقول

لولتر: «اسمع، ألا ترى أننا ظلنا سخفاء إلى مدة طويلة كافية؟ لقد كشرنا في وجوه بعضنا كأطفال. لماذا لا نستطيع أن نتقبل بعضنا بعضاً ونصبح أصدقاء؟ ليس هناك من سبب يحول بيننا». «وبين أن نصبح أصدقاء لأننا لسنا عاشقين».

وقف ساكناً بلا حراك وأحال ضوء المصباح شحوب وجهه الجامد مروغاً. لم تثق به، فلو أنها رددت القول الخاطئ لأنقضّ عليها بذلك التجهم الثلجي. إنها تعرف الآن حساسيته المفرطة التي كانت سخريته اللاذعة وقاية لها، ويا لسرعته في تمكنه من غلق قلبه إذا جُرحت مشاعره. وشعرت بغيظ للحظة واحدة من غبانه. ومن المؤكد أن أكثر ما يزعجه هو الجرح الذي أصاب غروره. وقد تبينت على وجه غامض أن هذا هو أقسى الجروح التي من الصعب الشفاء منها. إن من الغريب أن الرجال يصفون الكثير جداً من الأهمية على إخلاص زوجاتهم، فحين خرجت أول مرة مع شارلي، توقعت أن تشعر بأنها مختلفة تماماً. إنها امرأة متغيرة، لكنها بدت الآن لنفسها بأنها ظلت كما هي تماماً، لقد أحست بسرور وحيوية أعظم فقط. لقد تمنيت الآن لو أنها كانت قادرة على أن تخبر ولتر بأن الطفل طفله. ستعني الكذبة القليل جداً لها، وسيكون الاطمئنان راحة كبيرة له. وبعد كل هذا قد لا تكون هذه كذبة، ومن المضحك أن شيئاً في قلبها منعها من أن تستغل فائدة الشك لصالحها. يا لغباء الرجال! إن جزأهم المتعلق بالإيجاب غير مهم جداً بالنسبة إليهم، فالمرأة هي التي تحمل الطفل خلال أشهر طويلة من القلق وتحمله وهي تشعر بالألم. ومع ذلك فإن الرجل يدّعي تلك الادعاءات المنافية للطبيعة بسبب اتصاله السريع من المرأة. لماذا يُشكل هذا أي فرق بالنسبة إليه فيما يتعلق بمشاعره نحو الطفل؟ ثم انتقلت أفكار كيبي نحو الطفل الذي ستحمله هي. لم تفكر فيه بشغف ولا بعاطفة أمومية، بل بفضول متكاسل.

قال ولتر محطماً الصمت الطويل

.إنني متأكد أنك ستعيدين التفكير في الأمر قليلاً -

أفكر في ماذا؟ -

.التفت قليلاً كما لو كان مندهشاً

.في موعد رحيلك -

.لكني لا أريد أن أرحل -

لم لا؟ -

إنني أحب عملي في الدير. أظن أنني سأجعل من نفسي ذات نفع. إنني أفضل أن أبقى طالما -
بقيت أنت

أظن أنني يجب أن أخبرك أنك في حالتك الحالية أكثر احتمالاً للتعرض للإصابة بأي عدوى -
تقع حولك

:ابتسمت بسخرية

- أحب الطريقة الحذرة في تصويرك للوضع -

- لن تبقي هنا من أجلي؟ -

ترددت. كان يعرف قليلاً أن أقوى ما يثيره فيها من عاطفة وأكثرها فجائية هي الشفقة

- لا. أنت لا تحبني، وكثيراً ما كنت أرى أنني أضجرك -

لم أفكر أنك من الأشخاص الذين يقدمون خدماتهم لراهبات مملات قليلات العدد وحفنة من -
الأطفال الصينيين

.افترت شفاتها عن ابتسامه

أعتقد أن من غير العدل أن تحتقروني كثيراً لأنك ارتكبت غلطة كهذه في حكمك عليّ. إن -
الخطأ ليس خطئي إذا كنت حماراً على هذا النحو

- إذا كنت مصرة على أن تبقي، فأنت حرة طبعاً في أن تبقي -

- آسفة لأنني لا أستطيع أن أتيح لك فرصة إظهار شهامتك -

:لقد وجدت أن من الصعب صعوبة غريبة أن تكون جادة معه فتابع

أنت، في الحقيقة، على حق تماماً؛ فأنا لا أبقى هنا من أجل الأيتام فقط، فأنت ترى أنني في -
وضع غريب؛ لأنه ليس لدي أي إنسان في العالم أتوجه إليه. إنني لا أعرف أحداً لن يعتبرني
مزعجة، و لا أعرف أحداً يهتم أقل اهتمام إذا كنت حية أم ميتة

:قطب. لكنه لم يقطب بغضب. قال

- لقد قمنا بخلط الأمور خلطاً رهيباً، أليس كذلك؟ -

- أما زلت تريد أن تطلقني؟ لا أظن أنني عدت أهتم أدنى اهتمام -

- لا بد أن تعرفي أنني بإحضارك إلى هنا، فإنني أكون قد غفرت الإساءة -

لا أعرف. فأنت تعرف بأنني لم أقم بدراسة الخيانة. ما الذي سنفعله عندما نغادر هذا -
المكان؟ هل سنستمر في العيش معاً؟
أوه، ألا ترين أننا نستطيع أن نترك المستقبل يعتني بنفسه؟ -
وتخلل صوتها تعب الموت

* * *

بعد يومين أو ثلاثة أيام، أخرج وادينجتون كيتي من الدير (فقد أغراها قلقها على أن تستأنف عملها في الحال) وأخذها لتشرب كوب الشاي الموعود مع عشيقته. وكانت كيتي قد تناولت العشاء في بيت وادينجتون في أكثر من مناسبة. كان المبنى مربعاً وأبيض ومميزاً كالمباني التي تبنيها الجمارك لموظفيها في جميع أنحاء الصين، وكانت غرفة الطعام التي تناولوا فيها الطعام وغرفة الاستقبال التي جلسا فيها مؤثنتين بأثاث أنيق وميتين. وكان له مظهر المكاتب إلى حد ما ومظهر فندق بشكل آخر. ولم يكن هناك ما هو شبيه بالبيت فيها، فتدرك أن هذه البيوت كانت مجرد أماكن إقامة عابرة لشاغليها المتعاقبين. ولم يكن ليخطر في بالك أن في الطابق العلوي غموضاً وربما رومانسية مغلقة هناك. صعدا على مجموعة من الدرجات وفتح وادينجتون باباً. دخلت كيتي حجرة كبيرة عارية لها جدران بيضاء معلقة عليها حوائج تزيين جدارية منقوش عليها خطوط مختلفة. وإلى منضدة مربعة جلست سليلة المانشو على كرسي صلب ذي ذراعين مصنوع من خشب أسود وعليه نقوش كثيرة. وقفت عندما دخلت كيتي وادينجتون لكنها لم تخطو خطوة إلى الأمام.

قال وادينجتون:

ها هي -

وأضاف شيئاً باللغة الصينية

صافحتها كيتي. كانت نحيلة في رداها الطويل المطرز وأطول قليلاً مما توقعت كيتي التي اعتادت على الناس الجنوبيين. كانت ترتدي جاكيت حرير خضراء شاحبة بكمين ضيقين يبلغان راسيها. وعلى شعرها الأسود المصفف جيداً وضعت غطاء الرأس الذي تضعه نساء المانشو. كان وجهها مطلياً بمسحوق بينما كانت وجنتاها، من العينين إلى الفم، مطليتين بطبقة ثقيلة من الأحمر، وكان حاجباها المنتوفان خطين داكنين رفيعين، بينما كان فمها قرمزيًا. واشتعلت من تحت هذا القناع عيناها السوداء وان قليلتا الميل الواسعتان كبحيرتين من كهربان أسود سائل. بدت كمعبود أكثر منها امرأة. كانت حركاتها بطيئة وواثقة، وكوّنت كيتي انطباعاً بأنها كانت خجلة قليلاً لكنها بالغة الفضول. أمأت برأسها مرتين أو ثلاث مرات وهي تنظر إلى كيتي، بينما كان وادينجتون يتكلم إليها. لاحظت كيتي يديها، كانتا طويلتين بشكل غير طبيعي، ورقيقتين للغاية،

لهما لون العاج، وكانت أظافرها الجميلة مطلية. فكرت كيبي أنها لم تر أبداً شيئاً جميلاً جداً كجمال هاتين اليدين الرقيقتين والرشيقتين، إنهما توحيان بعناية على مر قرون لا تُعد ولا تُحصى.

تكلمت قليلاً بصوت عالٍ كتغريد طيور في حديقة، وقال وادينجتون لكيبي مترجماً كلامها، أنها مسرورة لرؤيتها، وكم كان عمرها وكم طفلاً أنجبت؟ جلسوا على ثلاثة كراسٍ مستقيمة حول الطاولة المربعة، وجاء صبي بآنية الشاي الفاتح والمعطر بالياسمين. وناولت سيدة المانشو كيبي علبة خضراء لسجائر (القلاع الثلاث) لم تحتوي الغرفة إضافة إلى المنضدة والكراسي إلا القليل من الأثاث. فقد كان هناك سرير عريض بحشية عليه متكأ رأس مطرز كما كان هناك صندوقان من خشب الصندوق.

:سألت كيبي

- ما الذي تفعله طوال النهار؟ -

ترسم قليلاً وتكتب قصيدة أحياناً. لكنها تظل جالسة في أغلب الأوقات. إنها تدخن، لكنها - تدخن باعتدال، وهذا من حسن الحظ. فأحد الواجبات الملقاة على عاتقي هو منع تداول الأفيون.

:سألت كيبي

- وهل تدخن أنت؟ -

- نادراً. أقول لك الحق. إنني أفضل الويسكي أكثر -

فاحت في الغرفة رائحة حريفة قليلاً، لم تكن مزعجة، لكنها كانت غريبة

أخبرها أنني آسفة لأنني لا أستطيع أن أتكلم إليها. أنا متأكدة أن لدى كلانا الكثير من الأمور - التي سنقولها لبعضنا البعض.

عندما تُرجم هذا الكلام للمانشو، ألقت كيبي نظرة سريعة أومضت فيها لمحة ابتسامة، كانت مثيرة للإعجاب وهي تجلس بلا إحساس بالارتباك. في ملابسها الجميلة، ونظرت العينان من تحت الوجه المطلي نظرة خدرة، متزنة، لا يُسبر غورها. كانت غير حقيقية، كصورة، لكنها كانت محاطة ببهاء جعل كيبي تشعر بأنها خرقاء. لم تول كيبي الصين الذي ألقاها القدر فيها أي اهتمام إلا اهتماماً عابراً ومحتقراً إلى حد ما. فهي لم تُخلق على نمطها. وها هي الآن تبدو فجأة وقد راودتها فكرة بعيدة وغامضة. وها هو الشرق، السحيق القدم غامض ومبهم. إن معتقدات الغرب

وأفكاره تبدو فجأة إلى جانب أفكار ومعتقدات بدا أنها تلمح فيها لمحة غريبة في هذا المخلوق المتأنق. فها هنا حياة مختلفة على مستوى مختلف. شعرت كيتي شعورًا غريبًا أن رؤية هذا المعبود بوجهها المطلي وبعينيه المنحرفتين الحذرتين جعلت كل جهود وآلام عالم كل يوم، الذي عرفته، سخيلاً إلى حد ضئيل. فقد بدا ذلك القناع الملون يُخفي سر خبرة وفيرة وعميقة ومهمة، فهاتان اليدان الطويلتان الدقيقتان بأظافرهما المستدقة تمسكان بمفتاح ألغاز لا يمكن التنبؤ بها.

:سألت كيتي

- ما الذي تفكر فيه طوال النهار؟ -

:ابتسم وادينجتون

- لا شيء -

- إنها مذهشة. قل لها إنني لم أرَ يدين جميلتين كهاتين قط، وأتساءل عما تراه فيك -

:ترجم وادينجتون السؤال وهو يبتسم

- تقول إنني طيب -

:قالت كيتي ساخرة

- كأن أي امرأة أحببت في حياتها رجلاً لفضيلته -

وضحكت المانشو مرة واحدة فقط. وكان هذا حين عبّرت كيتي وهي تبحث عن حديث تتبادلها معها عن إعجابها بسوار من حجر اليشب كانت تضعه. فخلعته، لكن كيتي وجدت، وهي تحاول أن تلبسه، أنه لم يمر من عقل أصابعها، بالرغم من أن يديها كانتا صغيرتين تمامًا. فانفجرت المانشو في ضحكة طفولية. وقالت شيئاً إلى وادينجتون، واستدعت الخادمة، ألقت عليها أوامر، فأحضرت الخادمة بعد لحظة حذاء مانشو جميلاً جداً.

:قال وادينجتون

- تريد أن تعطيك هذا الحذاء، إذا كنتِ تستطيعين ارتدائه، ستجدين أنه سيكون خُفاً جيداً -

.لحجرة النوم

:قالت كيتي برضى

- إنه يناسبني تمامًا -

.لكنها لاحظت ابتسامة وقحة على وجه وادينجتون

:سألته بسرعة

هل هو كبير جدًا عليها؟ -

- أميال -

ضحكت كيتي، وعندما ترجم وادينجتون هذا ضحكت المانشو والخادمة أيضًا

وحين أخذت كيتي ووادينجتون يصعدان التل معًا فيما بعد، التفتت إليه ورشقته بابتسامة ودية.

- لم تخبرني أنك تكنُّ لها حنانًا عظيمًا -

- ما الذي يجعلك ترين أنني أكنُّ لها مثل هذا الحنان؟ -

رأيت هذا في عينيك. إن هذا غريب، لا بد أنه كحب شبح أو حلم. فالرجال لا يفهمون. وقد -

فكرت بأنك كأي شخص آخر، وها أنا أشعر الآن أنني لا أعرف أبسط الأمور عنك

:وحينما وصلا إلى البنجالو سألتها فجأة

- لماذا رغبت أن تريها؟ -

:ترددت كيتي للحظة قبل أن تجيب

إنني أبحث عن شيء، وأنا لا أعرف تمامًا ما هو، لكنني أعرف أنه مهم جدًا لي أن أعرفه، -

وإذا أنا عرفته فإن هذا سيؤدي إلى تغيير كبير في حياتي. ربما تعرفه الراهبات، وعندما أكون

معهن أشعر أنهن يكتمن سرًّا لن يشاركنني فيه. و لا أعرف لماذا خطر ببالي بأنني إذا رأيت

امرأة المانشو هذه، فإنني سألمح فكرة عما أبحث عنه. ربما كانت ستخبرني لو أنها كانت

تستطيع

- ما الذي يجعلك تفكرين أنها تعرفه؟ -

:ألقت عليه كيتي نظرة جانبية سريعة، لكنها لم ترد، وبدلاً من هذا طرحت عليه سؤالاً

- هل تعرفه؟ -

- ابتسم وهز كتفيه

بعضنا يبحث عن الطريقة في الأفيون، والبعض يبحث عنها في الله، وبعضنا في الويسكي، -

وبعضنا في الحب، والطريقة في جميع الحالات واحدة، ولا تؤدي إلى شيء

* * *

غرقت كيتي مرة أخرى في روتين عملها المريح، ومع أنها كانت تشعر بتوعك في الصباح الباكر، إلا إنها كانت في حالة نفسية عالية بما يكفي لتمتع هذا الإحساس من إزعاجها. كانت مندهشة من الاهتمام الذي تبديه الراهبات نحوها، فالأخوات اللواتي كن لا يفعلن شيئاً حين كانت تشاهدن في الممر سوى أن يتمنين لها صباحاً طيباً، أخذن الآن يدخلن الغرفة التي تشغلها بحجة ضعيفة وينظرن إليها، وهن يثرثرن قليلاً بانفعال عذب طفولي، وكررت الأخت القديس جوزيف القول لها إلى حد يُثير الملل أحياناً، كيف أنها كانت تقول لنفسها منذ أيام سبقت: «إنني أتساءل» أو «إنني لن أندesh»، ثم وحين أغمى على كيتي: «لا يمكن أن يكون هناك شك فالأمر واضح للأعين». وقصت على كيتي قصصاً طويلة عن ولادات زوجة أخيها، وهي قصص كانت ستسبب لكيتي الكثير من الانزعاج لولا روح المرح السريع التي تتمتع بها كيتي. وقد جمعت الأخت القديس جوزيف بطريقة سارة النظرة الواقعية لنشأتها (نهر يتلوى من خلال مروج مزرعة أبيها وأشجار الحور المنتصبه على ضفته تهتز من أضعف نسيم)، مع الحميمية الساحرة وأمور دينية. وأخبرت كيتي في أحد الأيام عن البشارة بمولد المسيح وهي مقتنعة اقتناعاً جازماً بأن الكافر لا يستطيع أن يفهم أموراً كهذه.

وقالت:

لا يمكنني أبداً أن أقرأ تلك السطور في الكتاب المقدس دون أن أبكي، إنني لا أعرف لماذا، - لكن هذا يثير في شعوراً غريباً

وردت مقتبسة من الكتاب المقدس باللغة الفرنسية بكلمات بدت لكيتي غير مألوفة وباردة قليلاً بدقتها:

وجاءها الملاك وقال: السلام عليك يا مريم يا ممتلئة نعمة، إن الرب معك، مباركة أنت بين النساء.

وانتشر سر الحمل في الدير كهبة ريح طفيفة تلعب بين أزهار بستان بيضاء. وقد أزعج التفكير أن كيتي كانت تحمل طفلاً تلك النساء العقيمت وأثار انفعالهن. لقد أخافتهن قليلاً الآن وفتنتهن. ونظرن إلى الجانب المادي من حالتها بشعور عام خشن، فقد كن بنات فلاحين وصيادي سمك، لكن رهبة ملأت قلوبهن الشبيهة بقلوب الأطفال. لقد انزعجن من التفكير بحملها. لكنهن

كن سعيدات ومنتشيات نشوة غريبة، وأخبرتها الأخت القديس جوزيف أنهن يصلين كلهن من أجلها. وقد قالت لها الأخت القديس مارتين إن مما يثير الرثاء أنها لم تكن كاثوليكية، لكن الأخت الرئيسة عاتبته على هذا وقالت إن من الممكن أن تكون امرأة طيبة، امرأة شجاعة كما قالت - بالرغم من أنها بروتستانتية- وإن الله الرحيم سيتدبر كل ذلك بطريقة أو بأخرى

وتأثرت كيبي وشعرت بالسلوى من الاهتمام الذي أثارته حولها، لكنها اندهشت إلى أقصى حد حين وجدت أن الأخت الرئيسة، وهي الجامدة في قدسيته، أخذت تعاملها بلطف جديد. لقد كانت لطيفة دائماً مع كيبي، لكن ذلك بأسلوب متباعد، وأخذت تستخدمها الآن برقة يمتزج فيها شيء من الأمومة، ورائ صوتها رنة جديدة ولطيفة، وارتسمت في عينيها دعابة فجائية كما لو كانت كيبي طفلاً قامت بعمل ذكي مُسلِّ. كان هذا مثيراً على نحو غريب. وكانت روحها كبحر رمادي هادئ يندفع بجلال مثيراً الرهبة في عظمتة الوقور، ثم حوِّله شعاع شمس فجأة إلى بحر يقظ ودود مرح، وغالباً ما كانت تأتي في المساء الآن وتجلس مع كيبي

قالت منتحلة عذراً واهناً لها:

يجب أن أحرص على ألا تتعبني نفسك يا طفليتي -

أو:

لن يغفر لي دكتور فاين قد، أوه، يا لرباطة الجأش البريطانية هذه! إنه مبتهج إلى أقصى حد، لكنك عندما تتكلمين إليه عن هذا يشحب لونه تماماً

وأخذت يد كيبي وربتت عليها بحنان

لقد قال لي دكتور فاين إنه طلب منك الرحيل، لكنك لم توافقي على هذا؛ لأنك لن تستطيعي - احتمال أن تتركينا. ذلك لطف منك. يا طفليتي العزيزة، وأريد منك أن تعرفي أننا نقدر المساعدة التي قدمتها لنا. لكنني أرى أنك لا تريدين أن تتركيه أيضاً، وذلك أفضل، فمكاتبك هو إلى جواره وهو يحتاج إليك، آه، لا أعرف ما كان يجب أن نفعله دون ذلك الرجل المدهش

قالت كيبي:

إنني سعيدة لأنه كان قادراً على القيام بعمل من أجلكن -

يجب أن تحببه من كل قلبك يا عزيزتي. إنه قديس -

ابتسمت كيتي لكنها تنهدت في قلبها. كان هناك أمر واحد يمكنها فعله من أجل ولتر الآن وهي لا تستطيع التفكير كيف تفعله. إنها تريد أن يغفر لها. ليس من أجلها، بل من أجله هو نفسه. فهي تعرف أن هذا فقط هو ما يمكن أن يدخل السكينة إلى عقله. كان من غير المجدي أن تطلب صفحه. وإذا ساوره أدنى شك أنها ترغب في هذا الصفح من أجله هو أكثر مما هو من أجلها هي، سيدفعه غروره العنيد أن يرفض كل هذا مهما كان الثمن (كان من الغريب أن غروره الآن لم يعد يغيظها، فقد بدا لها طبيعيًا، بل جعلها تشعر بأسف أشد الآن من أجله)، وكانت الفرصة الوحيدة هي أن يقع حادث غير متوقع قد يفقده حذره. لقد خطرت ببالها فكرة أنه سيرحب بفوران عواطف ستحرره من كابوس الكراهية، لكنه سيقاوم هذا الفوران حين ينقض عليه بكل قواه وبحماقته الشجيرة

ألم يكن من المثير للرتاء أن يقوم الناس بتعذيب أنفسهم على هذا النحو، وهم يعيشون لفترة قصيرة من الوقت في عالم يوجد فيه الكثير من الألم على هذا النحو؟

* * *

على الرغم من أن الأم الرئيسة لم تتحدث إلى كيتي أكثر من ثلاث أو أربع مرات، ولمدة لا تزيد عن عشر دقائق مرة أو مرتين، إلا أن الانطباع الذي أثارته في كيتي كان عميقاً. كانت شخصيتها كبلاد تبدو عند التعرف عليها لأول وهلة عظيمة لكنها غير مضيافة، لكنك تكتشف فيها في التوقى صغيرة مبتسمة بين أشجار الفاكهة في ثنايا الجبال الشاهقة، وأنهاراً تتدفق بسلاسة خلال المروج بالغة الخضرة. وبالرغم من أن هذه المناظر المريحة قد تدهشك وحتى تطمئنك، إلا إنها لا تشعر أنك في بيتك في أرض الارتفاعات الشامخة والفضاءات المعرضة لهبوب الريح. كان من المستحيل أن تصبح على علاقة حميمة مع الأم الرئيسة فليها شيء غير شخصي يكتنفها كانت تشعر به كيتي مع الراهبات الأخريات، حتى مع الأخت القديس جوزيف طيبة المزاج الثرثرة، لكن هذا الشيء بالنسبة للأم الرئيسة كان حاجزاً يكاد يكون ملموساً. إن الحقيقة أنها تستطيع أن تمشي على نفس الأرض مثلك تماماً، وتُعنى بالشؤون الدنيوية، ومع ذلك تعيش على مستوى لا يمكنك أن تصل أنت إليه، حقيقة تثير فيك شعوراً غريباً تماماً، شعوراً:

ليس كافياً أن تستمر المتدينة في الصلاة مع المسيح، بل يجب أن تكون هي نفسها صلاة -

ومع أن حديثها كان مندمجاً اندماجاً نسيجياً مع دينها، إلا إنها لم تبذل أي جهد للتأثير عليها هي الكافرة، وبدا غريباً بالنسبة لها أن تقنع الأم الرئيسة بإحساسها العميق بالخير، أن تُترك كيتي في حال لا بد أنها تبدو لها جهلاً خاطئاً. إلا أن كيتي شعرت أن هذا طبيعي لها

و ذات مساء، جلست الاثنتان معاً وكانت الأيام تجنح إلى القصر الآن، ونور المساء الرقيق يصبح مقبولاً وكئيبياً إلى حد ما. بدت الأم الرئيسة تعباً جداً. فقد كان وجهها المأساوي مسحوباً وأبيض، وقد فقدت عيناها الداكنتان الجميلتان تألقهما، وربما حثها تعبها على الانغماس في مزاج نادر من الثقة

قالت وهي تنتزع نفسها من تأمل طويل

إنه يوم مشهود بالنسبة لي يا طفلي، فهو اليوم الذي عقدت فيه العزم على أن أدخل فيه - الدين، فمنذ سنين فكرت بهذا، لكنني كنت قد عانيت مما بدا أنه خوف من هذا النداء. فقد خشيت أن تعود روح العالم وتأسرني، لكنني في ذلك الصباح وحين تناولت القربان، أقسمت أن أخبر

أمي العزيزة برغبتني قبل حلول الليل. وبعد أن تناولت القربان المقدس، طلبت من الله أن يُحِلَّ
«سكينة العقل عليّ، وبدا أن الجواب يأتيني: «ستنالين السكينة فقط إذا كففت عن الرغبة فيها

بدت الأم الرئيسة تفقد نفسها في أفكار الماضي

في ذلك اليوم، رحلت إحدى صديقاتنا، مدام فيرنو إلى كارميل دون أن تُخبر أحدًا من -
أقاربها. فقد كانت تعرف أنهم كانوا سيعارضون خطوتها، لكنها كانت أرملة وظننت أن لديها الحق
في أن تفعل ما تشاء لأنها أرملة. وقد كانت إحدى بنات عمي قد ذهبت لتودّع الهاربة العزيزة ولم
تعد إلا في المساء. كانت قد تأثرت كثيرًا. ولم أكن قد تكلمت إلى أمي. وقد أصابتنى رعشة عند
التفكير بإخبارها بما يخطر ببالي. لكنني رغبت في أن أحتفظ بالقرار الذي اتخذته عند القربان
المقدس، وطرحت على ابنة عمي كل أنواع الأسئلة. ولم تفت أمي، التي بدت منهمة في
التطريز، أي كلمة. وبينما كنت أتكلم، قلت لنفسني: إذا أردت أن أتكلم اليوم، فليس لدي أي دقيقة
أضيعها.

من الغريب مدى الحيوية التي أتذكر فيها المشهد. فقد كنا نجلس حول الطاولة، طاولة
مستديرة بغطاء أحمر، ونعمل تحت نور مصباح له ظل أخضر. كانت ابنتا عمي تقيمان معنا وكنا
كلنا نعمل في التطريز لإعادة تغطية الكراسي في غرفة الاستقبال. تخيلي، لم يتم إعادة تغطيتها
منذ أيام لويس الرابع عشر، حين تم شراؤها، وكانت كراسي رثة وباهتة، وقد قالت أمي إن هذا
فضيحة.

حاولت صياغة الكلمات، لكن شففتاي لم تتحركا، ثم وفجأة، وبعد بضع دقائق صمت، قالت لي
أمي: «لا أستطيع أن أفهم سلوك صديقتك حقًا. إنني لا أحب رحيلها هذا بلا توجيه أي كلمة إلى
كل هؤلاء الذين يحبونها كثيرًا إلى هذا الحد. إن حركتها مسرحية وتعدي على ذوقي، إن المرأة
حسنة التربية لا تُقدم على عمل يثير كلام الناس ضدها. أتمنى إن أنتِ سببت لنا الحزن العظيم
«بتركنا، ألا تهربي كأنك ترتكبين جريمة

كانت لحظة الكلام، لكن ضعفي وصل إلى درجة أنني لم أستطع أن أقول سوى: «آه، اطمئني
«يا أمي، لن تكون لديّ القوة للإقدام على هذا

لم تحر أمي جوابًا، وندمت لأنني لم أجرو على أن أوضح ما بنفسني. وبدا لي أنني أسمع كلمة
الرب إلى القديس بطرس: «بطرس، هل تحبني؟»، أوه، يا له من ضعف، يا لجحودي من جحود!

إنني أحببت راحتي، أسلوب حياتي، عائلتي ومسراتي. كنت مستغرقة في هذه الأفكار المريرة حين قالت أمي لي بعد فترة قصيرة، كأن الحديث لم يُقاطع: «مع ذلك يا أوديتي، لا أعتقد أنكِ». «ستموتين دون أن تقومي بفعل سيبقى بعدك

كنت لا أزال ضائعة في قلقي وتأملاتي، بينما استمرت ابنتا عمي تعملان بهدوء دون أن تعرفا بخفق قلبي، عندما قالت أمي فجأة بعد أن تركت نسيجها يسقط وهي تنظر لي بانتباه: «آه، يا طفلي العزيزة، أنا متأكدة من أنكِ ستنتهين إلى أن تصبحي متدينة

». «أجبتها: «هل تتكلمين بجد يا أمي الطيبة؟ أنتِ تكشفين أعماق تفكيري ورغبة قلبي

صاحت ابنتا عمي دون أن تتيحا لي الفرصة لإنهاء كلامي: «لكن، نعم، فمذ سنتين لم تفكر». «أوديت بأي شيء آخر، لكنك لن تعطيهما الإذن يا عمتي، يجب ألا تعطيهما الإذن

». «فقالت أمي: «لكن بأي حق يا طفلي العزيزتين نرفض هذا، إن كان هذا هو إرادة الله؟

فسألتنى ابنتا عمي حينذاك، وهما ترغبان في السخرية من الحديث عما نويت أن أفعله بالتوافه التي تخصني، وتشاجرتا مازحتين حول من ستستحوذ على هذا الشيء ومن ستستحوذ على ذلك. لكن لحظات المرح الأولى هذه استمرت لوهلة قصيرة جداً، ثم بدأنا نكي. ثم سمعت أبي يرتقي الدرج

:صممت الأم الرئيسة للحظة، ثم تنهدت

كان الأمر قاسياً على أبي، فقد كنت ابنته الوحيدة، وغالباً ما يكنّ الرجال لبناتهم شعوراً - أعمق من الشعور الذي يكونونه لأبنائهم

:قالت كيتي وهي تبتسم

- إنه لسوء حظ عظيم أن يكون للإنسان قلب -

- إنه لحظ عظيم جداً أن يكرّس الإنسان ذلك القلب لحب يسوع المسيح -

وفي تلك اللحظة، تقدمت فتاة صغيرة من الأم الرئيسة، وأرتها لعبة طريفة وقعت في يدها بطريقة من الطرق، وهي واثقة من اهتمام الأم بها، فأحاطت الأم الرئيسة يدها الجميلة الدقيقة كتف الطفلة واستكانت الطفلة لها. لقد تأثرت كيتي عندما لاحظت مدى عذوبة ابتسامتها ومدى بُعدها الشخصي في نفس الوقت

:قالت

إن من المدهش رؤية ما يکنه كل أیتامک من حب لک یا أماه. أظن أنني يجب أن أفخر فخرًا -
کبیرًا لو أنني استطعت أن أثیر إخلاصًا عظیمًا کهذا

.ورشقت الأم الرئیسة ابتسامتها من علو مرة أخرى، والتي كانت جمیلة مع ذلك

هناک طريقة واحدة لكسب القلوب وهي أن تجعلی نفسک شبيهة بهؤلاء الذین سیکنون لک -
الحب.

* * *

لم يعد ولتر إلى العشاء في ذلك المساء، انتظرتة كيتي لبعض الوقت، فهو يدبر أمره دائماً حينما يتأخر في المدينة فيرسل إليها كلمة، لكنها جلست إلى المائدة. لم تفعل شيئاً أكثر من التظاهر بأكل دورات الطعام المتعاقبة التي وضعها الطباخ الصيني أمامها كالعادة دون تغيير، مراعيًا آداب المائدة دون اعتبار للوباء وصعوبة التموين، ثم أسلمت نفسها إلى الليلة المرصعة بالنجوم بعد أن غرقت في كرسي خيزران طويل قرب النافذة المفتوحة، أدخل السكون الراحة إلى نفسها.

لم تحاول أن تقرأ، وطفت أفكارها على سطح عقلها كسحب بيضاء، صغيرة منعكسة على بحيرة ساكنة. كانت أكثر تعباً مما يمكنها أن تمسك بفكرة واحدة منها، ثم تتابعها وتغرق نفسها في قطارها المصاحب لها. تساءلت بغموض عما يكون قد ثار لديها من انطباعات متنوعة خلفتها لديها أحاديثها مع الراهبات. وكان من الغريب أنه بالرغم من أن طريقتهن في الحياة أثرت فيها تأثيراً عميقاً جداً، إلا أن الإيمان الذي يحدد طريقتهن هذه لم يؤثر فيها. ولم تستطع أن تتصور احتمال أن يأسرها حماس الإيمان في أي وقت من الأوقات. أطلقت تنهيدة خفيفة: ربما سيصبح كل شيء أسهل، إن أضاء ذلك النور الأبيض العظيم روحها. وراودتها الرغبة مرة أو مرتين في أن تُخبر الأم الرئيسية عن تعاستها وسببها، لكنها لم تجرؤ على ذلك، فهي لن تستطيع أن تتحمل أن تفكر هذه المرأة المتزمتة فيها تفكيراً سيئاً. فما فعلته سيبدو لها خطيئة فاحشة طبعاً. والغريب في الأمر أنها لا تستطيع هي نفسها أن تعتبر ما فعلته شريعياً بقدر كونه غيبياً وقبيحاً.

ربما كان نتيجة لتبدل فيها أنها نظرت إلى علاقتها بتاونسيند كتصرف مثير للندم وحتى للصدمة، لكنها علاقة يجب أن تُنسى بدلاً من أن يتحسر عليها الإنسان. كانت كارتكاب الإنسان هفوة في حفلة، فليس هناك شيء يمكن القيام به لإصلاحها، كانت مميتة بشكل رهيب، لكن من الافتقار إلى الإحساس أن توليها كثيراً جداً من الأهمية. وارتعشت حين فكرت بشارلي بهيكله الكبير المكسو كسوة جيدة، وغموض فكه وطريقة وقفته وقد دفع صدره إلى الأمام حتى لا يبدو أن له كرشاً، ويظهر طبعه الدموي في العروق الصغيرة الحمراء التي سرعان ما ترتسم على شكل شبكة على وجنتيه المتوردتين. لقد أحببت حاجبي عينيه الكثين، ففيهما الآن شيء حيواني ومنفر لها.

والمستقبل؟ كان غريباً مدى اللا مبالاة التي تركها فيها، إنها لم تستطع أن تستشف منه شيئاً على الإطلاق. ربما ستموت حين يولد الطفل. لقد كانت أختها دوريس أقوى منها كثيراً جداً دائماً، وكادت دوريس أن تموت (لقد قامت بواجبها وأنجبت وريثاً للبارونية الجديدة، وابتسمت كي تي وهي تفكر برضى بأمها)، وإذا كان المستقبل غامضاً إلى هذا الحد، فإن هذا ربما يعني أنه كُتب عليها ألا تراه أبداً. من المحتمل أن يطلب ولتر من أمها أن تعتني بالطفل – إذا ظل الطفل على قيد الحياة، وهي تعرفه معرفة كافية تجعلها تتأكد من أنه سيعامله بلطف، مهما كان شكه بأبوته. فيمكن الثقة بأن ولتر سيسلك سلوكاً مثيراً للإعجاب تحت أي ظروف. كان مما يثير الرثاء أنه غير محبوب إلى هذا الحد، بالرغم من صفاته العظيمة، وأريحيته وشرفه، وذكائه وحساسيته. لم تكن خائفة منه الآن إطلاقاً، بل أسفة من أجله، ولا تستطيع منع نفسها في نفس الوقت من التفكير به كشخص سخي قليلاً. فعمق عاطفته جعلته غير حصين، وساورها شك أنها ستستطيع، بطريقة ما وفي وقت من الأوقات، أن تغريه بالصفح عنها. وخطر في بالها الآن بأنها بإدخال السكنينة إلى نفسه بهذه الطريقة، فإنها تقدم إليه التعويضات المحتملة الوحيدة عن الألم المبرح الذي سببته له. إن ما يثير الرثاء أنه يتمتع بالقليل من روح المرح إلى هذا الحد، إن بوسعها أن تراه يضحك هو وهي معاً في أحد الأيام على الطريقة التي عذبا بها نفسيهما كانت متعبة. فأخذت المصباح إلى داخل غرفتها، وخلعت ملابسها، وآوت إلى السرير، واستغرقت في النوم على الفور.

* * *

لكن طرقات عالية أيقظتها. لم تستطع في البداية أن تربط الصوت بالواقع؛ لأنه كان متداخلاً مع الحلم الذي استيقظت منه. تواصلت الطرقات، وعرفت أنه لا بد أن يكون على بوابة المجمع. كان الظلام حالاً. كانت لديها ساعة يد فسفورية العقارب، فرأت أن الساعة كانت الثانية والنصف. لا بد أنه ولتر وقد عاد - كم هو متأخر - ولم يستطع أن يوظف الصبي. وتواصلت الطرقات بصوت أعلى فأعلى، وكان في سكون الليل مزعجاً قليلاً حقاً. توقف الطرق، ثم سمعت سحب المزلاج الثقيل. لم يعد ولتر متأخراً إلى هذه الدرجة في أي وقت من الأوقات. يا للشيء المسكين، لا بد أنه منهك القوى! تمننت أن يكون على قدر كاف من التعقل ليأوي إلى الفراش بدلاً من العمل كالعادة في مختبره ذلك.

كانت هناك أصوات، ودخل ناس المجمع. كان ذلك غريباً، فولتر يتحمل الغناء ليكون هادئاً، عندما يعود متأخراً حتى لا يزعجها، جرى شخصان أو ثلاثة أشخاص بخفة مرتقين درجاً خشبياً، ودخلوا الغرفة المجاورة. خافت كيتي قليلاً. ففي مؤخرة رأسها استقر دائماً خوف من شغب ضد الأجانب. هل حدث شيء؟ وبدأ قلبها يخفق بسرعة. لكن، وقبل أن يتسع وقتها لتشكل رعبها الغامض بشكل محدد، مشى أحدهم مقترباً من غرفتها وطرق بابها.

- مسز فاين -

- ميزت صوت وادينجتون

- نعم. ما الأمر؟ -

- هل نهضت على الفور. لدي ما أقوله لك -

نهضت وارتدت الروب. أدارت المفتاح وفتحت الباب، فوقع نظرها على وادينجتون في بنطلون صيني ومعطف من قماش البنجي، وكان صبي الدار يحمل مصباح إصباح. ووقف ثلاثة جنود صينيين في ملابس خاكي على مسافة قصيرة منه. جفلت عندما رأت تجهماً على وجه وادينجتون، وكان رأسه أشعث الشعر كأنه قفز خارجاً من السرير في هذه اللحظة تماماً.

- شهقت:

- ما الأمر؟ -

- يجب أن تحتفظي بهدوئك. ليس أمامنا أي لحظة لنضيعها. ارتدي ملابسك حالاً وتعالى معي -

لكن، ما الأمر؟ هل حدث شيء في المدينة؟ -

وأوحى إليها منظر الجنود أن ثورة اندلعت، وأنهم حضروا لحمايتها

نُقل زوجك وهو مريض. نريدك أن تأتي في الحال -

صاحت:

ولتر؟ -

يجب ألا تنزعجي. إنني لا أعرف بالضبط ما الأمر. لقد اتصل العقيد يو، وطلب مني أن -

أحضرك إلى يامين على الفور

حدقت كيتي فيه للحظة، وشعرت ببرودة فجائية في قلبها، ثم استدارت

سأستعد خلال دقيقتين -

أجاب:

أتيت كما كنت تمامًا. كنت نائمًا وارتديت معطفًا وانتعلت حذاء -

لم تسمع ما قاله، وارتدت على نور النجوم متناولة أول الملابس التي وقعت يداها عليها.

وأصبحت أصابعها خرقاء فجأة إلى حد أنه بدا أنها ستستغرق دهرًا لتعثر على المشابك الصغيرة

التي تغلق فستانها. ولفت كتفها بالشال الكانتوني الذي ترتديه في المساء

لم ألبس قبعة. ليس هناك حاجة إلى هذا، أليس كذلك؟ -

لا -

رفع الصبي القنديل أمامهم، فأسرعوا هابطين الدرج وخرجوا من بوابة المجمع

قال وادينجتون:

احذري أن تسقطي على الأرض. يحسن بك أن تتعلقي بذراعي -

تبعهما الجنود، وساروا مباشرة خلفهما

أرسل العقيد يو محفات. إنهم ينتظرون على الجانب الآخر من النهر -

هبط التل مسرعين. لم تستطع كيتي حمل نفسها على نطق السؤال الذي كان يرتجف على

نحو رهيب على شفيتها. كانت خائفة من الجواب خوفًا مهلًا. وصلوا إلى ضفة النهر، وكان

هناك قارب سامبان ينتظرهم وعند مقدمته خيط من نور

قالت حينها:

- أهى الكوليرا؟

- أخشى أن تكون كذلك -

- أطلقت صرخة صغيرة، ثم توقفت فجأة

- أظن أن عليك أن تسرعى بقدر ما تستطيعين -

مد إليها يده ليساعدها على أن تتركب القارب. كان الممر قصيراً والنهر آسناً تقريباً، فوقفوا مكونين مجموعة مترابطة عند مقدمة القارب بينما دفعت امرأة تربط طفلاً إلى ردفها القارب عبر النهر بمجذاف.

قال وادينجتون:

- لقد نُقل وهو مصاب بالمرض بعد ظهر اليوم، أقصد بعد ظهر أمس -

- لماذا لم أستدع على الفور؟ -

بالرغم من عدم وجود سبب لكلامهما همساً، إلا إنهما تبادلوا الحديث هامسين. وفي الظلام، شعرت كيتي فقط بمدى شدة قلق صاحبها.

- أراد العقيد يو أن يستدعيك، لكن ولتر لم يسمح له بذلك. لقد ظل العقيد يو معه طوال الوقت -

- إكان يجب أن يستدعيني مع ذلك. إن هذا قسوة -

- إن زوجك يعرف أنك لم تري أحداً مصاباً بالكوليرا. إنه منظر رهيب ومنفر. لم يرد أن تري هذا المنظر.

قالت بصوت مختنق:

- بعد كل هذا. إنه زوجي -

- لم يحر وادينجتون جواباً

- لماذا سمح لي الآن بالحضور؟ -

- وضع وادينجتون يده على ذراعها

- عزيزتي، يجب أن تتشجعي. يجب أن تستعدي للأسوأ -

فأطلقت عويل ألم مبرح، وأشاحت بوجهها قليلاً، فقد رأت أن الجنود الصينيين الثلاثة ينظرون إليها. لمحت فجأة نظرة سريعة فجائية غريبة لبياض أعينهم

- هل هو يحتضر؟ -

أنا أعرف فقط الرسالة التي أرسلها العقيد يو إلى هذا الضابط الذي حضر وأحضرني. وقدر -
ما أستطيع الحكم عليه، فإن الانهيار كان قد بدأ

- ألا يوجد أي أمل قط؟ -

- أنا آسف جداً، وأخشى أننا لن نجده على قيد الحياة إذا نحن لم نصل إلى هناك بسرعة -

- ارتعدت. وبدأت الدموع تسيل على خديها

- أنتِ ترين هذا. لقد ظل يفطر في العمل، لم تكن لديه قوة مقاومة -

انسحبت من ضغط ذراعه بحركة غليظة، فقد أزعجها أنه كان يجب أن يتكلم بذلك الصوت
الواطي المتألم ألماً مبرحاً

بلغوا جانب النهر الآخر، فساعدها حمالان صينيان يقفان على ضفة النهر لتخطو على
الشاطئ. كانت المحفات في انتظارهم، وحينما ركبت كيتي محفتها قال لها وادينجتون

- حاولي أن تتمالكي أعصابك. فستحتاجين إلى كل سيطرتك على أعصابك -

- قل للحمالين أن يسرعوا -

- لقد تلقوا الأوامر بأن يسرعوا قدر الإمكان -

مر بها الضابط الذي كان جالساً في محفته، وحينما مر صاح بحمالي كيتي، فرفعا المحفة
برشاقة، وثبتا أعمدة المحفة على أكتافهما، وانطلقا بخطى سريعة، وتبعها وادينجتون خلفها
مباشرة، وصعدوا التل جرياً، ورجل يحمل قنديلاً يسير أمام كل محفة، وعند بوابة الماء كان
حارس البوابة يقف حاملاً مشعلاً. صاح به الضابط حينما تقدموا، ففتح جانباً من البوابة ليسمح
لهم بالمرور منها، ونطق بنوع من اعتراض حالما مروا، وردد الحمالون ما قاله إلى الذين
خلفهم. وفي بهيم الليل بدت تلك الأصوات الحلقية بلغة غريبة غامضة ومزعجة. انسابوا
صاعدين حصى الزقاق المبلل الزلق، تعثر أحد حاملي محفة الضابط. فسمعت كيتي صوت العقيد
يرتفع غاضباً، ورد حامل المحفة بصوت حاد ثم تابعت المحفة في المقدمة الاندفاع. كانت
الشوارع ضيقة وملتوية. وكان الليل هنا في المدينة حالماً. لقد كانت مدينة الموتى. أسرعوا على
طول زقاق ضيق وداروا حول ركن، ثم ارتقوا مجموعة أدراج جرياً، وأخذ حاملو المحفات
ينفخون لاهثين بجهد الآن، فقد ساروا بخطوات طويلة سريعة، وهم صامتون، وأخرج أحدهم
منديلاً رثاً ومسح به العرق الذي انحدر إلى داخل عينيه من جبهته وهو يتابع السير، وراحوا

ينعطفون مع هذا الطريق وذاك حتى بدا أنهم ينطلقون مسرعين خلال متاهة شبكة طرق معقدة. وفي ظل الدكاكين مقفلة المصاريح. بدا أن شكلاً يستلقي هناك أحياناً، لكنك لم تكن تعرف إذا كان الشكل رجلاً نام ليستيقظ عند الفجر أم رجلاً لن يستيقظ إطلاقاً، وكانت الشوارع الضيقة شبحية في خوائها الصامت، وحين كان كلب ينبح بصوت عالٍ فجأة، كان يثير صدمة رعب في أعصاب كيتي المعذبة. لم تعرف أين كانوا يذهبون، فقد بدا الطريق بلا نهاية. ألا يستطيعون السير بأسرع من ذلك؟ أسرع. أسرع، فالوقت يمضي، وقد تكون أي لحظة سبباً في فوات الأوان

* * *

فجأة، وبينما هم يسرون على طول جدار أبيض طويل، وصلوا إلى بوابة تنتصب على جانبيها أكشاك حراسة، فأنزل حاملو المحفات محفاتهم. أسرع وادينجتون نحو كيتي. وكانت قد قفزت خارجة من المحفة. وطرق الضابط بعنف على الباب وصاح. فُتح باب جانبي فدخلوا إلى الفناء. كان الفناء كبيراً مربعاً. كان الجنود منكمشين على أنفسهم لصق الجدران تحت أفاريز بروز الأسطح وقد التفوا ببطانياتهم، مستلقين في مجموعات متلاصقة. فوقفوا للحظة بينما تكلم الضابط إلى رجل قد يكون رقيباً في نوبة حراسة. استدار وقال شيئاً لوادينجتون. فقال وادينجتون بصوت منخفض:

لا يزال حيّاً. انتبهي حين تمشين -

وفيما كان الرجال حاملو القناديل يتقدمونهم. ساروا عبر الفناء وارتقوا بعض الدرجات ودخلوا من فتحة باب، ثم هبطوا إلى داخل فناء آخر واسع، وانتصبت على أحد جوانب هذا الفناء غرفة طويلة فيها أنوار، وألقت الأنوار الداخلية المتألثة من خلال ورق الأرز ظلال نموذج العلية التفصيلي، وقادهم حاملو القناديل عبر الفناء نحو هذه الغرفة. وطرق الضابط على بابها. فُتح الباب فوراً ثم خطا الضابط إلى الخلف بعد أن ألقى نظرة سريعة على كيتي.

قال وادينجتون:

هلاً دخلت -

كان غرفة واطنة طويلة، وقد حولت المصابيح المدخنة التي تضيء الغرفة الكآبة إلى جو منذر بالشؤم. وثق ثلاثة أو أربعة ممرضين في الغرفة. وتمدد رجل على حشية لصق الجدار مقابل الباب منكمشاً على نفسه تحت البطانية، ووقف ضابط بلا حراك عند أسفل الحشية.

أسرعت كيتي فمالت فوق الحشية. تمدد ولتر وعيناه مغمضتان، وتلّون وجهه تحت هذا النور الكئيب بلون الموت الرمادي. كان ساكناً سكوناً رهيباً.

شبهت بصوت منخفض ورنه صوت مرعوبة:

!ولتر، ولتر -

ظهرت على الجسد حركة طفيفة، أو ظل حركة، وكانت طفيفة جداً إلى حد أنها كانت كهبة هواء لا يمكنك أن تحس بها، لكنها تموج للحظة من الزمن سطح ماء ساكن.

.ولتر، ولتر، تحدث إليّ -

انفتحت العينان ببطء، كأن جهدًا لا نهائيًا قد بُذل لرفع هذين الجفنين الثقيلين، لكنه لم ينظر، بل حدق في الجدار على بُعد بضع بوصات من وجهه. تكلم، وغشيت صوته الخفيض والضعيف:
لمحة ابتسامة فيه. قال:

.إن هذا إبريق سمك جميل -

لم تجرؤ كيتي على أن تتنفس. لم يُصدر أي صوت آخر، ولا حتى بداية حركة، لكن عينيه، تلكما العينين الداكنتين البارديتين (أي أسرار تراهما هاتان العينان الآن؟) حدقتا في الجدار الأبيض. وقفت كيتي على قدميها، وواجهت الرجل الواقف هناك بنظرة متعبة.

.بالتأكيد أنه يمكن فعل شيء، لن تقف هناك دون أن تفعل شيئًا -

.تماسكت يداها. وتكلم وادينجتون إلى الضابط الواقف عند طرف الفراش

أخشى أنهم قاموا بكل ما كان ممكنًا. لقد واصل جرّاح الفوج العسكري معالجته. فقد دربه -
زوجك وقام بكل ما كان يمكن لزوجك أن يقوم به بنفسه

.هل هذا هو الجرّاح؟ -

.لا، هذا هو العقيد يو. إنه لم يفارق جانب زوجك قط -

وألقت كيتي عليه نظرة سريعة وهي ذاهلة. كان رجلًا طويلًا إلى حد ما، لكنه قوي البنيان، وقد بدا قلقًا في بزته الكاكية. كان ينظر إلى ولتر، ورأت أن عينيه كانتا مغرورقتين بالدموع. وأثار هذا في نفسها ألمًا واخزًا. لماذا تغرورق عينا هذا الرجل ذو الوجه الأصفر المنبسط بالدموع؟ لقد أسخطها هذا

.إنه لأمر رهيب ألا تكون قادرًا على فعل أي شيء -

.قال وادينجتون:

.لم يعد يشعر بالألم على الأقل -

وانحنيت مرة أخرى على زوجها. ظلت عيناها المروعتان هاتان تحدقان بخواء أمامه. لم تكن تستطيع أن تعرف إذا كان يرى بهما. ولم تعرف إن كان سمع ما قيل، فألصقت شفثيها على أذنيه:

.ولتر، ألا يوجد ما يمكننا فعله؟ -

فكرت أنه لا بد أن يكون هناك دواء يمكنهم أن يعطوه له فيمنع انسحاب حياته الرهيب هذا. وبعد أن اعتادت عيناها الآن أكثر على العتمة، رأت، والرعب يسيطر عليها، أن وجهه تهدل ساقطاً. وكانت لا تكاد تتعرف عليه. لم يكن من الممكن التفكير بأنه سيبدو خلال بضع ساعات قصيرة شبيهاً برجل آخر، فهو لا يكاد يبدو كإنسان على الإطلاق، لقد كان يشبه الموت

.ظنت أنه كان يبذل جهداً للكلام. ألصقت أذننها به

.لا تقلقوا! لقد واجهت طريقاً وعرّاً، لكنني على ما يرام الآن -

انتظرت كيتي للحظة، لكنه خلد إلى الصمت، ومزق سكونه قلبها بألم مبرح، كان من المرعب أن يظل ساكناً بهذا الشكل. بدا أنه مستعد لسكون القبر. تقدم أحدهم، الجراح أو الممرض، وأبعدها جانباً بحركة منه، وانحنى على الرجل المحتضر وبلل شفثيه بخرقه قدرة. نهضت كيتي واقفة مرة أخرى والتفتت إلى وادينجتون وقد سيطر عليها اليأس

:همست

- ألا يوجد أي أمل أبداً؟ -

.هز رأسه

- إلى متى سيظل على قيد الحياة؟ -

.لا أحد يعرف! ساعة. ربما -

أجالت كيتي نظرها حولها في الغرفة العارية، واستقرت عيناها للحظة على شكل العقيد يو القوي.

:سألت

.هل يمكن أن أترك وحيدة معه لوهلة؟ لمدة دقيقة واحدة فقط -

.بالتأكيد، إذا أردت هذا -

خطا وادينجتون نحو العقيد وتكلم إليه. انحنى العقيد انحناءة خفيفة، ثم أصدر أمراً بصوت منخفض.

:قال وادينجتون وهم يخرجون

.سننتظر على الدرجات. ما عليك سوى أن تُنادي -

بعد أن سيطر على وعيها الآن الوضع الذي لا يُصدق، كدواء يتخلل عروقها، وبعد أن أدركت أن ولتر سيموت، لم يعد يشغل ذهنها إلا تفكير واحد وذلك هو أن تسهل عليه نهايته بأن تستل من روحه الغل الذي سمم تلك الروح. بدا لها أنه إذا مات وهو على وئام معها هي فإنه سيموت وهو على وئام مع نفسه. لم تفكر الآن بنفسها إطلاقاً، بل فكرت به فقط.

قالت منحنية عليه، لكنها حرصت على ألا تلمسه خشية ألا يستطيع احتمال الضغط

ولتر، أناشذك أن تصفح عني. أنا أسفة أشد الأسف لما ارتكبته من خطأ في حقك. إنني -
نادمة على هذا ندمًا مريراً جداً

لم يقل شيئاً. لم يبد أنه سمعها. كانت مضطرة إلى أن تلح عليه. بدا لها على نحو غريب أن روحه كانت فراشة مرفرفة وأجنحتها ثقيلة بالكرهية

.حبيبي -

ومر ظل على وجهه الذابل الغائر. كانت أقل من حركة، لكنها أعطت تأثير تشنج مرعب. لم تكن قد وجهت هذه الكلمة إليه من قبل. ربما مرت في دماغه المحتضر فكرة، مشوشة ولا تفهم إلا بصعوبة، بأنه لم يسمعها تردد هذه الكلمة، وهي كلمة مبتذلة في مفرداتها. إلا للكلاب والأطفال والسيارات. ثم حدث شيء مرعب، قبضت على يديها، محاولة بكل قوتها أن تسيطر على نفسها، فقد رأت دمتين تجريان ببطء على وجنتيه الهزيلتين

أوه، يا حبيبي الغالي، يا عزيزي، لو أنك أحببتي - أعرف أنك أحببتي وكنت كريهة -
أرجوك أن تغفر لي. ليس أمامي فرصة الآن في أن أظهر لك ندمي، ارحمني، أناشذك أن تغفر لي.

توقفت عن الكلام، ثم نظرت إليه، وهي تحبس أنفاسها تماماً، منتظرة بلهفة جواباً. رأت أنه حاول أن يتكلم. خفق قلبها خفقة شديدة. بدا لها أنها لو استطاعت في هذه اللحظة الأخيرة أن تخلصه من ذلك الحمل من المرارة، فإن هذا سيكون إصلاحاً للمعاناة التي سببتها له بأسلوب من الأساليب. تحركت شفاته. لم ينظر إليها. حدقت العينان اللتان لا تبصران في الجدار الأبيض، فانحنت فوقه حتى تتمكن من أن تسمع، لكنه تكلم بوضوح تام

.الكلب هو الذي مات -

ظلت صامته كما كانت، كأنها تحولت إلى حجر. لم تستطع أن تفهم. وحدقت فيه بارتباك مرتعب. كان ما قاله بلا معنى. هذيان. إنه لم يفهم كلمة مما قالته

كان من المستحيل أن يكون ساكناً بهذا الشكل وهو حيّ في نفس الوقت. حدقت. كانت عيناه مفتوحتين. لم تستطع أن تتبين إذا كان يتنفس. بدأت تشعر بالخوف

:همست

- !ولتر، ولتر -

.أخيراً، وفجأة، رفعت نفسها. فقد سيطر عليها خوف مفاجئ. استدارت واتجهت إلى الباب

...هلاً دخلتم من فضلكم، لا بد أنه -

خطوا داخلين. اقترب الجراح الصيني من السرير. كان يحمل مصباحاً يدوياً كهربياً في يده، فأشعله ونظر في عيني ولتر، ثم أغمضهما. قال شيئاً باللغة الصينية، فأحاط وادينجتون كيتي بذراعه

.أخشى أنه مات -

أطلقت كيتي تنهيدة عميقة، وسقطت بضع دمعات من عينيها. شعرت بالذهول أكثر مما أحست بالقهر. وقف الصينيون في الغرفة حول السرير، عاجزين كأنهم لم يعرفوا تماماً ما سيفعلونه بعد ذلك. كان وادينجتون صامتاً، وبدأ الصينيون يتكلمون بصوت خفيض النغمة بينهم بعد دقيقة

:قال وادينجتون

.الأفضل أن تسمح لي أن أعود بك إلى البنجالو. سيحضرونه إلى هناك -

مررت كيتي يدها على جبهتها بإعياء. اقتربت من السرير وانحنت فوقه. قبلت ولتر برقة على شفتيه. لم تعد تبكي الآن

.أنا آسفة لأنني كبدتكم هذا العناء الشديد -

حياها الضابطان تحية عسكرية حينما مرت بهما وانحنت هي انحناءة رزينة. سارا عاندين عبر الفناء وركبا محفتيهما. رأت وادينجتون يشعل سيجارة. ضاع قليل من الدخان في الهواء، هذه هي حياة الإنسان

* * *

الآن كان الفجر يبزغ، وأخذ صيني هنا وهناك يُنزل مصاريع دكانه، وفي تجاويف المكان المعتمة، راحت امرأة تغسل يديها ووجهها على نور ذبالة مدبية. وفي دار شاي في أحد الأركان، كانت مجموعة من رجال يتناولون وجبة مبكرة. وتسلك نور النهار البازغ الرمادي والبارد على طول أزقة ضيقة كأنه لص. وحط ضباب شاحب على النهر، فلاحت صاريات المراكب المتجمعة فيه من خلال الضباب كرماح جيش أشباح. كان الجو بارداً وهما يعبران النهر، وانكشمت كيتي على نفسها في شالها الملون الزاهي. صعدا التل، وسرعان ما اعتليا الضباب. تألقت الشمس من سماء منقشعة الغيوم. تألقت كأن هذا اليوم كان شبيهاً بيوم آخر، ولم يحدث أي شيء ليميزه عن سواه من الأيام.

قال وادينجتون حين دخلا البنجالو:

.ألا تريدان أن تنامي قليلاً -

.لا، سأجلس عند النافذة -

فخلال الأسابيع التي مضت جلست عند النافذة مراراً ولمدة طويلة جداً، إلى حد أن عينيها ألفت الآن المعبد الخيالي المبهرج الجميل الغامض المقام على قلعته العظيمة، مما بث الراحة في نفسها. كان لا واقعياً إلى حد أنه كان يسحبها بعيداً عن واقعية الحياة حتى في منتصف النهار تماماً.

سأمر الصبي أن يُعد لك شايًا. أخشى أنه سيكون من الضروري دفنه هذا الصباح. سأقوم -

بالترتيبات

.شكرًا -

* * *

دفنوه بعد ثلاث ساعات. بدا من المرعب لكيتي أنهم لا بد أن يضعوه داخل تابوت صيني، كأنه كان يجب أن يستريح متملماً في سرير غريب كهذا. لكنه لم يكن ثمة مناص من هذا. وأرسلت الراهبات، وقد عرفن بموت ولتر كما يعرفن كل ما يحدث في المدينة، صليباً من الأضاليا، صلباً ورصين الشكل، لكنه بدا كأن يدي بائع زهور خبيرتين صنعته، وبدا الصليب، وهو وحيد على التابوت الصيني، بشعاً وفي غير مكانه، وحين أُعد كل شيء، كان عليهم أن ينتظروا العقيد يو الذي أرسل إلى وادينجتون قائلاً إنه يرغب في حضور الجنازة. وحضر بصحبة أحد معاونيه. صعدوا التل، وقد حمل التابوت ستة خدم صينيين، إلى بقعة أرض صغيرة حيث دُفن طبيب الإرسالية الذي حلّ ولتر مكانه. كان وادينجتون قد وجد بين أشياء الطبيب كتاب صلاة باللغة الإنجليزية، فأخذ الآن يقرأ قداس الدفن بصوت خافت مرتبك كان غير عادي بالنسبة له. ربما حلق التفكير في عقله، وهو يردد تلك الكلمات المهيبية والرهيبة في نفس الوقت، بأنه إذا سقط بدوره ضحية للوباء فلن يكون هناك أي شخص ليردد هذا القداس عليه. أنزل التابوت داخل القبر، وأخذ حفارو القبر في إهالة التراب عليه. اعتمر العقيد يو قبعته بعد أن كان يقف حاسر الرأس إلى جانب القبر، ثم أدى التحية لكيتي بحزن. وقال كلمة أو كلمتين لوادينجتون وابتعد يتبعه معاونه. تسكع الخدم مكونين مجموعات متناثرة هنا وهناك، وقد دفعهم الفضول لمراقبة طقوس دفن مسيحية، ثم تسللوا مبتعدين، وقد حملوا بأيديهم قضبان محفاتهم وهي تجر على الأرض.

انتظرت كيكي وادينجتون إلى أن ملئ القبر بالتراب، ووُضع على الكومة العابقة برائحة الأرض الطازجة صليب الراهبات الجميل المصنوع من الأضاليا. لم تكن قد بكت، لكنها شعرت بخبطة في قلبها عندما قرع أول ملء رفش من التراب وهو يسقط على التابوت.

رأت أن وادينجتون كان ينتظر أن تأتي إليه.

سألت:

هل أنت مستعجل؟ إنني لا أريد أن أعود إلى البنجالو الآن -

ليس لدي ما أفعله. أنا رهن إشارتك تماماً -

* * *

سارا بتهمل على الممر إلى أن وصلا إلى قمة التل التي ينتصب عليها الممر القوسي، نصب ذكرى أرملة فاضلة، احتل جزءًا كبيرًا من انطباع كيبي عن المكان. كان رمزًا، لكنها لم تكن تكاد تعرف الشيء الذي يرمز إليه. ولم تستطع أن تفهم سبب حمله لنغمة سخرية لأدعة كهذه.

هلاً جلسنا قليلاً؟ لم نجلس هنا منذ عصور طويلة -

امتد السهل واسعاً أمامهما، كان هادئاً وجليلاً في نور الصباح.

مضى عليّ هنا بضعة أسابيع فقط، لكنه يبدو لي كأنه عمر كامل -

لم يُجب، وسمحت هي لأفكارها أن تشرذم لوهلة، وأطلقت تنهيدة. سألت:

هل ترى أن الروح خالدة؟ -

لم يبد مندهشاً من السؤال.

كيف لي أن أعرف؟ -

منذ برهة، وحين غسلوا ولتر قبل أن يضعوه في التابوت، نظرت إليه. بدا أنه في عز - الشباب. أصغر سنًا من أن يموت. أتذكر ذلك المتسول الذي رأيناه أول مرة أخذتني فيها لنتمشى؟ لم أخف لأنه كان ميتًا، بل لأنه لم يكن مخلوقًا بشريًا في أي وقت من الأوقات. كان مجرد حيوان ميت. والأمر يتكرر الآن مع ولتر، فقد بدا تمامًا كأنه آلة تحطمت. ذلك هو المخيف إلى هذه الدرجة، فإن كان مجرد آلة، فيا لعبث كل هذه المعاناة وآلام القلب والشقاء.

لم يُجب، لكن عينيه تنقلتا فوق المنظر الممتد تحت أقدامهما، فالإسراع الشاسع في ذلك الصباح المرح المشمس يملأ القلب بالبهجة الشديدة. وامتدت حقول الأرز الصغيرة المزركشة إلى أقصى مدى تراه العين. وكان الفلاحون، المرتدون الملابس الزرقاء مع ثيرانهم، يعملون بجد في كثير من هذه الحقول. كان مشهدًا وادعًا وهنيئًا، وقطعت كيبي حبل الصمت.

لا يمكنني أن أصف لك مدى عمق تأثري بكل ما رأيته في الدير، إنهن مدهشات، تلك - الراهبات، إنهن يشعرنني بأنني لا قيمة لي أبدًا، فهن قد تخلين عن كل شيء، عن بيوتهن، وبلادهن، وحبهن وأطفالهن وحريرتهن، وعن كل الأمور الصغيرة التي أرى أحيانًا بأنها لا بد أن يكون من الصعب على الإنسان أن يتخلى عنها، الأزهار، والحقول الخضراء، والتمشية في يوم خريفي، الكتب والموسيقى، الراحة، وكل شيء يتخلين عنه، كل شيء. ويفعلن هذا حتى يتمكن

من تكريس أنفسهن لحياة تضحية وفقر، وطاعة، وعمل قاتل وصلاة، فهذا العالم بالنسبة إليهن كلهن منفي حقيقي وواقعي. إن الحياة صليب يحملنه عن طيب خاطر، لكن في قلوبهن، وطيلة الوقت، تنغرس رغبة— أوه، إنها أقوى من رغبة بكثير. إنه حنين، حنين متلهف وعاطفي إلى موتهن الذي سيقودهن إلى حياة دائمة وإلى الأبد.

:شبكت كيتي يديها ونظرت إليه وقد سيطر عليها ألم مبرح

- حسناً؟ -

ولنفترض أن ليس هناك حياة أبدية؟ ففكر فيما يعني هذا إذا كان الموت هو نهاية كل الأشياء -
حقاً. إنهن تخلين عن كل شيء مقابل لا شيء. لقد خدعن. إنهن مغبونات

:فكر وادينجتون لوهلة قصيرة

إنني أتساءل. أتساءل إن كان مهماً أن يكون ما هدفن إليه وهماً، فحياتهن في ذاتها جميلة. -
إن عندي فكرة عن الشيء الوحيد الذي يجعل من الممكن أن تنظري إلى هذا العالم الذي نعيش فيه بلا اشمزاز. هو الجمال الذي يستخرجه الرجال من وقت لآخر من بين الفوضى. الصور التي يرسمونها، الموسيقى التي يولفونها، الكتب التي يكتبونها، الحياة التي يخيونها. فأغنى الأشياء جمالاً، من هذه الأشياء، هي الحياة الجميلة. هذا هو العمل الفني المتقن

:تنهدت كيتي فما قاله بدا قاسياً. إنها تريد المزيد. تابع

- هل حضرت يوماً حفلة موسيقى سيمفونية؟ -

:ابتسمت

- نعم، إنني لا أعرف شيئاً عن الموسيقى، لكنني شغوفة بها إلى حد ما -

إن كل عازف في الأوركسترا يعزف على آله الصغيرة، وما الذي تظنين أنه يعرف عن التناسقات المعقدة التي تنفقت منطلقاً في الجو اللامبالي؟ إنه معني فقط بنصيبه الصغير. لكنه يعرف أن السيمفونية رائعة، وهي تظل رائعة مع أنه لا يسمع شيئاً منها، وهو قانع بعزف دوره

:قالت كيتي بعد فترة صمت

- لقد تكلمت عن تاو قبل بضعة أيام. قل لي. ما هو -

ألقى عليها وادينجتون نظرة قصيرة، وتردد للحظة، ثم أجاب وقد ارتسمت على وجهه الهزلي
:ابتسامة طفيفة

إنه السبيل والسائرون عليه. إنه الطريق الخالد الذي تسلكه كل المخلوقات، لكن أحدًا من المخلوقات لم يشق هذا الطريق، لأنه هو نفسه مخلوق. إنه كل شيء ولا شيء، فمنه تنبع كل الأشياء، وكل الأشياء تتلاءم معه، وإليه تعود كل الأشياء أخيرًا، إنه مربع بلا زوايا، صوت لا تستطيع الآذان أن تسمعه، وصوره بلا شكل. إنه شبكة واسعة، وبالرغم من أن خيوط هذه الشبكة واسعة اتساع البحر إلا إنه لا يسمح لأي شيء أن يتخللها. إنه الملاذ الذي تجد كل الأشياء ملجأ لها فيه. إنه غير محدد المكان. لكنك قد ترينه دون أن تنظري إلى خارج النافذة. إنه رغبة في ألا ترغب، إنه يُعلم ويترك كل الأشياء تأخذ مسارها. فذلك الشخص الذي يتواضع سيكون مُصانًا إلى الأبد، وذلك الذي ينحني سيقوم. إن الفشل هو أساس النجاح والنجاح هو مكن الفشل. لكن من الذي يحدد متى ستظهر نقطة الدوران؟ إن الذي يعمل جاهدًا من أجل الرقة يمكنه أن يصبح حتى كطفل صغير. اللطف يجلب النصر إلى الذي يهاجم، والأمان إلى الذي يُدافع، قوي هو الذي يتغلب على نفسه.

هل هذا يعني أي شيء؟ -

أحيانًا، فعندما أكون قد شربت نصف دسّة من كؤوس الويسكي وأنظر إلى النجوم، أرى أنه قد يكون لهذا معنى.

ران عليها صمت، وحين تحطم، كانت كيتي هي التي تكلمت:

قل لي، هل عبارة «الكلب هو الذي مات» اقتباس من أي كتاب؟ -

عبر رسم ابتسامة شفّتي وادينجتون واستعد بإجابته، لكن مداركه ربما كانت مرهقة بشكل غير عادي في تلك اللحظة، لم تكن كيتي تنظر إليه، لكن عبارتها كانت محاطة بشيء جعله يغير رأيه.

أجاب بحذر:

إذا كان اقتباسًا، فأنا لا أعرف. لماذا؟ -

لا شيء. خطر ببالي. إن له رنينًا مألوفًا.

وساد صمت آخر، وما لبث أن قال وادينجتون:

عندما كنت وحيدة مع زوجك، تبادلت حديثًا مع جراح الفوج. لقد فكرت في أننا يجب أن نلم -

ببعض التفاصيل.

حسناً؟ -

لقد كان في حالة هستيريا بالغة، ولم أستطع أن أفهم تماماً ما الذي قصده. وقدر ما -
استطعت استخلاصه من معلومات، فإن زوجك أصيب بالعدوى خلال إجرائه دورة تجارب

لقد كان دائماً يُجري تجارب. لم يكن في الواقع طبيياً. لقد كان عالم بكتيريا، لذلك السبب كان -
متلهفاً إلى هذا الحد للحضور إلى هنا

لكنني لم أستطع أن أستخلص تماماً من تصريحات الجراح فيما إذا كان قد أصيب بالعدوى -
صدفة أو أنه كان يُجري على نفسه تجارب فعلاً

شحبت كيتي شحوباً شديداً، وأثارت الفكرة الرجفة في جسدها. أمسك وادينجتون بيدها

قال بلطف:

اغفري لي حديثي عن هذا ثانية، لكنني ظننت أن هذا قد يريحك، فأنا أعرف كم هو صعب -
جداً أن يردد الإنسان في هذه المناسبات أقوالاً ليس فيها إلا أقل فائدة، ظننت أنه قد يعني لك شيئاً
أن يكون ولتر مات شهيد العلم وشهيد واجبه

:هزت كيتي كتفها وقد سيطر عليها شك بنفاد الصبر. قالت

لقد مات ولتر لتحطيم قلبه -

لم يُجب وادينجتون. التفتت ونظرت إليه ببطء. كان وجهها أبيض وجامداً

ما الذي قصده بقوله «الكلب هو الذي مات»؟ ماذا قصد؟ -

إنه آخر بيت شعر في مرثية جولد سميث -

* * *

في الصباح التالي، ذهبت كيتي إلى الدير. بدت الفتاة التي فتحت الباب مندهشة قليلاً إذ رأتها، وحين مضت على كيتي بضع دقائق وهي تقوم بعملها. دخلت الأم الرئيسة. تقدمت من كيتي وأمسكت بيدها.

أنا مسرورة أن أراك يا طفلي العزيزة، لقد أظهرت شجاعة نادرة في عودتكِ إلى هنا بعد -
حزنك الشديد، وهذه حكمة منك، فأنا متأكدة من أن قليلاً من العمل سيشغلك عن التفكير

:غضت كيتي طرفها، محمرة قليلاً، فهي لا تريد أن تُري الأم الرئيسة ما في قلبها

.لست بحاجة أن أخبرك عن مدى صدق تعاطفنا كلنا هنا معك -

:همست كيتي

.أنتن رقيقات للغاية -

.كلنا نصلي باستمرار من أجلك، ومن أجل روح ذلك الذي فقدته -

لم تحر كيتي جواباً. أفلتت الأم الرئيسة يدها، ثم أكلت إليها مهمات مختلفة برنة صوتها البارد والأمرة. ربتت على رؤوس طفلتين أو ثلاث طفلات، وألقت عليهن ابتسامة من عل، لكنها كانت ابتسامة فاتنة، ثم التفتت إلى أمورها الأكثر إلحاحاً

* * *

مضى أسبوع. كانت كيتي تقوم بأعمال الخياطة. دخلت الأم الرئيسة الغرفة وجلست بجانبها.

:ألقت على عمل كيتي نظرة سريعة مدققة

أنتِ تخططين بشكل جيد جدًا يا عزيزتي، إنه إنجاز نادر بالنسبة إلى امرأة شابة من عالمك -
في هذه الأيام

.إنني أدين بهذا لأمي -

.أنا متأكدة من أن أمك ستسر سرورًا عظيمًا لرؤيتها لك ثانية -

رفعت كيتي عينيها. كان في سلوك الأم الرئيسة ما منع أخذها الملاحظة كمجاملة عرضية.

:وتابعت الكلام الآن

لقد سمحت لك أن تحضري إلى هنا بعد موت زوجك العزيز لأنني رأيت أن انشغالك -
سيصرف عقلك عن التفكير. فأنا لم أر أنك ستكونين مستعدة في تلك اللحظة أن تقومي بالرحلة
الطويلة إلى هونج كونج وحدك. كما لم أرغب في أن تبقي وحيدة في بيتك وليس لديك ما تفعلينه
سوى تذكر خسارتك. لكن ثمانية أيام قد مرت الآن وها قد حان الوقت لترحلي

.أنا لا أريد أن أرحل يا أماه. أريد أن أبقى هنا -

ليس لديك ما تبقين من أجله. فقد جئت إلى هنا لتقومي مع زوجك، وزوجك مات. وأنت في -
وضع ستحتاجين فيه، بعد وقت قصير، إلى رعاية واهتمام، ومن المستحيل عليك أن تحصلي
على هذا هنا. إن واجبك، يا طفلي العزيزة، هو أن تبذلي قصارى جهدك لصالح المخلوق الذي
أودعه الله ليكون تحت رعاياتك.

.صمتت كيتي للحظة، وغضت نظرها

كنت أظن أنني ذات نفع هنا. كان من دواعي سروري العظيم أن أرى أنني كنت كذلك، وآمل -
أن تسمح لي في أن أتابع العمل إلى أن يصل الوباء إلى نهايته

:أجابت الأم الرئيسة، وقد ارتسمت على شفيتها ابتسامة طفيفة

نحن شاكرات جدًا لما قمت به من أجلنا. لكن، والآن وبعد أن أخذ خطر وصول الوباء إلى -
هنا يخف ولم يعد خطرًا كبيرًا جدًا، فأنا أتوقع أن تحضر أختان من كانتون. ستحلان هنا خلال
وقت قصير جدًا، حينما تصلان، فإنني لا أظن بأنني سأكون قادرة على الاستفادة من خدماتك

غاص قلب كيتي. لم تسمح لهجة الأم الرئيسة بأي جواب، فكيتي تعرفها معرفة كافية لتقنعها بأنها ستعير توسلها أدناً صماء. وقد أضفت معرفتها ضرورة مناقشة كيتي مناقشة منطقية. أضفت على صوتها نبرة، إن لم تكن نبرة غضب، فإنها على الأقل نبرة حزم قد يؤدي إلى هذا الغضب.

لقد تكرم مستر وادينجتون وطلب مشورتي -

:قاطعتها كيتي

.أتمنى لو أنه اهتم بعمله الخاص -

:قالت الأم الرئيسة بلطف

لو أنه لم يطلب مشورتي لكنت أحسست بنفس الالتزام لتقديمها إليه. إن مكانك في اللحظة - الحالية ليس هنا، بل مع أمك. لقد قام مستر وادينجتون بالترتيبات مع العقيد يو لتقديم حراسة قوية حتى تكوني آمنة كل الأمان في رحلتك. كما دبر أمر الحمالين والخدم. ستذهب الخادمة معك، وستوضع الترتيبات في المدن التي ستمرين من خلالها، وفي الحقيقة، لقد تم تنفيذ كل شيء ممكن من أجل راحتك

زمت كيتي شفتيها، رأت أنه كان عليهم أن يستشيروها على الأقل في أمر يعينها هي نفسها.

:كان يمكنها أن تمارس بعض ضبط النفس حتى لا تجيب بحدة

ومتى سأنطلق؟ -

.ظلت الأم هادئة تمامًا

كلما استطعت العودة إلى هونج كونج بسرعة ثم الإبحار إلى إنجلترا، كلما كان هذا أفضل، يا - طففتي العزيزة، رأينا أنك ستودين الانطلاق عند فجر بعد الغد

بهذه السرعة؟ -

.شعرت كيتي بميل طفيف أن تبكي، لكن هذا كان صحيحًا تمامًا. فلم يكن لديها مكان هناك

:ثم قالت بخشونة

.يبدو أنكم كلكم تتعجلون التخلص مني -

أحست كيتي بتراخٍ في سلوك الأم الرئيسة. فقد رأت أن كيتي كانت مستعدة للإذعان، فاتخذت بلا وعي لهجة أكثر لطفًا. كانت روح كيتي مرهفة، ولمعت عيناها وهي تفكر أن القديسين

أنفسهم يحبون أن يسلكوا طريقهم الخاص بهم.

لا تظني أنني لا أقدر طيبة قلبك يا طفلي العزيزة ولطفك النادر الذي يجعلك غير راغبة في -
التخلي عن واجباتك التي فرضتها على نفسك.

حدقت كيتي أمامها مباشرة، وهزت كتفيها هزة خفيفة. كانت تعرف أنها لا يمكنها أن تنسب
إلى نفسها فضائل مجيدة كهذه. لقد أرادت أن تبقى هنا لأنه ليس لديها أي مكان تتجه إليه. لقد
كان هذا شعورًا عجيبيًا ألا يكون في العالم أي شخص يهتم أدنى اهتمام إذا كانت حية أو ميتة.

:واستطردت الأم الرئيسة قائلة بود:

لا أفهم كيف تنفرين من العودة إلى الوطن. في هذه البلاد العديد من الأجانب الذين -
سيقدمون الكثير في سبيل أن تتاح لهم فرصتك.

لكن، لست أنتِ يا أمّاه؟ -

أوه، إن الوضع مختلف بالنسبة إلينا يا طفلي العزيزة، فعندما نأتي إلى هنا، فإننا نعرف أننا -
نترك بيوتنا إلى الأبد.

ومن مشاعر كيتي الجريحة برزت الرغبة في عقلها، التي ربما تكون خبيثة، رغبة في البحث
عن الوصلة في درع الإيمان الذي يحول الراهبات ويجعلهن محصنات على هذا النحو المتعالى
أمام كل المشاعر الطبيعية. وأرادت أن ترى ما إذا كان قد بقي في نفس الأم الرئيسة أي أثر من
الضعف البشري.

لا بد أنني فكرت أن من الصعب أحيانًا ألا تري ثانية هؤلاء الذين هم أعزاء على قلبك -
والمشاهد التي نشأت بينها.

ترددت الأم الرئيسة للحظة، لكن كيتي لم تستطع أن ترى، وهي تراقبها، أي تغيير في رصانة
وجهها الجميل الصارم.

إن هذا صعب على أمي العجوز الآن، فأنا ابنتها الوحيدة، وهي تود بشوق أن تراني مرة -
أخرى قبل أن تموت. أرغب في أن أتمكن من أن أقدم لها تلك الفرحة. لكن هذا لا يمكن تحقيقه.
وسننتظر حتى نستطيع أن نلتقي في الجنة.

الأمر سواء، فعندما يفكر الإنسان في هؤلاء الناس الذي هو عزيز عليهم كثيرًا، فلا بد أن -
يكون من الصعب ألا يسأل نفسه إذا كان على حق في قطع نفسه عنهم.

هل تسأليني إذا كنت قد ندمت في أي وقت من الأوقات على الخطوة التي خطوتها؟ -

:فجأة، أشرق وجه الأم الرئيسة وتابعت

- أبدأ، أبدأ، لقد استبدلت حياة كانت تافهة ولا مجدية مقابل حياة التضحية والصلاة -

:ساد صمت قصير، ثم ابتسمت الأم الرئيسة سالكة سلوكًا أطف

- سأطلب منك أن تأخذي صرة صغيرة وترسليها لي بالبريد عندما تصلين إلى مرسيليا. لا -

.أرغب في أن أعهد بها إلى مكتب البريد الصيني. سأحضرها فورًا

:قالت كيتي

- يمكنك إعطائي إياها غدًا -

- ستكونين مشغولة جدًا إلى حد أنك لن تحضري إلى هنا يا عزيزتي. سيكون من الملائم أكثر -

.لك أن تودعينا الليلة

نهضت واقفة، وغادرت الغرفة بوقار غير متكلف لم يستطع رداء الراهبة الفضفاض أن يُخفيه. ودخلت الأخت القديس جوزيف الغرفة بعد لحظة، لقد حضرت لتودعها. لقد تمنيت أن تقوم برحلة سعيدة وقالت لها إنها ستكون آمنة تمامًا، فالعقيد يو سيرسل حراسة قوية معها، وقد قامت الأخوات بالرحلة باستمرار لوحدن ولم يصبهن أي أذى. وهل هي تحب البحر؟ يا إلهي! يا للمرض الذي أصابها حين هبت عاصفة في المحيط الهندي. وقالت إن المدام أمها ستسر عندما ترى ابنتها، ويجب أن تعتني بنفسها، فبعد كل هذا، فإن لديها روحًا صغيرة أخرى تحت رعايتها الآن، وسيصلون كلهم من أجلها، وهي ستصلي في استمرار من أجله ومن أجل الطفل الصغير العزيز، ومن أجل روح الطبيب المسكين الشجاع. كانت حلوة اللسان، رقيقة الحاشية وحنونًا. لكن كيتي كانت على وعي عميق أنها لم تعد بالنسبة إلى الأخت القديس جوزيف (وتحديقها مثبت على الأبدية) إلا مجرد طيف بلا جسد أو مادة. وتملكتها رغبة جامحة في أن تمسك بالراهبة المكتنزة الطيبة من كتفيها وتهزها صانحة: «ألا تعرفين أنني مخلوق بشري، وتعيسة ووحيدة، وإنني أنشد الراحة والعطف والتشجيع، أوه، ألا تستطيعين أن تتحولي للحظة عن الله وتسبغي عليّ قليلاً من الحنان. ليس الحنان المسيحي الذي تكنينه لكل المعذبين، بل مجرد حنان بشري لي؟»، وأثار التفكير ابتسامة على شفتي كيتي. يا لمدى الدهشة العظيمة التي ستنتاب الأخت

القديس جوزيف! يقيناً أنها ستقتنع بما تشك فيه الآن فقط. وهو أن كل الشعب الإنجليزي مجانيين.

:أجابت كيبي:

- من حسن الحظ أنني بحار جيد جداً. فلم أصب قط بدوار البحر -

:عادت الأم الرئيسة بصرة صغيرة مرتبة. قالت:

إنها مناديل صنعتها بنفسها لمناسبة عيد تسمية أمي. لقد طرزت فتياتنا الصغيرات الأحرف - الأولى من اسمها.

أشارت الأخت القديس جوزيف إلى أن كيبي تود أن ترى مدى الجمال الذي أنجز به الشغل. فحلّت الأم الرئيسة الصرة وهي تبتسم ابتسامة متسامحة ومويخة. كانت المناديل من شاش ناعم وقد طرزت الأحرف الأولى بحروف متشابكة يعلوها تاج من أوراق التوت. وحين أطرت كيبي الشغل إطراء مناسباً. لفتت المناديل ثانية وسلّمت الصرة إليها. وبعد أن قالت الأخت القديس جوزيف: «حسناً يا سيدتي، سأصرف»، وكررت لها تحياتها المؤدبة واللا شخصية. خرجت من الغرفة. وأدركت كيبي أن هذه هي اللحظة التي ستستأن فيها من الأم الرئيسة، فشكرتها لطفها معها، ثم سارت معاً على طول الممرات الداخلية العارية المبيضة.

:قالت الأم الرئيسة:

- هل سأكلفك أكثر من اللازم إذا طلبت منك أن تسجلي الصرة عندما تصلين إلى مارسيليا؟ -

:قالت كيبي:

- سأفعل ذلك طبعاً -

.ألقت نظرة سريعة على العنوان. بدا الاسم فخماً جداً، لكن المكان المذكور لفت انتباهها.

- لكن هذا أحد القصور التي رأيتها. كنت أسافر بالسيارة مع أصدقاء في فرنسا -

:قالت الأم الرئيسة:

- إنه محتمل جداً. فمسموح للغرباء أن يشاهدوه خلال يومين في الأسبوع -

- أعتقد أنني لو أقمت في مكان جميل كهذا لما وجدت الشجاعة لتركه -

إنه نُصّب تاريخي بالطبع، لكنه لا يكاد يكون حميمياً. إذا شعرت بالندم على أي شيء، فلن -

يكون ذلك المكان هو الذي سأندم عليه، بل القصر الصغير الذي عشنا فيه عندما كنت طفلة. كان

هذا في البيرينيز. لقد ولدت على مسمع من البحر. إنني لا أنكر أنني أرغب أحياناً في أن أسمع الأمواج تلطم الصخور.

خطر ببال كيتي أن الأم الرئيسة، وهي تخمّن ما يدور في ذهنها من أفكار بسبب ملاحظاتها. تسخر منها بخبث، لكنهما وصلتا إلى باب الدير الصغير المتواضع. ولدهشة كيتي. أخذتها الأم الرئيسة بين ذراعيها وقبلتها. كان ضغط شفيتها الشاحبتين على وجنتي كيتي مفاجئاً لها إلى حد أنها احمرت وأثار فيها ميل لأن تبكي، فقد قبلتها الأم على جانب ثم قبلتها على الجانب الآخر.

مع السلامة، ليكن الله معك يا طفلي العزيزة -

:وأمسكت بها للحظة بين ذراعيها

تذكري أن أداك واجبك ليس شيئاً عظيماً، فهو مكلوب منك ولا يستحق المكافأة أكثر مما - يستحق غسلك ليديك عندما تكونا قذرتين. إن الشيء الوحيد المهم هو حب الواجب، وحين يكون الحب والواجب شيئاً واحداً، فإن البركة تحل في نفسك وتستمتعين بسعادة تفوق كل إدراك.

وأغلق باب الدير للمرة الأخيرة خلفها

* * *

سار وادينجتون مع كيتي صاعدين التل، ثم استدارا جانبًا للحظة لينظرا إلى قبر ولتر، وعند القوس التذكاري ودعها، وبعد أن نظرت إلى القوس لآخر مرة، شعرت أنها يمكنها أن تجيب على السخرية الغامضة لمظهر هذا النصب بسخرية مماثلة من ناحيتها، وخطت راكبة محفتها.

ومر يوم وراء آخر، وبدأت مناظر جانب الطريق كخلفية لأفكارها، ورأتها كأنها صورة طبق الأصل، مدورة كأنها تظهر من خلال منظار مجسم، وقد زادت أهميتها لأنه أضيف إلى كل ما رآته ذكرى ما كانت قد رآته حين كانت تقوم بنفس الرحلة قبل بضعة أسابيع خلّت في الاتجاه المضاد. تناثر الخدم الصينيون مع أحمالهم بغير نظام، حيث يسير اثنان اثنان، أو ثلاثة ثلاثة منهم معًا. ثم خادم وحيد يسير خلفهم على بُعد مائة ياردة، ثم خادمان أو ثلاثة خدم آخرين. أما جنود الحراسة فقد راحوا يسرون مجرجرين أقدامهم بخطوات خرقاء قاطعين خمسة وعشرين ميلًا في اليوم. وقد حمل الخادمة حمالان، بينما حمل محفة كيتي أربعة حمالين، لا لأنها كانت أثقل منها. بل من قبيل الفخامة. ومن وقت إلى آخر، قابلوا خيطًا من الخدم يمشون الهوينى في خط واحد وهم يحملون أعباءهم، كما ظهر من حين إلى آخر موظف صيني على محفته. فينظر إلى المرأة البيضاء بعينين مستفسرتين. ومروا الآن بفلاحين يعتمرون قبعات زرقاء باهتة وضخمة وهم في طريقهم إلى السوق بينما مروا بامرأة شابة أو عجوز تسير مترنحة إلى الأمام على قدمين مقيدتين. وصعدوا تلالًا صغيرة وهبطوا منها وقد حفت بها حقول أرز حسنة الترتيب وبيوت ريفية تستكين بدعة في أحراش شجر الخيزران، وعبروا قرى فقيرة ومدنًا أهلة بالسكان محاطة بأسوار كالمدن في كتاب قداس. كانت شمس الخريف الباكرا رائعة. وإذا ظهرت عند بزوغ النهار، عندما يضيء الفجر الوامض على الحقول المرئية سحر حكاية جنيات، يكون الطقس باردًا لكي يصبح الدفء فيما بعد رائعًا. فيعم كيتي شعور بالسعادة لم تبذل أي جهد في مقاومتها.

كانت المناظر الحية بلونها البهيج وتباينها غير المتوقع وغرابتها، كستار مزركش امتثلت أطراف خيال كيتي أمامه كأنها أشكال غامضة ومظلمة. بدأت المناظر غير واقعية تمامًا. وكانت ماي-تان-فو بسورها المحصن بشرفات إطلاق النار كلوحة من القنب الملونة الموضوعة على خشبة المسرح في مسرحية قديمة لتمثل مدينة. وكانت الراهبات ووادينجتون وامرأة الماتشو التي أحبته شخصيات خيالية بأقنعة، بينما كانت بقية الشخصيات، الناس الذين ينسلون سائرين

في شوارع ضيقة ملتوية وهؤلاء الذين ماتوا شخصيات عظيمة بلا أسماء. ومن الطبيعي أن لهذه المسرحية ولكل هذه الشخصيات أهمية من نوع ما. لكن ما هذه الأهمية؟ كانوا كأنهم يقومون برقص طقسي، متقن وقديم، فتعرف أن لهذه الإجراءات المعقدة معنى، من المهم أن تعرفه، ومع ذلك فإنك لا تستطيع أن ترى فيه أي مفتاح لحل لغزه، ولا أي مفتاح

بدا أن كيتي لا تصدق (كانت امرأة عجوز تمر على طول الممر، مرتدية ملابس زرقاء، وكان اللون الأزرق تحت أشعة الشمس كاللون اللازوردي، وكان وجهها بغضونه الألف الصغيرة كقتاع من عاج قديم، وقد مالت وهي تمشي على قدميها الدقيقتين على عصا سوداء طويلة)، بدا أن كيتي لا تصدق أنها وولتر اشتركا في ذلك الرقص الغريب وغير الواقعي. وكانا قد لعبا دورين مهمين أيضاً. كان يمكن أن تفقد حياتها بسهولة. ولقد فقد هو حياته. هل كان هذا نكتة؟ ربما كان هذا لا شيء سوى حلم ستستيقظ منه مع تنهيدة ارتياح. بدا أنه حدث منذ وقت طويل في مكان بعيد جداً. بدا غريباً مدى عمق الظل المحيط بأشخاص تلك المسرحية مقابل خلفية حياة واقعية مغمورة بالشمس. وبدأت الآن لكيتي كقصة كانت تقرأها، وكانت مفزوعة قليلاً حتى إنها بدت تعني لها القليل إلى هذه الدرجة. لقد اكتشفت أنها لم تستطع أن تستعيد بدقة وجه وادينجتون الذي كان مألوفاً لها إلى هذا الحد.

سيصلون هذا المساء إلى المدينة الواقعة على النهر الغربي الذي ستأخذ منه الباخرة. ومن هناك ستبلغ هونج كونج خلال سفر ليلة واحدة فقط.

* * *

شعرت كيتي بالخجل في البداية؛ لأنها لم تبكي حينما مات ولتر. بدا هذا قسوة رهيبة. لماذا، لقد اغرورقت عينا الضابط الصيني العقيد يو بالدموع. لقد أذهلها موت زوجها. كان من الصعب أن تفهم أنه لن يدخل البنجالو مرة أخرى. وأنها لن تسمعه يستحم في حوض سوتشاو حين تنهض في الصباح. كان حياً وها هو الآن ميت. واستغربت الأخوات استسلامها المسيحي، وأعجبت بالشجاعة التي احتملت بها خسارتها. لكن وادينجتون كان فطناً. فبالرغم من كل تعاطفه الحزين، إلا أنها أحست بشعور كيف تصيغ هذا؟- أن لسانه في فمه. كان موت ولتر صدمة لها بالطبع. ما كانت تريده أن يموت. لكنها لم تحبه بالرغم من كل شيء. ولم تحبه أبداً. كان من اللائق أن تحتل حزناً مناسباً وسيكون من القبيح والمبتذل حتى أن تسمح لأي شخص أن يرى ما في قلبها، لكنها كابدت الكثير مما يمنعها أن تخدع نفسها بالتظاهرات الزائفة. فقد بدا لها أن هذه الأسابيع القليلة الماضية على الأقل قد علمتها أنه إذا كان هناك ضرورة في بعض الأحيان أن تكذب على الآخرين فإنه سيكون من المخزي دائماً أن تكذب على نفسها. لقد أسفت على موت ولتر بذلك الأسلوب التراجيدي، لكنها حزنت عليه حزناً بشرياً خالصاً كالحزن الذي ستشعر به لو كان الميت أحد معارفها. إنها تعترف أن لولتر مميزات مثيرة للاعجاب، لكن الذي حدث أنها لم تمل إليه. فقد كان يثير الملل في نفسها على الدوام. ولم تكن لتقر أن موته أشعرها بالارتياح. فهي يمكنها القول بصدق بأنها، إذا كانت تستطيع أن تعيده إلى الحياة بكلمة تنطقها، فإنها ستنطق هذه الكلمة. لكنها لم تستطع مقاومة الشعور بأن موته جعل طريقها أسهل قليلاً إلى حد ما. ما كانا سيكونان سعيدين معاً، لكن فراقهما سيكون صعباً إلى حد رهيب. وقد أفزعها أن تشعر بما شعرت به، وافترضت أن الناس سيرون أنها عديمة القلب وقاسية إن عرفوا هذا. حسناً. يجب ألا يعرفوا. وتساءلت إن كان لدى كل زميلاتها، في أعماق قلوبهن، أسرار مخزية يقضين أوقاتهم وهن يحمينها من النظرات الفضولية

نظرت إلى المستقبل قليلاً جداً، ولم تضع الخطط. وكان الشيء الوحيد الذي أرادت أن تفعله هو المكوث في هونج كونج أقصر مدة ممكنة. وتطلعت للوصول إلى هناك بهلع. وبدا لها أنها تود أن تتجول إلى الأبد في هذه البلاد الباسمة الودود وهي في محفة الراتان، وأن تمضي كل ليلة تحت سقف مختلف، فتكون مشاهدة لا مبالية لأوهام الحياة الكابوسية المرعبة إلى الأبد.

لكن، لا بد من مواجهة المستقبل القريب طبعًا. ستذهب إلى الفندق حين تصل إلى هونج كونج، وتعمل على التخلص من البيت وبيع الأثاث، وليس هناك حاجة إلى أن ترى تاونسيند. سيكون لديه من الكياسة ما يجعله يبتعد عنها. وهي تريد مع ذلك أن تراه مرة أخرى لتخبره عن مدى اعتبارها له كمخلوق حقير.

لكن، ما الذي يهمها في شارلز تاونسيند؟

وكلحن يُعزف على قيثارة يرن في إيقاع منتشٍ متعاقب سريع في تناسقات سيمفونية معادة. كانت فكرة واحدة تخفق في قلبها بالحاح. كانت هذه الفكرة هي التي أضفت على حقول الأرز جمالها الغريب. مما أدى إلى انفراج شفيتها الشاحبتين بابتسامة حينما مر بها فتى أحمر الوجه في طريقه إلى بلدة السوق، منتشيًا في عربته والتهور يطل من عينيه. مما أسبغ سحر الحياة الضاجة على المدن التي سارت خلالها. كانت مدينة الوباء سجنًا هربت منه، ولم تعرف من قبل قط كم كانت جميلة زرقة السماء وأي فرح يشعر به الإنسان داخل أيكات أشجار الخيزران المائلة بروعة فاتنة على ممر الطريق.

الحرية! تلك كانت الفكرة التي غنت في قلبها إلى درجة أن المستقبل أصبح متألقًا مثل الضباب فوق النهر الذي تسقط عليه الشمس بالرغم من أن هذا المستقبل كان مظلمًا. الحرية! ليست حرية فقط من بركة ماء عكرة، ولا من صحبة أثارت الكآبة في نفسها، ليست حرية فقط من الموت الذي هددها، بل حرية من الحب الذي حط من نفسها، حرية من كل الروابط الروحية. الحرية من روح مجردة من الجسد، ومع الحرية شجاعة وجسارة غير مكترثة بأي شيء ستأتي به الأيام.

* * *

عندما رست السفينة في هونج كونج، دخلت كيتي التي كانت تقف على سطح السفينة لتتنظر إلى حركة النهر الملونة والرمادية والنشيطة، دخلت إلى قمرتها لتتأكد من أن الخادمة لم تترك شيئاً خلفها. ألقت على نفسها نظرة في المرآة. كانت ترتدي السواد، فقد كانت الراهبات قد صبغن فستاناً لها، لكنه لم يكن فستان حداد، وخطر ببالها أن أول شيء يجب أن تفعله هو أن تلتفت إلى هذا. لم يكن باستطاعة ملابس الحداد عمل أي شيء، إلا تقديم خدمة تخف مؤثر لمشاعرها غير المتوقعة، وسمعت طرقاً على باب قمرتها. ففتحت الخادمة

.مسز فاين -

استدارت كيتي ورأت وجهاً لم تميزه للوهلة الأولى. ثم خفق قلبها خفقة فجائية سريعة واحمر وجهها. كانت دوروثي تاونسيند. كان توقع كيتي أن تراها ضعيفاً جداً إلى درجة أنها لم تعرف ما تفعله ولا ما تقوله. لكن السيدة تاونسيند دخلت القمرة واحتضنت كيتي بين ذراعيها بحركة سريعة.

.أوه عزيزتي. أنا آسفة جداً من أجلك -

سمحت لها كيتي أن تقبلها. دهشت قليلاً من هذا الاندفاع العاطفي من امرأة ظنت دائماً أنها باردة وبعيدة.

:غمغمت كيتي

.إن هذا لطف زائد منك -

.لنصعد إلى سطح السفينة، فالخادمة ستعتني بمتاعك كما أن خادمي هنا -

أمسكت بيد كيتي، فلاحظت كيتي، وقد تركت نفسها تقاد، أن وجهها الطيب والذي لوجه الطقس يحمل تعبير اهتمام حقيقي.

:قالت السيدة تاونسيند

.وصلت سفينتك في وقت مبكر، كدت ألا أصل إلى هنا في الوقت المناسب. ما كنت سأحتمل -

.هذا لو أنني لم أستقبلك

:قالت كيتي باستغراب

.لكنك لم تحضري لاستقبالي؟ -

.حضرت لذلك طبعًا -

لكن كيف عرفت أنني قادمة؟ -

.لقد أبرق إليّ مستر وادينجتون -

أشاحت كيبي بوجهها، وكانت غصة في حلقها. كان من السخف أن تؤثر عليها على هذا النحو رقة طفيفة غير متوقعة. لم ترد أن تبكي، وتمنت أن تنصرف تاونسند عنها. لكن دوروثي أمسكت باليد التي كانت تتدلى إلى جانب كيبي وضغطت عليها. وأربك كيبي أن تكون هذه المرأة الخجولة معبرة عن عواطفها إلى هذا الحد.

أريد منك أن تُسدي إليّ معروفًا كبيرًا. فشارلي وأنا نريدك أن تأتي وتقيمي معنا طيلة وجودك في هونج كونج.

.نزعت كيبي يدها بعنف

.إن هذا لطف عظيم منكما. لا يمكنني هذا -

لكنك يجب أن تأتي. فأنت لا تستطيعين أن تذهبي وتقيمي في بيتك وحدك تمامًا. سيكون هذا رهيبًا عليك. لقد أعددت كل شيء. ستكون لك غرفة جلوس خاصة بك. وستناولين وجباتك هناك. إذا لم يهملك أن تتناوليهما معنا. فنحن كلانا نريدك أن تأتي.

لم أكن أفكر بالذهاب إلى البيت. كنت سأخذ لنفسي غرفة في فندق هونج كونج. فليس من الممكن أن أجشكمما الكثير من العناء.

كان العرض قد فاجأها على حين غرة. فارتبكت وانزعجت. لو كان لدى شارلي أي إحساس بالحشمة لما سمح لزوجته بتقديم الدعوة إليها. فهي لا تريد أن يكون لأي منهما فضل عليها.

أوه، لكنني لا أستطيع أن أحتمل فكرة إقامتك في فندق. وستكرهين فندق هونج كونج منذ الآن. بكل أولئك الناس المتنقلين في أرجائه وفرقة الموسيقى تعزف موسيقى الجاز طيلة الوقت. أرجو أن تقولي إنك ستحضرين إلينا. أعدك ألا أزعجك. لا أنا ولا شارلي.

قالت وقد أخذت تنقصها الأعذار، فلم تستطع أن تحمل نفسها على أن تنطق بكلمة «لا»
:حازمة وجازمة

.لا أدري سبب لطفكما الزائد معي. أخشى ألا أكون صحبة جيدة جدًا بين الغرباء الآن -

لكن، أيمكن أن نكون غرباء بالنسبة لك؟ أوه، لا أريد أن أكون غريبة. أريدك أن تسمح لي -
أن أكون صديقك.

شبكت دوروثي يديها، وكان صوتها، صوتها البارد المتأني والمميز مرتعشاً بالدموع.

أريدك أن تأتي بالحاح. أنتِ ترين، إنني أريد أن أصلح ذات البين -

لم تفهم كيتي. فهي لم تعرف ما هي الاصلاحات التي تدين بها زوجة شارلي لها.

أخشى أنني لم أمل اليك كثيراً في البداية. فقد ظننت أنك مستهترة إلى حد ما. فأنتِ ترين -
بأنني امرأة قديمة الطراز، وأظنني غير متسامحة.

ألقت عليها كيتي نظرة عابرة. ما قصدته كان أنها رأت كيتي مبتذلة في البداية. وبالرغم من
أن كيتي لم تسمح بأي ظل من هذا يبدو على وجهها، فإنها ضحكت في قلبها. أصبحت تهتم الآن
كثيراً بما يفكر أي إنسان فيها.

وعندما سمعت أنك رحلت مع زوجك إلى أنياب الموت، وبلا أدنى تردد، شعرت بأنني نذلة -
إلى حد كبير. شعرت بالإذلال الشديد. لقد كنتِ مدهشة للغاية، وكنتِ شجاعة للغاية. لقد جعلتِ
بقيتنا كلنا نبدو رخيصات ومبتذلات إلى حد رهيب.

:وكانت الدموع تنسكب على وجهها الطيب الوداع

لا يمكنني أن أخبرك عن مدى إعجابي واحترامي للذين أكنهما لك. إنني أعرف أنني لا -
أستطيع فعل شيء لأعوضك عن خسارتك الكبيرة. لكنني أريدك أن تعرفي مدى عمق شعوري
نحوك ومدى إخلاصي لك. وإذا أنتِ سمحتِ لي فقط أن أقدم لك شيئاً قليلاً فإن هذا سيكون فضلاً
منك. لا تحملي لي أي ضغينة لأنني أسأت الحكم عليك. فأنتِ امرأة بطلة وأنا مجرد امرأة بلهاء
سخيفة.

غضت كيتي الطرف ناظرة إلى سطح السفينة. كانت شاحبة جداً. ورغبت في ألا تظهر
دوروثي مثل هذا الانفعال غير المسيطر عليه. لقد تأثرت بهذا. هذا صحيح، لكنها لم تستطع منع
نفسها من أن تشعر بشعور طفيف من نفاذ الصبر بأن هذه المخلوقة البسيطة تصدق أكاذيب
كهذه.

:تنهدت

إذا كنتِ تعنين حقاً أنكِ ترغبين في أن تستقبليني في بيتك، فيسرنى طبعاً أن آتي -

* * *

كانت زوجة تاونسيند تقيم على القمة في بيت يُطل على منظر شاسع من البحر، ولم تكن من عادة شارلي الحضور لتناول الغداء، لكن دوروثي أخبرت كيتي في يوم وصولها (فقد أصبحتا تتخاطبان باسم كيتي وباسم دوروثي الآن) أنه سيحضر ويرحب بها إذا هي رغبت في أن تراه. فكرت كيتي في أنها إذا كانت لا بد أن تراه فإنه الأفضل أن تراه على الفور. وراحت تتطلع بسرور مقيت إلى الارتباك الذي لا بد أن تسببه له. لقد أدركت تمامًا أن دعوتها للإقامة قد نبتت في خيال زوجته، وأنه بادر بالموافقة عليها بالرغم من مشاعره التي ثارت في نفسه. فكيتي تعرف مدى رغبته الكبيرة دائمًا في أن يتصرف تصرفًا سليمًا، وكان من الواضح جدًا أن إكرام وفادتها هو التصرف السليم. لكنه لم يكن ليستطيع أن يتذكر لقاءهما الأخير دون أن يشعر بالخزي. فلا بد أن موقفًا كهذا سيكون بالنسبة لرجل مغرور إلى حد كبير كتاونسيند مثيرًا للسخط كقرحة لا يمكن الشفاء منها. لقد تمنيت أن تكون قد أدته بقدر ما آذاها. لا بد أنه يكرهها الآن. وكان من دواعي سرورها أن ترى أنها لا تكرهه، بل تحتقره فقط. وأثار فيها رضى ساخرًا أنها رأت أنه سيضطر إلى إكرامها مهما كانت المشاعر التي يكنها لها. فحين تركت مكتبه بعد ظهر ذلك اليوم، لا بد أنه تمنى من كل قلبه ألا تقع عيناه عليها ثانية بعد ذلك.

والآن وبينما هي تجلس مع دوروثي، أخذت تنتظر وصوله. كانت على علم بالسرور الذي يسري في نفسها وهي في جو فخامة غرفة الاستقبال الرزينة. فجلست في كرسي مريح، وكانت هنا وهناك أزهار جميلة، وصور رائعة على الجدران. وكانت الغرفة مظلمة وباردة، وتوحي بالود والإحساس بالأمان. وتذكرت وهي ترتجف رجفة طفيفة، ردهة بنجالو طبيب الإرسالية الفارغة، وكراسي الراتان وطاولة المطبخ بغطائها القطني، والأرفف الملطخة بكل طبقات الروايات الرخيصة، والستائر الصغيرة الهزيلة الحمراء التي تغطيها طبقة من التراب. أوه، لقد كان بنجالو. غير مريح إلى تلك الدرجة. لقد افترضت أن دوروثي لم تفكر بذلك قط.

وسمعت محرك سيارة يصعد، وخطا شارلي إلى داخل الغرفة.

هل تأخرت؟ أمل ألا أكون قد أبقيتكما تنتظران. كان لا بد أن أرى الحاكم، ولم أستطع - ببساطة أن أهرب.

واقترب من كيتي وأمسك بيديها كليهما.

إنني مسرور جدًا جدًا لمجيئك إلى هنا. أعرف أن دوروثي أخبرتك أننا نرغب في أن تقيمي - هنا قدر ما تريدين، وأنا نريدك أن تعتبري بيتنا كبيتك. لكنني أريد أن أخبرك أنا نفسي بهذا أيضًا. لو أن هناك أي شيء في العالم يمكنني القيام به، فإنني سأكون في سرور كبير للقيام به كانت عيناه تعبيرًا فاتنًا عن الإخلاص، وقد تساءلت في نفسها إذا كان قد رأى السخرية في عينيها.

إنني غبي جدًا في قول بعض الكلمات. وأنا لا أريد أن أبدو أبله أخرج التصرف. لكنني - أريدك أن تعرفي مدى عمق تعاطفي معك لوفاة زوجك، فقد كان شابًا طيبًا نشيطًا، وسيفتقدونه هنا أكثر مما يمكنني التعبير عن هذا.

:قالت زوجته

.كفى يا شارلي. أنا متأكدة من أن كيبي تفهم..ها هي كؤوس الكوكتيل -

وتبعًا لعادة الأجانب المرفهة في الصين، دخل صبيان خادمان في زيهما الخاص، وهما يحملان المقبلات وكؤوس الكوكتيل. رفضت كيبي أن تشرب

:ألح تاونسيند بطريقته القلبية اللطيفة

أوه، لا بد أن تتناولي كأسًا. سوف تفيدك، وأنا متأكد من أنك لم تتناولي شيئًا كالكوكتيل منذ - غادرت هونج كونج. إلا إذا أخطأت الظن بأنكم لم تكونوا تستطيعون الحصول على ثلج في ماي-تان-فو.

:قالت كيبي

.أنت لم تخطئي -

وللحظة، ارتسمت أمام عيني ذهنها صورة ذلك المتسول مشعث الشعر مرتدي الأسمال البالية الزرقاء التي ترى فيها أطرافه الهزيلة والذي استلقى ميتًا عن سور مجمع السكن

* * *

دخلوا غرفة الطعام للغداء، وتولى شارلي، الذي جلس على رأس طاولته، مسؤولية إدارة الحديث بسهولة. وبعد تلك الكلمات الأولى من التعاطف. لم يعامل كيتي كأنها عانت من تجربة مدمرة، بل كأنها عادت من شنغهاي للتغيير بعد إجراء عملية الزائدة الدودية. وكانت بحاجة إلى رفع روحها المعنوية وكان هو مستعداً لرفع روحها المعنوية. وكانت أفضل طريقة لجعلها تشعر بأنها في بيتها هي أن يعاملها كواحدة من الأسرة. لقد كان رجلاً لبقاً. وشرع يتكلم عن سباق خيل الخريف ولعبة البولو -يا إلهي، إن عليه أن يكف عن لعب البولو إذا هو لم يستطع أن يُخفف وزنه- وعن حديث تبادله مع الحاكم في ذلك الصباح وخلال بضع دقائق. وتكلم عن الحفلة التي ذهبوا إليها وأقيمت في بارجة الأميرال القائمة بشؤون الدولة في كانتون، والاتصالات في لوشان. شعرت كيتي خلال بضع دقائق كأنها لم تغب عن هونج كونج لمدة تتجاوز عطلة نهاية الأسبوع. وكان من غير المصدق أن رجالاً ونساءً وأطفالاً هناك، في الريف، وعلى بُعد ستمائة ميل فقط (المسافة بين لندن وإدنبرة، أليس كذلك؟) يموتون كالأبواب. وسرعان ما وجدت نفسها تسأل عن هذا وذاك ممكن في لعبة البولو، عن ما إذا كانت السيدة هذه قد عادت إلى الوطن أو أن السيدة تلك تلعب في دورة التنس. وراح شارلي يُلقي نكاته الصغيرة، فابتسمت لها. وراحت دوروثي بجو تعاليها الطفيف (وقد ضم الآن كيتي فلم تعد هجومية، فصار هناك رباط توحيد بينهما إلى حد ما) تسخر سخرية لطيفة بأشخاص مختلفين في المستعمرة، فتزايد حذر كيتي.

قال شارلي لزوجته:

ياه، أصبحت تبدو في أفضل حال. لقد كانت شديدة الشحوب قبل الغداء إلى حد أنني فزعت - تماماً. لقد سرى بعض اللون في وجنتيها الآن.

لكن، وبينما هي تشارك في الحديث، وإن كان ذلك بلا مرح من طرفها (فقد شعرت أن لا دوروثي ولا شارلي بحسن ذوقه المثير للإعجاب سيوافقان على هذا المرح)، بل بروح معنوية عالية على الأقل، أمعت كيتي النظر في مضيها. فطوال تلك الأسابيع التي انشغل فيها خيالها به بشكل انتقامي. طبعت في ذهنها انطباعاً حياً جداً عنه. كانت خصلات شعره الكثيف أطول قليلاً من اللازم، وممشطاً بالفرشاة بحرض شديد جداً، وذلك لكي يُخفي حقيقة أن الشيب كان يخطه.

كما كان عليه الكثير من الزيت. وكان وجهه شديد الاحمرار بشبكة عروقه الخُبازية اللون على وجنتيه، وكان فكه الأسفل أضخم من اللازم. وحين لا يرفع رأسه إلى أعلى ليُخفيه فإنك ترى أن له ذقناً مضاعفة، وكان في حاجبيه الكثين الضاربين إلى اللون الرمادي شيء شبيه بالقرد مما أثار تقززها على نحو غامض. وكان ثقيلًا في حركته، ولم يمنعه كل الحرص الذي أبداه في حميته عن الأكل، ولا كل التمارين التي كان يقوم بها، من أن يصبح سمينًا، وكانت عظامه مغطاة بكثير جدًا من اللحم بينما تعاني مفاصله من تصلب رجل في منتصف العمر. كانت ملابسه ضيقة عليه وأكثر شبابًا قليلًا أيضًا.

لكنه وحين دخل غرفة الاستقبال قبل الغداء، أصيبت كيتي بصدمة (ربما لهذا السبب لوحظ شحوبها على هذا النحو) فقد اكتشفت أن خيالها خدعها خدعة عجيبة، إنه لا يبدو أبدًا كما كانت صورته. ما كانت تستطيع أن تمنع نفسها من الضحك على نفسها إلا بصعوبة. لم يكن شعره شائبًا قط. أوه، هناك بعض الشعرات البيضاء القليلة على فوديه، لكنها كانت تناسبه، ولم يكن وجهه أحمر بل ملوِّحًا بالشمس، وكان رأسه مثبتًا على رقبتة على نحو جيد جدًا، ولم يكن مكتنزًا ولا عجوزًا، فهو في الحقيقة يكاد يكون نحيلًا وكان قوامه مدهشًا -أيمنك أن تلوميه إذا كان مغرورًا بهذا قليلًا؟- ربما كان يمكنه أن يكون شابًا، وهو يعرف كيف يرتدي ملابسه طبعًا، ومن السخف إنكار ذلك. إنه يبدو مرتبًا ونظيفًا وأنيقًا. ما الذي استحوذ عليها وجعلها تفكر فيه على هذا النحو؟ كان رجلًا أنيقًا جدًا. من حسن حظها أنها عرفت مدى تفاهته. لقد أقرت دائمًا أن لصوته خاصية فاتنة طبعًا، وكان صوته كما تذكرته بالضبط، وقد أحال هذا الصوت زيف كل كلمة قالها أكثر إثارة للسخط، فغنى نغمته ودفنها ترن في أذنها الآن بنفاق، وتساءلت مستغربة كيف خدعت به في أي وقت من الأوقات. كانت عيناه جميلتين. هناك يكمن سحره، فلهما لمعان رقيق أزرق وكانتا تطبعان تعبيرًا مثيرًا للبهجة إلى حد بعيد حين يتكلم بالهراء. وكان من المستحيل تقريبًا ألا تتأثر بهما.

وجاءت القهوة أخيرًا، فأشعل شارلي سيجار الشيروت. نظر إلى ساعة يده ونهض واقفًا من الطاولة:

حسنًا، لا بد أن أترككما أيتها الشابتان لشؤونكما. فقد حل وقت عودتي إلى المكتب -

صمت، ثم قال وعيناه الودودتان الساحرتان تحطان على كيتي:

لن أزعجك ليوم أو يومين إلى أن تستريح، وبعدها سأتبادل معك حديث عمل -

- معي؟ -

- لا بد أن نقوم بترتيبات تتعلق ببيتك، كما تعرفين، وهناك الأثاث -

- أوه، لكنني أستطيع الذهاب إلى محامٍ. ليس هناك داعٍ لأزعجك بذلك -

- لا تفكري حتى اللحظة أنني سأتركك تضيعين مالك على نفقات قانونية. سأهتم بكل شيء. -
فأنت تعرفين أن من حقك تقاضي راتب تقاعد. سأتكلم مع سيادته حول هذا وأعمل على الحصول على مبلغ إضافي لك إذا قدمت طلبات إلى الدائرة المختصة. ضعي نفسك بين يدي. لكن لا تزعجي نفسك بأي شيء حتى تلك اللحظة. كل ما نريدك أن تفعلينه هو أن تستريحي وتحسن صحتك، أليس الأمر كذلك يا دوروثي؟

- طبعاً -

وأوماً لكي إيماءة طفيفة، ثم أخذ يد زوجته وقبلها وهو يمر بها. يبدو أن أغلب الرجال الإنجليز بلهاء حين يقبلون يد امرأة، لكنه فعل هذا بطبيعته الرشيق

* * *

لم تكتشف كيتي أنها كانت منهكة القوى إلا بعد أن استقرت تقريباً مع أسرة تاونسيند. وضعت الراحة وأسبابها غير المعتادة لهذه الحياة حدًا للإجهاد الذي كانت تعيش فيه. فقد كانت قد نسيت مدى السرور الذي كان ينبع في نفس الإنسان عندما يعيش حياة الراحة، ومدى السكينة التي يعيش فيها وهو محاط بأشياء جميلة، ومدى الطمأنينة التي يشعر بها الإنسان وهو موضع اهتمام. وغرقت في وجود الشرق المترف الوديع وهي تطلق تنهيدة ارتياح. ولم يكن مما يثير الازعاج أن تحس أنها موضع اهتمام وتعاطف بطريقة حكيمة ومهذبة. وكانت فجيعتها حديثة مما يجعل من المستحيل أن تُقدم لها الدعوات لحضور الحفلات، لكن نساء ذات أهمية في المستعمرة (زوجة سيادته، وزوجة الأميرال، وزوجة رئيس المحكمة) حضرن لشرب الشاي معها. وقد قالت زوجة سيادته إن سيادته متلهف جدًا لرؤيتها، وأنه سيكون من الجميل جدًا لو أنها جاءت بهدوء تام لتناول الغداء في دار الحكومة («ليست حفلة طبعًا، نحن فقط مع زوجات المساعدين»)، وعاملت هذه السيدات كيتي كأنها قطعة خزف صيني سهلة الكسر بقدر ما هي غالية، لم يسعها إلا أن ترى أنهن ينظرن إليها كبطللة صغيرة، وكانت تتحلى بما يكفي من روح المرح لتقوم بالدور بتواضع وحكمة. وتمنت أحيانًا أن يكون وادينجتون موجودًا هناك، كان سيرى بمكره الخبيث سخافة الوضع، وعندما ينفردان فإنهما سيضحكان معًا على هذا الوضع من كل قلبيهما. كانت دوروثي قد تلقت رسالة منه، أخبرها فيها عن كل الأمور المتعلقة بعملها التي قامت به في الدير، وعن شجاعتها ورباطة جأشها. لقد كان يجرّ أرجلهن بمهارة طبعًا، الكلب القذر

لم تعرف كيتي إذا كان عدم انفرادها للحظة واحدة مع شارلي صدفة أو قصدًا. فأسلوبه كان رائعًا. فقد ظل لطيفًا ومتعاطفًا وبهيجًا ووديًا. لم يكن بإمكان أحد أن يخمن أنهما كانا أكثر من شخصين متعارفين فقط. لكنه مر بها بعد ظهر أحد الأيام واتجه إلى الشرفة عندما كانت تستلقي على الكنبة خارج غرفتها وهي تقرأ. توقف. سأل:

- ما الذي تقرأينه؟ -

- كتاب -

:نظرت له ساخرة. فابتسم

- لقد ذهبت دوروثي إلى حفلة في حديقة دار الحكومة -

- أعرف. لماذا لم تذهب أنت أيضًا؟ -

- لم أشعر بأنني أستطيع تحملها، كما أنني فكرت في أن أعود وأظل بصحبتك. إن السيارة في -

الخارج. هل ترغبين أن تخرجي في نزهة بالسيارة في أرجاء الجزيرة؟

- لا، شكرًا -

- جلس على طرف الكنبة السفلي التي تستلقي عليها

- لم تتح لنا فرصة تبادل حديث وحدنا منذ أن وصلت إلى هنا -

:نظرت في عينيه مباشرة بوقاحة باردة

- هل ترى أن لدينا شيئًا نقوله لبعضنا البعض؟ -

- الكثير -

- حركت قدميها بعيدًا حتى لا تلمسه

:سأل، وظل ابتسامة على شفثيه، وعيناه تذوبان

- هل لا زلت غاضبة مني؟ -

:ضحكت

- أبدًا -

- لا أظن أنك ستضحكين لو لم تكوني غاضبة -

أنت مخطئ، إنني أحتقرك كثيرًا، كثيرًا جدًا إلى حد يمنعني من أن أغضب منك -

كان هادئًا

أظن أنك قاسية إلى حد ما عليّ، وبالنظر إلى الماضي بهدوء الآن. ألا ترين صدقًا أنني كنت -

على حق؟

- من وجهة نظرك -

- الآن وبعد أن عرفتِ دوروثي، فلا بد أن تقري بأنها لطيفة إلى حد ما؟ -

- طبعًا، وسأظل ممتنة دائمًا للطفها العظيم نحوي -

- إن هذا اللطف صفة من ألف صفة. ما كنت سأعيش لحظة هدوء لو هربنا معًا. لكننا خدعناها -

خدعة نتنة. بعد كل هذا، كان عليّ أن أفكر في أولادي، وكان الهرب عائقًا رهيبًا لهم

وظلت تُثبت عليه نظرها المحقق لمدة دقيقة. لقد شعرت أنها سيدة الموقف بالكامل

- لقد راقبتك بدقة شديدة خلال الأسبوع الذي أقمت فيه هنا. وقد توصلت إلى الاستنتاج بأنك -

- مغرم بدوروثي حقًا. ما كنت أظن أنك قادر على مثل هذا الحب

- لقد أخبرتك بأنني شغوف بها. ولن أقوم بأي شيء سيسبب لها أي لحظة من الازعاج. إنها -

- أفضل زوجة يمكن للإنسان أن يحظى بها

- هل فكرت في يوم من الأيام أنك مدين لها بالوفاء؟ -

- ابتمسم

- إن ما لا تراه العين لا يحزن عليه القلب -

- هزت كتفها

- أنت حقير -

- أنا إنسان. أنا لا أعرف لماذا ترين بأنني وغد؛ لأنني غرقت في حبك حتى أذني. لم أرغب -

- أن أحبك بشكل خاص، كما تعرفين

-:وشد سماعها لقوله ذلك أوتار قلبها قليلاً، فأجابت بمرارة

- كنت لعبة جميلة -

- من الطبيعي أنني لم أتنبأ أننا كنا سنقع في ورطة شيطانية كهذه -

على أي حال، كانت تدور في ذهنك فكرة خبيثة بأنه إذا كان سيُعاني أحدنا من هذه الورطة، -
فإنك لن تكون أنت الذي سيُعاني

أعتقد أن هذا غير معقول قليلاً. بعد هذا كله. انتهى كل شيء، ولا بد أنك ترين بأنني تصرفت -
لصالحنا معاً. لقد فقدت عقلك، ويجب أن تسعدي كل السعادة لأنني احتفظت بعقلي. أتظنين بأنني
كنت سأنجح لو أنني فعلت ما أردته مني؟ لقد دُفَعنا بشكل مزعج إلى داخل مقلاة، لكننا كنا
سنكون في حال أسوأ كثيراً في النار، كما لم يصبك أي ضرر. لماذا لا نقبل بعضنا ونصبح
أصدقاء؟

:كادت تضحك

لا يمكن أن تتوقع مني أن أنسى أنك أرسلتني إلى موت محقق تقريباً بلا ظل من وخز -
الضمير؟

أوه، يا له من هراء! لقد أخبرتك بأنه لن يكون هناك أي مخاطرة لو أنك أخذت الاحتياطات -
المعقولة. هل تظنين أنني كنت سأسعدك تذهيباً للحظة لو لم أكن مقتنعاً بذلك تماماً؟

كنت مقتنعاً لأنك أردت أن تكون مقتنعاً. فأنت واحد من أولئك الجبناء الذين يفكرون فيما هو -
مُربح لهم فقط.

حسناً، البرهان على حُسن مذاق الزلابية هو أكلها. لقد عدت. وإذا أنت لم تمنعني في قلبي -
قولاً موضوعياً تماماً. فإنني أقول إنك عدت أجمل من السابق.

وولتر؟ -

لم يستطع أن يقاوم الجواب المرح الذي خطر بباله. ابتسم شارلي

. لا يناسبك أي لون كما يناسبك الأسود -

حدقت فيه للحظة، وترقرقت الدموع في عينيها وبدأت تبكي. فشوه الحزن وجهها. لم تحاول
أن تُخفي هذا. بل استلقت على ظهرها ويدها على جنبها

من أجل الله، لا تبكي بهذا الشكل. لم أقصد أن أقول أي كلام قاس. كان هذا مجرد نكتة. -
فأنت تعرفين مدى صدق شعوري نحوك في محنتك

. أوه، أمسك لسانك الغبي -

.إنني سأقدم أي شيء لكي يعود ولتر مرة أخرى -

لقد مات بسببك وسببي -

:أمسك بيدها، لكنها نزعته بشدة منه. نشجت

من فضلك، اذهب. ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكنك أن تفعله من أجلى الآن. إنني أكرهك -
وأحتقرك. كان ولتر يساوي عشرة من أمثالك، وكنت غبية جدًا إلى حد أنني لم أرَ هذا. انصرف،
انصرف.

رأت أنه كان سيتكلم ثانية، فنهضت على قدميها ودخلت غرفتها

تبعها ودخل بحذر غريزي، ثم أغلق المصاريع الخشبية، فأصبحت في ظلام تقريبًا

:قال محيطًا إياها بذراعيه

- لا يمكنني تركك على هذه الحال. وأنت تعرفين بأنني لم أقصد أن أؤذيك -

- لا تلمسني. من أجل الله اذهب. انصرف -

حاولت أن تنزع نفسها منه، لكنه لم يتركها تفلت. كانت تبكي بكاء هستيريًا الآن

:قال بصوت ساحر عميق

- حبيبتي، ألا تعرفين أنني أحببتك دائمًا، وأنني أحبك الآن أكثر من أي وقت آخر -

- كيف يمكنك أن تكذب أكاذيب كهذه! اتركني. عليك اللعنة! اتركني -

- لا تقسي عليّ يا كيتي. أنا أعرف أنني كنت فظًا معك، لكن اغفري لي -

كانت تهتز وتنشج، وهي تجاهد للابتعاد عنه، لكن ضغط ذراعيه كان مريحًا على نحو غريب.
لقد اشتاقت كثيرًا إلى أن تحس بهما حولها مرة أخرى، مرة واحدة فقط، فارتعش كل جسدها.
شعرت أنها ضعيفة إلى حد رهيب. بدا كأن عظامها تذوب، وتحول الحزن الذي شعرت به نحو
ولتر إلى رثاء لنفسها.

:نشجت

أوه، كيف استطعت أن تقسو عليّ إلى هذا الحد؟ ألا تعرف بأنني أحببتك من كل قلبي؟ لم -
يجبك أحد قط كما أحببتك

- حبيبتي -

وأخذ يقبلها

:صاحت

لا، لا -

بحث عن وجهها، لكنها أشاحت به، فبحث عن شفتيها، ولم تعرف ما كان يقول، كلمات حب عاطفية متكسرة، وأمسكت بها ذراعاه بقوة كبيرة إلى حد أنها شعرت كطفل ضاع وعاد الآن سالماً إلى البيت أخيراً. أنت أنة طفيفة، أغمضت عينيها وتبلل وجهها بالدموع. ثم وجدت شفتيها وانطلق ضغط شفتيه عليهما متخللاً جسدها كلهب إلهي. وكان هذا نشوة اشتعلت حتى أصبحت جمرة ساخنة وتوهجت كأنها تتخذ شكلاً آخر. في أحلامها. في أحلامها عرفت هذه النشوة. ما الذي يفعله بها الآن؟ لم تعرف. لم تكن امرأة، لقد تحللت شخصيتها، ولم تكن شيئاً سوى رغبة، ورفعها عن الأرض. لقد كانت خفيفة جداً بين ذراعيه، فحملها وتعلقت هي به، يانسة ومتميمة، وغرق رأسها على المخدة وتعلقت شفتاه بشفتيها

* * *

جلست على حافة السرير مخفية وجهها بين يديها

- أتريدين بعض الماء؟ -

هزت رأسها. اتجه نحو حامل المغسلة، وملاً كأس ماء وقدمها إليها

- هيا، اشربي قليلاً وستتحسن حالتك -

وضع الكأس على شفيتها ورشفت هي الماء، ثم حدقت فيه بعينين مرتعبتين. كان يقف فوقها،
ناظرًا إلى الأسفل، وفي عينيه تألق رضى عن الذات. سأل:

حسنًا، هل ترين أنني كلب قذر كما رأيت في السابق؟ -

غضت نظرها

- نعم، لكنني أعرف أنني لست أفضل منك في قليل أو كثير. أوه، إنني خجلة إلى حد كبير -

- حسنًا، أعتقد أنك جاحدة جدًا -

- هل ستصرف الآن؟ -

- لأقل لك الحقيقة. أعتقد أن الوقت أذف. سأذهب وأرتب نفسي قبل أن تدخل دوروثي -

وخرج من الغرفة بخطوات مرحة

جلست كيتي لوهلة وهي لا تزال على حافة السرير، محنية الظهر كامرأة معتوهة. كان عقلها
خاويًا، وسرت رجفة في أوصالها. تمايلت واقفة على قدميها، وغرقت في الكرسي بعد أن اتجهت
إلى منضدة الزينة. حدقت في نفسها في المرأة. كانت عيناها منتفختين من الدموع، ووجهها
ملطخًا، كما انطبعت علامة حمراء على أحد خديها حيث استقر خده. نظرت إلى نفسها برعب.
كان نفس الوجه. كانت تتوقع أن ترى فيه ما لا تدريه من تغير إلى انحطاط

:وقدفت كلمتها على انعكاس صورتها

- خنزيرة. خنزيرة -

ثم، وبعد أن تركت وجهها يسقط على ذراعها، بكت بمرارة. عار! لماذا لم تدري بما حدث
لها. كان أمرًا رهيبًا. لقد كرهته وكرهت نفسها. لقد كانت نشوة. أوه، كرهية! لن تستطيع أن
تنظر في وجهه ثانية. لقد كان على حق تمامًا. لقد كان على حق في ألا يتزوجها، فهي لا تساوي

شروى نقيير. ولم تكن أفضل من قحبة. أوه، بل أسوأ، فتلك النساء المسكينات يقدمن أنفسهن من أجل الخبز. وفي هذا البيت أيضاً، البيت الذي أخذتها دوروثي إليه وهي في حزنها وفي أساها القاسي! اهتز كتفاها مع نحيبها. لقد ولّى كل شيء الآن. لقد ظنت أن نفسها تغيرت. لقد ظنت أن نفسها قوية. لقد ظنت أنها عادت إلى هونج كونج وهي امرأة متمالكة نفسها، وتطايرت أفكار حول قلبها كفراشات صغيرة صفراء في أشعة الشمس وتمنت أن تتحسن كثيراً في المستقبل، وأشارت حرية كروح من نور إليها لتتقدم إلى الأمام. وصار العالم كسهل شاسع تستطيع أن تسير فيه بخطى خفيفة ورأس منتصب. ظنت أنها متحررة من الشهوات والعواطف القذرة، متحررة لتعيش حياة الروح النظيفة والصحية. لقد شبّهت نفسها بطيور البلشون البيضاء التي تطير طيراناً هيناً عبر حقول الأرز عند الغسق، طيور كأفكار محلقة لعقل في حالة ونام مع نفسه، وكانت هي عبدة، ضعيفة ضعيفة! إنها حالة لا أمل فيها، وليس من المُجدي أن تحاول، إنها عاهرة.

لن تذهب للعشاء، وأرسلت الصبي الخادم إلى دوروثي ليخبرها بأنها تعاني من صداع وفضلت أن تبقى في غرفتها. دخلت دوروثي الغرفة، فتكلت إليها قليلاً بطريقتها اللطيفة والحنون والمواسية عن أشياء تافهة بعد أن رأت عينيها الحمراء والمنتفختين. عرفت كيتي أن دوروثي ظنت أنها تبكي بسبب ولتر، فاحترمت، وهي تتعاطف معها كالزوجة الطيبة المحبة التي كانتها في حقيقة الأمر، حزنها الطبيعي.

:قالت وهي تترك كيتي

أعرف أن الحال صعب جداً يا عزيزتي. لكن يجب أن تحاولي أن تتشجعي. إنني متأكدة أن -
زوجك لن يرغب في أن تحزني عليه.

* * *

لكن كيتي نهضت في ساعة مبكرة من الصباح التالي، وبعد أن تركت ملاحظة لدوروثي تقول فيها بأنها خرجت للقيام بعمل. ركبت ترام وهبطت التل. وشقت طريقها خلال الشوارع المزدحمة بسياراتها وعربات الركشة والمحفات والجمهور الأوروبي والصيني متعدد الأشكال والألوان. اتجهت إلى مكاتب شركة «بي آند أو» كانت هناك سفينة ستبحر خلال يومين، أول سفينة ستغادر، فقررت أنها لا بد أن تسافر عليها مهما كانت التكاليف. وحين أخبرها الموظف في الشركة أن جميع الأماكن في السفينة كانت قد حُجزت، طلبت أن ترى الوكيل المسؤول. وبعثت باسمها، فخرج الوكيل، الذي كانت قد قابلته من قبل وأدخلها إلى مكتبه. كان يعرف ظروفها، وحين أخبرته بما ترغب فيه، أرسل في طلب قائمة الركاب. نظر إلى القائمة وقد سيطر عليه الارتباك.

:حثته قائلة

.أناشذك أن تفعل ما يمكنك فعله -

:أجاب

لا أظن أنه يوجد أي إنسان في المستعمرة لن يُقدم على فعل أي شيء في العالم من أجلك يا مسز فاين.

.أرسل يطلب موظفًا، واستفسر منه بعض الاستفسارات ثم أوما برأسه

سأقل شخصًا أو شخصين. إنني أعرف أنك تريد أن تذهبي إلى الوطن، وأنا أظن أننا - يجب أن نبذل قصارى جهدنا من أجلك. يمكنني أن أقدم إليك قمره صغيرة، وأتوقع أن هذا سيعجبك.

شكرته وتركته وقلبها يرقص فرحًا. الهرب، هذا كان تفكيرها الوحيد. الهرب! وأرسلت برقية إلى أبيها لتبلغه بعودتها الفورية. وكانت قد أرسلت إليه في السابق برقية تقول له أن ولتر مات، ثم عادت ثانية إلى أسرة تاونسيند لتُخبر دوروثي بما فعلته.

:قالت المخلوقة اللطيفة

.سنكون آسفين للغاية لفقدك. لكنني أفهم طبعًا أنك تريد أن تكوني مع أبيك وأمك -

منذ رجوع كيتي إلى هونج كونج، ترددت يوماً بعد يوم في أن تذهب إلى بيتها. لقد خافت أن تدخله وتقابل الذكريات التي تملأ هذا البيت وجهاً لوجه. لكن، لم يعد لديها الآن أي بديل، وكان تاونسيند قد دبر بيع الأثاث، ووجد شخصاً متلهفاً إلى أن يستأجر البيت، لكن كل ملابسها وملابس ولتر بقيت هناك، فهما لم يأخذا سوى القليل جداً منها إلى ماي-تان-فو. وكانت هناك كتب وصور فوتوغرافية وأشياء نثرية مختلفة. وأدركت كيتي اللامبالية بكل شيء والمتلهفة بقطع نفسها كلياً عن الماضي، أدركت أنها ستثير حساسيات المستعمرة إذا هي سمحت أن تُباع هذه الأشياء مع بقية الأثاث في المزاد. فلا بد أن تُحزم وترسل إليها، أعدت نفسها بعد الغداء لتذهب إلى البيت، وقد عرضت دوروثي، المتلهفة لتقديم المساعدة لها، أن تصحبها، لكن كيتي طلبت منها أن تسمح لها أن تذهب وحدها، لكنها وافقت على أن يذهب خادمان من خدوم دوروثي معها ليساعداها في حزم أمتعتها.

كان البيت قد ترك تحت مسؤولية رئيس الصبية، ففتح الباب لكيتي. كان من الغريب أن تدخل بيتها الخاص كما لو كانت غريبة. كان مرتباً ونظيفاً. وكان كل شيء في مكانه، جاهزاً لاستعمالها، وبالرغم من أن اليوم كان دافئاً ومشمساً، إلا أن جواً بارداً وموحشاً ملأ أرجاء الغرف الصامتة. كان الأثاث مرتباً بشكل جامد، وفي المكان الذي يجب أن يكون فيه تماماً، كما كانت المزهريات التي يجب أن تحوي أزهاراً في أماكنها، والكتاب الذي وضعته كيتي ووجهه إلى الأسفل، ولا تتذكر متى فعلت هذا، لا يزال موضوعاً ووجهه إلى الأسفل. بدا كأن البيت ترك خاوياً قبل دقيقة فقط، لكن تلك الدقيقة كانت زاخرة بالأبدية إلى حد أنك لم تكن تستطيع أن تتخيل أن البيت سيردد صدى حديث ويطلق ضحكاً مرة أخرى. وعلى البيانو، بدا أن موسيقى فوكستروت مفتوحة في انتظار أن تُعزف، لكن شعوراً كان يملكك أنك إذا أنت طرقت المفاتيح فإنه لن ينبعث منه أي صوت. كانت غرفة ولتر مرتبة كما كانت عندما كان هو هناك. وعلى خزانة الأدراج كانت صورتان فوتوغرافيتان لكيتي، إحداهما في فستان الخطوبة والثانية في رداء زفافها.

لكن الصبية الخدم أحضروا صناديق المتاع من غرفة الصناديق، فوقفت تراقبهم وهم يحزمون الأمتعة. حزموا الأمتعة بعناية وسرعة، ورأت كيتي أنه سيكون من السهل خلال يومين أن يكون كل شيء منتهيًا. لن تدع نفسها تفكر، فوقتها لا يتسع لذلك. فجأة، سمعت خطوات خلفها، فاستدارت ورأت شارلز تاونسيند، شعرت ببرودة فجائية تسري في قلبها.

سألت:

- ماذا تريد؟ -

- هلاً دخلتِ إلى غرفة الجلوس؟ عندي ما أقوله لكِ -

- أنا مشغولة جداً -

- سأبقيكِ خمس دقائق فقط -

لم ترد، لكنها تقدمت شارلز إلى داخل الغرفة المجاورة بعد أن أقلت أمراً على الصبية الخدم ليتابعوا ما كانوا يقومون به من عمل. لم تجلس لكي تظهر له أنها تتوقع منه ألا يحتجزها. كانت تعرف أنها كانت شاحبة للغاية وأن قلبها يخفق بسرعة، لكنها واجهته ببرود وبعينين معاديتين.

- ماذا تريد؟ -

- سمعت من دوروثي أنك سترحلين بعد غد، وأخبرتني بأنكِ ستحضرين إلى هنا لتحزمني -

- أمتعتكِ. وطلبت مني أن أتصل هاتفياً وأرى إذا كان هناك أي شيء يمكنني فعله من أجلكِ

- أنا أشكرك، لكنني أستطيع تدبير أمري بنفسني بشكل جيد -

- هذا ما تخيلته. لم أحضر إلى هنا لأسألكِ ذلك السؤال. جئت لأسألكِ إذا كان سفرك المفاجئ -

بسبب ما حدث بالأمس

- لقد كنت ودوروثي طبيبين جداً معي، ولا أرغب في أن تفكر أنني أستغل طبيبتكما -

- ذلك ليس جواباً مباشراً -

- ما الذي يهكم من هذا؟ -

- إنه يههم كثيراً. فأنا لا أحب أن أتصور أن أي تصرف قمت به هو الذي دفعكِ إلى الرحيل -

كانت تقف أمام المنضدة. غضت النظر، وسقطت عيناها على جريدة سكيتش. لقد مر على صدورنا أشهر الآن. كانت تلك الجريدة التي حدقَ فيها ولتر في المساء الرهيب عندما - وأصبح ولتر الآن، كان... رفعت عينيها

- أنا أشعر أنني منحطة تماماً. فأنت قد لا تستطيع أن تحتقني قدر ما أحتقر نفسي -

- لكنني لا أحتقركِ. لقد قصدت كل كلمة قلتها أمس. ما فائدة الهرب بهذا الشكل؟ لا أعرف -

- لماذا لا نستطيع أن نكون صديقين. إنني أكره فكرة تفكيرك بأنني عاملتك معاملة سيئة

- لماذا لا تتركني وشأني -

ليشئق الكل. أنا لست حجرًا أو لصقة. إنها غير معقولة هذه الطريقة التي تنظرين بها إلى -
الأمر، إنها طريقة مرضية جدًا. لقد اعتقدت بعد أمس أنك ستشعرين نحوي بعطف أكثر. بعد كل
هذا، نحن مجرد بشر.

أنا لا أشعر بأنني بشر. أشعر كأني حيوان. خنزيرة أو أرنب أو كلب. أوه، أنا لا ألومك فأنا -
بنفس السوء. لقد استسلمت لك لأنني أردتك. لكن الذي استسلم لم يكن أنا الحقيقية. فأنا لست
امرأة كريهة حيوانية شهوانية. إنني أتبرأ من هذه المرأة. لم أكن أنا التي استلقت على ذلك
السريير لاهثة رغبة فيك حينما لم يكديبرد زوجي في قبره، وكانت زوجتك لطيفة جدًا نحوي إلى
هذا الحد. لطيفة إلى حد لا يمكن وصفه، لقد كان فقط الحيوان فيّ، حيوانًا معتمًا ومخيفًا كروح
شريرة، وأنا أتبرأ منه وأكرهه وأحتقره، ومنذ ذلك الوقت، وحين أفكر بهذا، ترتفع الغصة في
حلقي وأشعر بأنني يجب أن أتقيأ.

عبس قليلًا، وأطلق ضحكة مكتومة قصيرة أو قلقة.

حسنًا، أنا متسامح، لكنك تقولين كلامًا أحيانًا يُصيبني بالصدمة -

يوسفني أن أقول ذلك. الأفضل لك أن تذهب الآن. أنت رجل غير مهم قليل الشأن، وأني -
سخيفة إذ أتحدث إليك بجدية.

لم يُجب لوهلة، ورأت من الظل في عينيه الزرقاوين أنه غاضب منها. كان سيطلق تنهيدة
ارتياح عندما يودعها أخيرًا عند رحيلها، بأدبه وظرفه المألوفين، وراق لها أن تفكر في الأدب
الذي ستشكره به على كرمه وهما يتصافحان وهو يتمنى لها رحلة سعيدة. لكنها رأت أساريه
:تتغير. قال

.أخبرتني دوروثي أنك ستنجبين طفلًا -

.شعرت بنفسها تتضرج، لكنها لم تسمح بأي حركة أن تبدو عنها

.نعم -

.هل هناك فرصة أن أكون الأب؟ -

.لا، لا. إنه طفل ولتر -

تكلت بتأكيد لم تستطع تفاديه، لكنها عرفت حتى وهي تتكلم بأن اللهجة التي تكلت بها لم
تكن اللهجة التي تحمل الإقناع.

كان يبتسم الآن ابتسامة شريرة

أنت متأكدة؟ بأي حال، لقد تزوجت من ولتر منذ سنتين تقريباً ولم يحدث شيء. إن التاريخ يبدو متطابقاً تماماً. أظن أنه من المحتمل أن يكون طفلي أكثر من طفلك ولتر

أفضل أن أقتل نفسي على أن أحمل طفلاً منك -

أوه، هيا بنا الآن، هذا هراء. سأكون مسروراً وفخوراً إلى حد كبير. أرغب أن يكون الطفل - بنتاً، فأنت تعرفين، فعندي من دوروثي أولاد ذكور فقط كما تعرفين، وأولادي الثلاثة هم صورة حية مني تماماً

كان قد استعاد مزاجه الرائق وعرفت السبب. فإن كان الطفل طفله، فإنها لن تستطيع الهرب منه أبداً بالرغم من أنها قد لا تراه ثانية قط، وستمتد قوته عليها وسيظل مؤثراً على كل يوم من حياتها تأثيراً غامضاً وأكيداً في ذات الوقت

قالت:

أنت حقاً أحمق وجحش وأكثر الناس غروراً دفعني سوء حظي على أن أقابله بالصدفة -

* * *

بينما كانت السفينة تبحر داخلية مارسيليا، وقع بصر كيتي فجأة، وهي تنظر إلى معالم الشاطئ القاسى الجميل المتوهج تحت أشعة الشمس، على تمثال العذراء المباركة الذهبى الذي ينتصب على كنيسة القديسة ماري ذات النعمة كرمز لسلامة البحار في البحر. تذكرت كيف ركعت أخوات الدير في ماي- تان- فو وهن يرحلن عن بلادهن إلى الأبد، والشكل يخبو بعيداً حتى لم يعد أكبر من لهب ذهبي صغير في السماء الزرقاء، وبحثن في الصلاة عن تخفيف وقع الفراق عليهن، فضمت يديها ضارعة إلى قوة لم تعرفها.

وخلال الرحلة الطويلة الهادئة، فكرت بلا انقطاع في الأمر الرهيب الذي حدث لها. لم تستطع أن تفهم نفسها. كان ذلك غير متوقع تماماً. ما الذي تملكها فجعلها تستسلم بشوق لعناق شارلي القدر بالرغم من أنها تحتقره، تحتقره من كل قلبها؟ ملأها الغضب واستولى عليها الاشمزاز من نفسها. شعرت بأنها لن تستطيع أبداً أن تنسى إذلالها. فبكت. لكنها وجدت، والمسافة تزداد عن هونج كونج، أنها تفقد حيوية سخطها بشكل غير مفهوم. فقد بدا أن ما حدث حدث في عالم آخر. وكانت كإنسان أصابه جنون فجائي، فيكتتب بعد استعادة عقله ويشعر بالخجل من الأعمال البشعة التي يتذكر بأنه قام بها عندما لم يكن في حالته الطبيعية. لكن، ولأنه يعرف أنه لم يكن في حالته الطبيعية، فإنه يشعر بأنه يستطيع، بينه وبين نفسه على الأقل، أن يطلب الغفران. وفكرت بأن قلباً كريماً ربما قد يرثي لها فقط ولا يُدينها. لكنها تنهدت وهي تفكر بمدى تحطم ثقته بنفسها على نحو فاجع. لقد بدت الطريق تمتد أمامها مستقيمة وسهلة، وها هي الآن ترى أنها طريقة ملتوية وأن حفراً تنتظرها. وأراحتها الفضاءات الشاسعة وغروب شمس المحيط الهندي الجميل. وبدا أنها محمولة إلى بلاد ربما تتمكن فيها أن تمتلك روحها بحرية. فلو أنها استطاعت فقط أن تستعيد احترامها مقابل صراع مرير، فحسناً، لا بد أن تجد الشجاعة لمواجهة هذا الصراع.

كان المستقبل موحشاً وصعباً. واستلمت في بورسعيد رسالة من أمها جواباً على برقيتها. كانت رسالة طويلة كتبت بخط كبير وغريب، وهي كتابة كانت تُعلم للسيدات الشابات أيام شباب أمها. وكان تنميق الكتابة جميلاً جداً إلى حد أنه يثير فيك انطباعاً بزيفه. وعبرت السيدة جارستين عن أسفها لوفاة ولتر وتعاطفت تعاطفاً لائقاً مع حزن ابنتها. خافت أن تكون كيتي قد تُركت دون أن تُزود بما يناسبها من مال، لكن وزارة المستعمرات ستقدم إليها راتب تقاعد طبعاً.

كانت سعيدة لمعرفة أنها أن كيتي ستعود إلى إنجلترا، ولا بد أن تأتي وتقيم مع أبيها وأمها إلى أن تضع طفلها طبعًا. ثم تبعت هذا تعليمات معينة لا بد أن تتأكد كيتي من اتباعها. وتفاصيل مختلفة عن ولادة أختها دوريس. وأن الولد الصغير يزن كذا وكذا وأن جده، أبا أبيه، قال إنه لم ير أبدًا طفلًا أجمل منه، وأن دوريس تنتظر مولودًا آخر، وأنهم يأملون في إنجاب ولد آخر لكي تصبح وراثته البارونية مؤكدة تمامًا.

رأت كيتي أن هدف الرسالة يكمن في التاريخ المحدد للدعوة. فليس في نية السيدة جارستين أن تتحمل عبء ابنة مترملة في ظروف متواضعة. كان من الغريب، وهي تفكر كيف كانت أمها تجعل منها معبودًا، أن أمها أصبحت الآن تجد فيها مجرد شيء مزعج بعد أن خاب أملها فيها. يا لمدى غرابة العلاقة بين الوالدين والأبناء! فعندما يكون الأبناء صغارًا، فإن الوالدين يكونان شغوفين بهم ويعانون هم الخوف من كل مرض طفولي يصيبهم، ويتعلق الأطفال بوالديهم بحب وعبادة، وتمر بضع سنوات ويكبر الأطفال، فيصبح أشخاص ينتمون إليهم بصلة الرحم أكثر أهمية لسعادتهم من أبيهم وأمههم. وتحلّ اللامبالاة محل حب الماضي الأعمى والغريزي. وتصبح اللقاءات مصدر ملل وسخط، وبعد أن كانوا سيذهلون عند التفكير لفراق شهر، يصبحون الآن قادرين على التطلع برباطة جأش للافتراق لمدة سنين. لا داعي لقلق أمها، فبأسرع ما يمكنها هذا، ستؤسس بيتًا لنفسها وخاصًا بها، لكنها لا بد أن يُتاح لها وقت قصير، فكل شيء الآن غامض ولا تستطيع أن تكون أي صورة للمستقبل، ربما ستموت عند الولادة، وسيكون هذا حلًا لكثير من الصعوبات.

وعندما رسوا، سُلمت لها رسالتان. دُهِشت عند تعرفها على خط أبيها، إنها لا تتذكر أنه كان كتب إليها من قبل أبدًا. لم يكن مسرفًا بالتعبير عن عواطفه، فقد بدأ الرسالة: عزيزتي كيتي، وأخبرها أنه يكتب بدلًا من أمها التي كانت في صحة جيدة واضطرت إلى أن تذهب إلى بيت استشفاء لإجراء عملية. وعلى كيتي ألا تخشى شيئًا وأن عليها أن تستمر في السفر بالبحر، فستكون العودة بالبر أعلى كثيرًا كما أنه سيكون من غير المناسب لكيتي أن تقيم في البيت في حدائق هارينجتون وأمها خارج البيت. وكانت الرسالة الأخرى من أختها دوريس وبدأت، حبيبتي كيتي، ولم يكن هذا لأن دوريس تُكنّ لها حبًا خاصًا، بل لأن هذه هي طريقتها في مخاطبة أي شخص تعرفه.

:حبيبتي كيتي

أتوقع أن يكون أبوك قد كتب اليك رسالة. ستجري أمانة عملية جراحية. يبدو أنها كانت متعبة جداً طوال السنة الماضية، لكنك تعرفين أنها تكره الأطباء، وكانت تأخذ كل أنواع الأدوية المتوفرة. إنني لا أعرف بالضبط ممّا تعاني منه، فهي تصرّ على إخفاء الأمر كله وتنفجر في نوبة عاطفية إذا أنتِ طرحتي عليها أي أسئلة. لقد بدا عليها أنها في حالة سيئة تماماً، ولو كنت في مكانك فإنني كنت سأفكر بالنزول في مارسييا وأعود بأسرع وقت ممكن. لكن، لا تذكرى لها أنني طلبت منك الحضور، فهي تتظاهر بأن ما تعاني منه ليس خطيراً، وهي لا تريدك أن تصلي إلى هنا إلا بعد أن تعود هي إلى البيت. لقد أجبرت الأطباء على أن يعدوها بأن تنتقل إلى البيت خلال أسبوع. حبي الخالص.

.دوريس

أسفة جداً فيما يتعلق بولتر. لا بد أنك أمضيت وقتاً جهنمياً يا حبيبتى المسكينة. إنني في شوق عارم لكي أراك، سيكون من الجميل أن نضع كلانا طفلين معاً. سنكون قادرتين على أن نتمسك كل منا بيد الأخرى.

وقفت كييتي لوهلة قصيرة على سطح السفينة وقد استغرقت في التفكير. فلم تستطع أن تتخيل أمها مريضة. فهي لا تتذكر أبداً أنها رأتها إلا وهي نشيطة وحازمة أمرها. لقد كانت دائماً غير صبورة على أمراض الناس الآخرين. ثم سعد مضيف السفينة واقترب منها ومعه برقية.

بحزن عميق نبغك أن أمك ماتت هذا الصباح. أبوك

* * *

رنت كيبي جرس البيت في حدائق هارينجتون. أبلغت أن أباه في غرفة مكتبه، فأتجهت إلى الباب وفتحته بلطف. كان يجلس إلى جانب النار يقرأ آخر طبعة من الجريدة المسائية. رفع نظره حين دخلت، فوضع الجريدة، وقفز بعصبية ليوقف على قدميه.

- أوه كيبي، لم أتوقع حضورك إلا في القطار التالي -

فكرت أنك لن ترغب في أن أزعجك بالمجيء للقائي، لذلك لم أبرق بالوقت الذي أتوقع فيه -

.الوصول

.وقدم إليها وجنته لتقبلها بالطريقة التي تتذكرها جيداً

قال:

كنت ألقى الآن نظرة على الجريدة، فأنا لم أقرأ الجريدة منذ اليومين الماضيين -

رأت أنه يظن أن هناك حاجة إلى بعض الشرح إذا هو شغل نفسه في شؤون الحياة العادية

قالت:

طبعاً، لا بد أنك متعب جداً. أخشى أن يكون موت أمي صدمة كبيرة عليك -

كان أكبر سنّاً وأنحف مما كان عندما رآته آخر مرة. رجل ضئيل مغضن الوجه وجاف، وحافظ على السلوك السليم بدقة

قال الطبيب الجراح إنه لم يكن هناك أي أمل. لم تكن في حالة طبيعية لمدة تزيد عن سنة، -

لكنها رفضت أن ترى طبيباً. لقد أخبرني الطبيب الجراح أنها ظلت تعاني من ألم مستمر، وقال إن من المعجزة أنها كانت قادرة على تحمل هذا الألم

- ألم تشتكي أبداً؟ - -

قالت إنها لم تكن في صحة جيدة، لكنها لم تشتكي أبداً من ألم -

صمت ونظر إلى كيبي:

- هل أنت متعبة جداً بعد رحلتك؟ -

- لست متعبة جداً -

- أتريد أن تصعدي إلى الطابق العلوي وتلقي نظرة عليها؟ -

- هل هي هنا؟ -
- نعم، لقد أحضرت من بيت الاستشفاء -
- نعم، سأذهب الآن -
- أتريدون أن آتي معك؟ -

كان في لهجة أبيها شيء جعلها تنظر إليه بسرعة. كان وجهه يشيح عنها قليلاً. لم يرد أن تلتقي عيناها بعينيه. وكانت كيتي قد اكتسبت مؤخرًا قدرة عجيبة على قراءة أفكار الآخرين. فبعد كل ما جرى، ركزت قدراتها الحسية يوماً بعد يوم لتحديد بالتخمين من كلمة عرضية أو حركة غير منتبهة أفكار زوجها الخبيثة، وخمنت فوراً ما كان والدها يحاول أن يخفيه عنها. لقد كان ما يشعر به هو ارتياح، ارتياح غير محدود، وكان خائفاً من نفسه. فلمدة ثلاثين سنة قاسية متوالية، كان زوجاً طيباً ومخلصاً، ولم ينطق بكلمة واحدة ينتقد بها زوجته، وعليه الآن أن يحزن عليها. لقد قام دائماً بما كان يُتوقع منه القيام به. وسيكون مما يثير الصدمة في نفسه أن يغشى بومضة جفن أو بأصغر تلميح حقيقة أنه لا يشعر بما يجب أن يشعر به زوج حُرْم من زوجته في ظل هذه الظروف.

قالت كيتي:

- لا، سأذهب وحدي -

صعدت إلى الطابق الأعلى ودخلت غرفة النوم الكبيرة الباردة الفخمة التي نامت فيها أمها مدة سنين كثيرة. تذكرت جيداً قطع الأثاث الضخمة من خشب الماهوجني تلك والنقوش التي تزخرف الجدران بأسلوب ماركوس ستون، ورُتبت الأشياء على منضدة الزينة بالدقة الحازمة حسب ما أصرت السيدة جارستين على ترتيبها طوال حياتها. وبدت الأزهار في غير مكانها، فالسيدة جارستين كانت ستري أن وجود أزهار في غرفة نومها سخيف ومتكلف وغير صحي. فلم يغطَّ عطر هذه الأزهار الرائحة الحريفة للملاءات المغسولة منذ عهد قريب، والتي تذكرت كيتي أن غرفة أمها تتميز بها.

استلقت السيدة جارستين على السرير، ويداها مطويتان على صدرها بخنوع لم تكن لتصبر عليه في حياتها. وبدت، بلامحها القوية الحادة ووجنتيها الفارغتين من المعاناة وبصدغيها الغائرين، جميلة ومهيبة. لقد سلب الموت اللؤم من وجهها، وترك عليه فقط ذكرى شخصيتها.

قد تكون إمبراطورة رومانية. بدا غريباً لكيّتي أن هذه الإنسانة الميتة هي الإنسانة الميتة الوحيدة التي رأتها في حياتها والتي تحتفظ بهيئة توحى بأن هذا الصلصال كان ذات مرة مأوى الروح. لم تستطع أن تحس بالحزن، فقد كان بينها وبين أمها الكثير من المرارة مما يمنع أن تترك في قلبها أي شعور عميق من الحنان، وعرفت الآن وهي تستعيد الماضي ناظرة إلى الفتاة التي كانت حينذاك، عرفت أن أمها هي التي جعلتها على النحو الذي هي عليه. لكنها حين نظرت إلى تلك المرأة المتسلطة الطموح التي تستلقي هناك ساكنة وصامتة وقد أطاش الموت كل أهدافها الصغيرة، شعرت برثاء غامض. لقد خطت وتأمرت طوال حياتها، ولم ترغب في أي شيء سوى ما كان خسيساً وغير ذي قيمة. وتساءلت كيّتي إذا كانت تنظر هي إلى مسارها الدنيوي ومن عالم آخر نظرة فزع.

دخلت دوريس

اعتقدت أنك ستحضرين بهذا القطار، ورأيت أنه لا بد أن أتأكد للحظة، أليس رهيباً؟ أمنا -
المسكينة الحبيبة

ورمت بنفسها بين ذراعي كيّتي بعد أن انفجرت باكية. قبلتها كيّتي. إنها تعرف كيف أهملت أمها دوريس لصالحها، وكيف كانت خسنة معها لأنها كانت بسيطة وعنيدة. تساءلت إذا كانت دوريس تشعر حقاً بالحزن المفرط الذي تظهره. لكن دوريس كانت عاطفية دائماً. تمنّت أن تتمكن من أن تبكي، ستظن أنها قاسية جداً. لقد شعرت كيّتي بأنها كابدت الكثير جداً مما يمنعها من التظاهر بضيق لا تحس به.

سألتهما عندما خمد انفجار النوبة إلى حد ما:

أتريدان أن تأتي وتري أباك؟ -

مسحت دوريس عينيها، لاحظت كيّتي أن حمل أختها جعل ملامحها كامدة، كما بدت، وهي في فستانها الأسود، ضخمة وفضفاضة

لا، لا أظن أنني سأتي، سأبكي فقط ثانية، يا للشيء المسكين العجوز. إنه يتحمل هذا بشكل -

مدهش

وقادت كيّتي أختها إلى خارج البيت ثم عادت إلى أبيها. كان يقف أمام النار. وكانت الجريدة قد طويت طياً مرتباً. أراد منها أن ترى أنه لا يقرؤها ثانية

قال:

لم أرتدِ الملابس استعداداً للعشاء. لم أرَ أن هذا ضروري -

* * *

تناولا العشاء. عرض السيد جارستين على كيتي تفاصيل مرض أمها وموتها، وأخبرها عن لطف الأصدقاء الذين كتبوا (كانت على طاولته أكوام من رسائل متعاطفة، ثم تنهد عندما فكر بعبء الإجابة عليها) والترتيبات التي قام بها للجنازة. ثم عادا إلى مكتبه. كان هذا المكتب الغرفة الوحيدة في البيت التي تحتوي النار، وأخذ غليونه، بشكل آلي، عن رف المدفأة وبدأ يملؤه، لكنه ألقى على ابنته نظرة شك وأعاد وضعه في مكانه.

سألت:

- ألن تدخن؟ -

لم تحب أمك كثيرًا رائحة الغليون بعد العشاء، وكففت عن تدخين السيجار منذ الحرب -

آلمها جوابه ألمًا طفيفًا. بدا أن من الرهيب أن يتردد رجل في الستين عن تدخين ما يريد تدخينه في مكتبه.

ابتسمت:

- إنني أحب رائحة الغليون -

عبرت وجهه لمحة ارتياح طفيفة، فأشعل الغليون بعد أن عاد وأخذه مرة أخرى. جلسا متقابلين على جانبي النار. رأى أنه لا بد أن يتحدث إلى كيتي عن متاعبها.

استلمت الرسالة التي أرسلتها أمك إليك إلى بورسعيد، على ما أعتقد لقد كان خبر موت -
ولتر المسكين صدمة عنيفة على كلينا. لقد رأيت أنه شخص رائع جدًا.

لم تعرف كيتي ما تقول.

- أخبرتني أمك بأنك ستضعين طفلًا -

- نعم -

- متى تتوقعين ولادته؟ -

- خلال أربعة أشهر تقريبًا -

- سيكون عزاء عظيمًا لك. لا بد أن تذهبي وترى ابن دوريس، إنه ولد صغير رائع -

كانا يتحدثان من على مسافة أبعد مما لو كانا غريبين تلاقيا منذ لحظة فقط، فلو كانا كذلك لاهتم بها بسبب ذلك ولفضوله، لكن ماضيهما المشترك كان جدار لا مبالاة يفصل بينهما. كانت كيّتي تعرف جيّدًا جدًا أنها لم تفعل ما يثير حنان أبيها نحوها، فلم يُحسب له حساب في البيت واستخف به، فقد كان المُعيل الذي احتقر قليلًا لأنه لم يستطع أن يقدّم لأسرته المزيد من أسباب الرفاهية، لكنها اعتبرت حبه لها أمرًا مسلمًا به لأنه كان أباهًا فقط، فصدّمت إذ اكتشفت أن قلبه كان خاليًا من المشاعر نحوها. لقد عرفت أنهم كانوا كلهم يملون منه، لكن لم يخطر ببالها أنه كان يملّهم بنفس القدر. كان عطوفًا ومذعنًا دائمًا، لكن حدة الذهن الحزينة التي سُحذت لديها أثناء المعاناة أوحّت لها أنه يكرهها في أعماق قلبه، مع أنه لم يُقرّ بهذا لنفسه ولن يُقرّ به أبدًا.

لم يكن غليونه يسحب، فنهض ليبحث عن شيء ينكشه به، ربما كان هذا ذريعة ليُخفي عصبية.

رغبت أمك أن تُقيمي هنا إلى أن تضعي طفلكِ وكانت ستطلب إعداد غرفتكِ القديمة لكِ -

- أعرف، وأعد ألا أكون مصدر إزعاج -

أوه، الأمر ليس كذلك. فمن الواضح في هذه الظروف أن المكان الوحيد الذي ستأتي إليه هو - بيت أبيك، لكن الواقع الآن هو أنه عُرض عليّ منصب رئيس محكمة جزر الباهاما وقد قبلت العرض.

- أوه، يا أبي. أنا سعيدة جدًا. أهنئك من كل قلبي -

وصل العرض متأخرًا بعد فوات الأوان، فلم أستطع أن أخبر أمك. كان هذا سيرضيها رضىً عظيمًا.

سخرية القدر المريرة. بعد كل الجهود والمؤامرات والإذلالات، ماتت السيدة جارستين دون أن تعرف أن طموحها تحقق أخيرًا، مهما جرى على هذه الطموحات من تعديل بسبب خيبات الأمل الماضية.

سأبحر في أوائل الشهر القادم. سيوضع هذا البيت بين يدي الوكيل طبعًا، وأنوي أن أبيع - الأثاث. إنني آسف لأنني لن أكون قادرًا على أن أسمح لكِ بالإقامة هنا. لكنك إذا أردت أخذ أي قطعة من الأثاث لتوثني شقة، فسيكون من دواعي سروري العظيم أن أعطيكِ إياها

نظرت كيتي في النار. خفق قلبها بسرعة. كان من الغريب أن تصبح عصبية إلى هذا الحد فجأة، لكنها حملت نفسها أخيراً على أن تتكلم، وكانت في صوتها رعشة طفيفة

- ألا يمكنني الرحيل معك يا أبي؟ -

- أنت؟ أوه، عزيزتي كيتي -

وسقط وجهه. كثيراً ما سمعت هذا التعبير، لكنها أخذته فقط كمباراة لغوية، لكنها رأت لأول مرة في حياتها الحركة التي يصفها. لقد كانت واضحة جداً إلى حد أنها أزعجتها

لكن كل أصدقائك موجودون هنا، ودوريس هنا، ظننت أنك ستكونين أسعد كثيراً إذا أنت - استأجرت شقة في لندن. إنني لا أعرف بالضبط ما أحوالك، لكنني سيسرني جداً أن أدفع أجرتها

- لدي ما يكفي من مال لأعيش عليه -

- سأذهب إلى مكان غريب. و لا أعرف شيئاً عن أحواله -

- أنا معتادة على الأماكن الغريبة. ولم تعد لندن تعني شيئاً لي. إنني لا أستطيع أن أتفهم هنا -

أغمض عينيه للحظة وظنت أنه سيكي. فاكتسى وجهه تعبير تعاسة مطلقة، وعصر هذا قلبها. لقد كانت على حق. لقد أشاع موت أمها الارتياح في نفسه، وها هي الآن فرصة انتزاع نفسه انتزاعاً كاملاً من ماضيه تمنحه الحرية. لقد رأى حياة جيدة تمتد أمامه أخيراً وبعد كل هذه السنوات، حياة راحة وسراب سعادة. ورأت رؤية غائمة كل المعاناة التي افترست قلبه لثلاثين سنة. وأخيراً، فتح عينيه. لم يستطع منع إطلاق التنهيدة التي هربت منه

- إذا كنت تريدين المجيء فإني سأسعد كثيراً طبعاً -

كان هذا مثيراً للثناء. كان الصراع قصيراً واستسلم إلى شعوره بالواجب. وبكل تلك الكلمات القليلة، تخلى عن كل آماله. فنهضت واقفة من كرسيها واقتربت منه ثم ركعت أمامه وأمسكت بيديه

- لا يا أبي، لن آتي إلا إذا أردتني أن آتي. لقد ضحيت بنفسك بما فيه الكفاية. إذا أردت أن -

- تسافر وحيداً، فسافر. لا تفكر في لدقيقة

- أفلت إحدى يديه ومسّد رأسها الجميل

- أريدك طبعاً يا عزيزتي. فأنا أبوك على الرغم من كل شيء. وأنت أرملة ووحيدة. إذا أردت - أن تكوني معي فسيكون قسوة مني ألا أريدك أن تأتي معي

لكن، ذلك هو الأمر. ليس لي حق عليك لأنني ابنتك. وأنت لست مديناً لي بأي شيء -
أوه يا طفلي العزيزة -

وكررت القول بحماس

لا شيء. إن قلبي يغرق عندما أفكر كيف أننا ازددنا سمناً على حسابك طيلة حياتنا ولم نقدم -
إليك شيئاً مقابل هذا. ولا حتى عطف طفيف. أخشى ألا تكون عشت حياة سعيدة جداً. ألن تسمح
لي أن أحاول أن أعوضك قليلاً عن كل ما فشلت في أن أفعله في الماضي

تجهم قليلاً. لقد أربكته عواطفها

لا أعرف ما تعنيه. فأنا لم أشتك منك -

أوه يا أبي. لقد عانيت كثيراً جداً، وكنت شديدة التعاسة. أنا لست كيتي التي كنتها حين -
رحلت. إنني ضعيفة جداً، لكنني لا أظن أنني النذلة القذرة التي كنتها حينذاك. ألا تريد أن تتيح لي
فرصة؟ ليس لدي من أحد في العالم سواك. ألن تسمح لي في أن أحاول أن أجعلك تحبني؟ أوه يا
أبي. أنا وحيدة وتعيسة للغاية. أنا بحاجة ماسة إلى حبك

دفنت وجهها في حجره وبكت كأن قلبها كان سينفطر

تمتم:

أوه، يا كيتي، صغيرتي كيتي -

رفعت عينيها وأحاطت رقبتة بذراعيها

أوه يا أبي، كن رقيقاً بي، لنكن رفقاء ببعضنا البعض -

قبلها على شفيتها، كما قد يفعل محب، وتبلل خداه بدموعها

طبعاً ستأتين معي -

هل تريدني أن آتي؟ هل تريد حقاً أن آتي؟ -

نعم -

أنا ممتنة لك -

أوه يا عزيزتي، لا ترددي أقوالاً كتلك لي. إن هذا يشعرني بالارتباك تماماً -

أخرج منديلته وجفف عينيها، وابتسم بطريقة لم تره يبتسم مثلها من قبل، ومرة أخرى، رمت
ذراعيها حول رقبتة

- سنعيش في مرح يا أبي العزيز، ولن تعرف مدى اللهو الذي سنلهوه معاً -
 - لا تنسي أنك ستنجبين طفلاً -
 - سيسرني أنها ستولد هناك على مسمع من البحر وتحت سماء زرقاء واسعة -
- :تمتم مبتسماً ابتسامته الرقيقة الجافة
- هل حددت جنس المولود؟ -

أنا أريد طفلة لأنني أريد تربيته، فلا ترتكب نفس الأخطاء التي ارتكبتها أنا. عندما أنظر إلى الماضي أنظر إلى الفتاة التي كنتها، أكره نفسي. لكن لم تُتح لي أبداً أي فرصة. سأربي ابنتي لتكون حرة وتستطيع أن تقف على قدميها. لن أجلب إلى العالم طفلة وأحبها وأنشئها لكي يشتهي رجل أن ينام معها إلى حد أن يقدم إليها عن طيب خاطر المأوى والمأكل طيلة حياتها

.تجمد أبوها. فهو لم يتكلم قط عن أمور كهذه، وقد صدمه سماع هذه الكلمات من فم ابنته

اسمح لي أن أكون صريحة هذه المرة فقط يا أبي. لقد كنت بلهاء وشريرة وكريهة، وقد عوقبت عقاباً رهيباً. وأنا مصرة على أن أنقذ ابنتي من كل ذلك. أريدها أن تكون شجاعة وصريحة. أريدها أن تكون شخصاً مستقلاً عن الآخرين لأنها تمتلك نفسها. وأريدها أن تأخذ الحياة كرجل حر، وأجعل حياتها أفضل من حياتي

لماذا يا حبيبتي، أنت تتكلمين كأنك في الخمسين من عمرك، فحياتك كلها أمامك. يجب ألا تكوني يائسة

:هزت كيتي رأسها وابتسمت ببطء

.لست يائسة. فلديّ الأمل والشجاعة -

انتهى الماضي، وليدفن الموتى موتاهم. هل هذا قاسٍ قسوة رهيبية؟ لقد تمنيت من كل قلبها لو تعلمت التعاطف وحب الخير. لم تستطع أن تعرف ما يُخبئه لها المستقبل، لكنها شعرت في نفسها بقوة تتقبل كل ما يحل عليها بروح خفيفة ومرحة. ثم طفت، فجأة وبلا سبب تعرفه ومن أعماق لا وعيها، ذكرى الرحلة التي قامت بها، هي وولتر المسكين، إلى المدينة المصابة حين واجه موته، فذات صباح انطلقا وهما في محفتيهما والظلام لا يزال مخيمًا، وعندما بزغ النهار اكتشفت بالحدس، أكثر مما رأت بعينيها، منظر جمال يحبس الأنفاس إلى حد أن همّ قلبها الشديد خف لفترة قصيرة. فحوّل المنظر كل المحن البشرية إلى تفاهة. وأشرقت الشمس مبددة الضباب،

ورأت الدرب الذي كانوا سيسلكونه حتى أقصى ما يمكن للعين أن تصل إليه بين حقول الأرز. وعبر نهر صغير وخلال منطقة ريفية متموجة، ربما ما كانت كل أخطائها وحماقاتها، ولا التعاسة التي عانت منها، عقيمة عقماً كاملاً لو أنها استطاعت أن تتبع الدرب الذي تبينته على نحو مبهم أمامها، ليس الدرب الذي قال عنه وادينجتون الطيب المضحك بأنه لا يُفضي إلى أي مكان، بل الدرب الذي تبعته تلك الراهبات العزيزات بتواضع في الدير.

الدرب الذي سيؤدي إلى الرب.

(تمت)

* * *